الآداب

شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب: ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون: ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - Liban

B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

درجت « الاداب »، في مطلع كل عام ، على ان تجري محاسبة مع نفسها ، هي نوع من النقد الذاتي تقصد منه الى ايضاح خطتها ورسم معالم الطريق الذي سلكته في السابق ، او تنوي ان تسلكه في المستقبل .

والواقع ان طريق « الاداب » واضح ، في نظر المشرفين عليها على الاقل . ولا نحسب احدا يأخذ على المجلة انحرافا في المفهوم القومي او دعوة الى خط يتعارض ومصلحة القضية العربية . وقد عانت « الاداب » طوال اعوامها السابقة، وما تزال تعاني ، من حجبها عن قرائها في عدد من البلدان العربية بسبب فضحها للانحراف او الزيف اللذين اصيبت بهما سياسة بعض الحكومات العربية. وكان في هذا ايذاء لها تحملت ما ينتج عنه من تضحية بصبر وايمان .

على ان « الاداب » صامدة ، ولن يثنيها عن خطها القومي الصريح منع او ايذاء . وهي تعتقد انها تتخلى عن مبرر وجودها اذا خطر لها ان تؤثر السلامة وتزعم لنفسها انها مجلة « ادبية » ، بالمعنى المنسوه المبتور الذي يفهم من « الادب » .

فاذا كان هذا صحيحا لا يثير شكا ، وهو اهم ما رصدت هذه المجلة نفسها له ، كان في وسعنا ان نمضي الى استعراض بعض « المآخذ » التي توجه الى «الاداب».



في عامها الرابع عشر

ومن هذه المآخذ ما ورد في رسالة بعثت بها الينا الاديبة المعروفة السيدة نازك الملائكة . وقد جاء فيها :

« ١ ـ الاحظ انكم لا تبالون ان تنشروا انتاجا فيه غلط نحوي ولغوي وبلاغي . ويزيد ذلك ضررا انكم تسلطون على هذا الانتاج معلقين يتناولون الجانب (الفني) منه دونما تعليق على خطأ . وانتم تعلمون ان قتل اللغة العربية وعزل تراثها هدف متستر من اهداف الشعوبية والاستعمار فلا يصح لمجلة قومية نظيفة لها ماض طيب مثل (الاداب) ان تنشر ما يعين على ذلك الهدف ، مهما كانت الاسباب المبررة لذلك النشر .

« ٢ ـ لا تبالي مجلتكم ان تنشر الادب المتحلل الذي يصدر عن نظرة غير اخلاقية الى الحياة والوجود ، وذلك يطعن الامة العربية في صميم كيانها ، لان الادب المرذول يفسد الشباب البريء ويلوث روحيته ويشل عزيمته . والشباب كنزنا وثروتنا ، فاذا فقدناه فكيف نضمن سلامة الدولة العربية التي نحلم بها ؟ ومن الذي سيحرر فلسطين ويقاوم حلم اسرائيل الممتد من النيل الى الفرات ؟

« ٣ ـ دأبت (الاداب) على نشر انتاج لليافعين يغرق في تقليد الفكر الغربي المعاصر بما فيه من تشاؤم والحاد وتحلل وقلق . والتقليد في ذاته قتل لكرامة الذهن

الانساني ، فضلا عن كون الادب المعاصر في الغرب صورة لحضارة منهارة فقدت الاستقرار والسعادة وضاعت في الفراغ ، فلا مصلحة لنا في تقليده آلا اذا اردنا الانتحار .

« ٤ — مما يصدم السمع الشعري ان مجلتكم تنشر الشعر الحر لكل من هب ودب ، دون اي التفات لحرمه الموسيقى وقواعد العروض وسمو الذائقة . وكثير مما تنشرون يغص بالسقطات والنشـــاز والخلط . والذي نرجوه من مجلة في مستوى (الاداب) ان تتخذ موقفا موجها ازاء هذا التيار الركيك فتسلط على الاقل نقادا لهم رصانة فكرية وخبرة بالشعر العربي واصوله لكـي يطلعوا اليافعين على سقطاتهم ، بدلا مـــن هؤلاء الذين يغرقوننا في سيل النظريات المائعة والاراء المستوردة » .

هذه هي المآخذ التي تضمنتها رسالة الشاعرة السيدة نازك الملائكة الى « الاداب » ، ونعتقد ان بعضها على حق وبعضها الاخر يصدر عن مفهومات للقضايا نخالف فيهـا مفهومات الكاتبة .

ومن المآخذ التي نقرها نشر انتاج قد يكون فيه غلط نحوي ولغوي وبلاغي . فانه يحدث ان تدرج في المجلة مادة ضعيفة اللغة ، بالرغم من حرص التحرير على تصحيح اخطائها وتقويم ركاكتها . ونحن لا نعفي مصحح المجلة من بعض هذه المسؤولية . على ان نشر مثل هذه المادة يبرر احيانا بانها تحمل وعودا لا شك فها بموهبة متفتحة تحتاج الى تشجيع . ومن الظلم تجاهل هذا الجانب والاجتزاء بترصد الاخطاء في مثل هذه المادة الواعدة . فهناك كثير من الادباء ، شعراء ونقادا وقصاصين ، سجلوا تحسنـا كبيرا في لغتهم بحيث اصبحوا يتجنبون الركاكة والاخطاء تجنبا واضحا . واحسب انه يحمد « للاداب » انها لم تقف في البدء عند جوانب الضعف تلك لتبرر لنفسهـا حجب تلك المادة نهائيا عن النور . ومهما يكن من امر ، فلا نظن ان نشر مثل تلك المادة يدخل في ما وصفته الكاتبة بأنه « قتل للغة العربية » و « عزل لتراثها » ...

يبقى اننا نرجو ان نأخذ المادة المرصودة للنشر ، بعد الان ، بميزان ادق وحرص اكبر على سلامة اللغة ، من غير تضحية ، مع ذلك ، بالمواهب التي تكمن في هذه المادة .

اما اننا « نسلط على هذا الانتاج معلقين يتناولون الجانب (الفني) منه دونما تعليق على الخطأ » فقد نفهم من هذا الكلام اننا لا نختار من المعلقين الا من كان هذا شأنهم ... وذلك تجن لا يقوم عليه دليل . فالذي يحدث في هذا المضمار اننا نعهد الى صديق لنـا اديب ، فـي القاهرة خاصة ، في ان يكلـف ادباء اخريـــن لا نوحي باسمائهم ، وقد لا نعرفهم اطلاقا ، بان يعلقوا على المـادة المنشورة في عدد سابق . ونحن نؤكد ان هذا الصديق الاديب يلاقي في هذه المهمة مصاعب ومشقات لا يدركها القارىء . فهناك كثيرون ممن يعتذرون عن القيام بالتعليق ، او ممن لا يفون بوعدهم لسبب من الاسباب . واذا اتفق ان اختيار بعض المعلقين لم يكن موفقا ، فمن الظلم ومخالفة الواقع ان يشمل جميع المعلقين بهذه الصفة .

اما ما ورد في المأخذ الثاني من ان مجلتنا « لا تبالي ان تنشر الادب المتحلل الذي يصدر عن نظرة غير اخلاقية ... » الخ .. فقد كنا نتمنى على السيدة نازك ان تدعمه بالادلة والاستشهادات لنعرف ما الذي هو في رأيها ادب متحلل ... ذلك اننا نخشى ان يكون مقياسها هنا هـو المقياس نفسه الذي وزنت به بعض الانتاج الغربي الحديث ، ولا سيما انتاج سارتر ، حين تحدثت في مؤتمر بغداد للادباء العرب عن « الغزو الفكري » ... اننا نود لو تورد لنا الكاتبة بعض الامثلة المحسوسة : فلعل ما نحسبه نحن « تحررا » تراه هي « تحللا » ولا اخلاقية ! اننا نريد أن نفهم مقاييسها للادب الذي تصفه بانه « مرذول » ...

وتاخذ السيدة نازك بعد ذلك على « الاداب » انها تنشر انتاجا لمن اسمتهم « اليافعين » يغرق في تقليد الفكر الغربي المعاصر « بما فيه من تساؤم والحاد وتحلل وقلق » . ونحن لا فرق عندنا بين اليافعين وغير اليافعين ، فلسنا ننظر الى الاسماء ولا الى الاعمار . ان قيمة المادة هي الحكم الاول والاخير . اما تقليد الفكر الغربي المعاصر ، فليس قاصرا على اليافعين دون سواهم . ان هناك كثيرين من غير « اليافعين » لا يكتفون بالتقليد ، بل يسرقون الفكر الغربي سرقه ... على ان قضية « التقليد » هذه اصبحت قضية مفروغا منها : فليست هي « ظاهرة » يختص بها ادبنا العربي المعاصر وحده ، وهي تنسجب او لا تسجب ، بقدر ما هي « واقعة » طبيعية تظهر في كل ادب ينهض من الانحطاط ليلحق بركب الادب الذي يكون قد سبقه في مضمار التقدم والحضارة . ان « التقليد » هنا امر لا مفر منه ، وهو غير واع لانه في طبيعة الاشياء ، وهو « مرحلة » لا بد منها في درب البحث عن الذات وتحقيق الامكانات الذاتية . وليس يضيره بعد ذلك ان يكون فيه تشاؤم والحاد وقلق ، لا سيما اذا كان هذا في اصل التطور الاجتماعي الذي يعكسه هذا الادب . فهل تستطيع الكاتبة أن تنكر ان الجيل العربي الجديد يعاني كثيرا من الوان التشاؤم والقلق ، بسبب من الواقع العربي الذي تمزقه الخلافات بين الرجعية والتقدمية ، ومؤامرات الاستعمار والصهيونية؟ أتريد السيدة نازك ان يصور ادبنا اجواء السعادة والايمان واليقين والتفاؤل ، وهذا هو واقعنا؟ ولكن هل هذا يعني ان « القلق » الذي يعكسه ادبنـا شيء « مرذول » ؟ أليس القلق في كثير من الاحيان علامة الحيوية والوعي ، وبشير الانتاج والخلق ؟

اما قولها ان الادب المعاصر في الغرب « صـورة لحضارة منهارة فقدت الاستقرار والسعادة وضاعت في الفرا غ» فيدخل في تعميماتها التي اصبحت مشهورة ، لانه يحذف بجرة قلم كثيرا من الاثار الغربية الرائعة التي هي من صميم الادب الانساني الخالد .

بقي المأخذ الرابع والاخير الذي ورد في رسالة السيدة نازك الملائكة حول نشر الشعر الحر في المجلة . وفيما نحن نقر الشاعرة على ان بعض النماذج الرديئة من الشعر الحر قد ادرجت في صفحات الاداب ، بـدافع التشجيع وحسب ، نلاحظ ويلاحظ معنا القراء ان السيدة نازك الملائكة قد انتكست انتكاسا كبيرا عن موقفها السابق في تأييد الشعر الحر ودعمه ، لا لشيء الا لانـــه تجاوز بعض القواعد التي وضعتها هي له والتي تظل موضع نقاش وجدال . وهذا موقف مؤسف بالاجمال . ومهما يكن من امر ، فنحن على يقين من ان الشعر الحر قد اثبت وجوده ، وركز كيانه ، ومضى في طريقه ، ولن يرده عنها ان يكون بعض من يعالجونه وينتجونه ممن لم تستقم لهـــم الاداة الشعرية والمتطلبات الفنية . وسيكون في العدد الممتاز الذي يصدر في اواخر فبراير القـــادم درس ومعالجة ومناقشة لقضايا الشعر الحر في جميع ابعادها .

ونحن نكتفي الان بهذه « المآخذ » على « الاداب » . وكنا نود ان نحدث القراء عما تنوي المجلة ان تقوم به في عامها هذا الجديد من تحسين لمادتها بصورة عامة ، ولكننا نؤثر ان ندع ذلك للقراء انفسهم مما سيقرأون في اعدادنا القادمة ، آملين ان تظـــل « الاداب » الصوت الحقيقي الصادق لأفضل النتاج العربي الحديث .

سهيل ادريس

رسالة إلى السيد المسيح

بقلم محيي الدين اسماعيل

ايها السيد المتوج بالفجر !

ها انت تهبط هاوية السأم من جديد ... تهبط على انقاض المعاصي والاثام ، لتسمع الى اهاننا من جديد!

- من قوانين النار وناموس الالم يصوغ بعض لبعض قيود الاسار الابدي .

بفؤوسهم الملعونة ينجرون صليب العذاب .. تنزف الدماء ، ويصمت الالم .

لم يعد هناك سوى الصمت وصرير اخشاب الصليب!

اما دماؤنا فما زالت تحتفظ باغنيتها القديمة، وتنشد الحنين من فمك الجميل !

فمك الذي نطق بالميلاد الجديد في عالم نكست عليه الرايات السود !

المعابد الرخامية انهارت ،

والتماثيل الخشبية المنخورة تنتصب في كل مكان.

رومية القديمة تريد ان تحكم الارض من جديد، على جماجم الرعاة ...

يريدون ان يضعوا في مجمرتك المقدسة حفنات من بارود ، اما بخورك فمتروك على عتبة هيكلك المتصدع !

ولكن ايامك لن تذهب ..

وسيولد نشيد سليمان ..

وتظل السمراء كمجمرة البخور تجوس في ظلال الارض .

اعداؤك كثار ، والسنتهم سيوف من نار .

ها هم ، انظر اليهم .. يريدون ان يختموا على باب قبرك بالشمع الاحمر !

اين رمسك الذي تدفقت منه امجاد الشمس ؟

اين الخبز والنبيذ ؟

اين البلوطة العذراء ؟

اين قيثارة الراعي من اوتار قلبه ؟

اين الصمت الذي لا تنام فيه اللعنة ، وتسير عرجاء امام الانسان ؟

ايها السيد المتوج بالفجر !

شمسك استحالت الى كرة من نار عشش فوقها الظلام .

والخبز داسوه ..

اما النبيذ فقد اهرقوه امام رواق هيكلك العزيز...

والبلوطة العذراء استحالت الى حطب وفحم ...

وقيثارة الراعي من اوتار قلبه تمزقت وتهارش حولها الذباب .

وصمتك المضطجع على شفتيك افزعوه بصرير اخشاب الصلبان وبابواق النفير .

ايها السيد المتوج بالفجر !

جاءتني حبيبتي كاليمامة ، في عينها دمعة لميلادك الجديد .

حبيبتي السمراء تموت الابتسامة في قلبها ...

حبيبتي السمراء يريدون ان يستقبلوا نهديها برماحهم المسمومة قبل ان تقدم الي الخمر العتيقة من الزق المختوم .

فمها راووق قديم ، وعيناها سواد معطر الاغوار ..

ايها السيد المتوج بالفجر !

ملعونة ذنوبهم ، مسلوخة جلودهم كالرمم ...

انظر الى زيتونتنا الخضراء زرعتها يمامتي مع فجر مولدك ...

رويتها بدمعي .. ويريدون افتراسها .

يريدونها حطبا لسعيرهم ...

يريدونها تماثيل خشبية تتجشأ العار ...

لا تقف بعيدا عنا يا رفيق المشقة والدماء !

يريدون ان يذيقوا يمامتي من كأس الشوكران ..

ويتمرغون هم في معصرة يمامتي العذراء .

فلتنسحق عظامهم تحت اغصان زيتونتنا الخضراء !

ولتكن دينونتهم في رماد الزيتون ...

ولياليهم مقرورة في سعير قطبي لا يهدأ !

ايها السيد المتوج بالفجر !

بالحزن العميق ذكرتك .

وفي الوحشة وجوف الظلام بكيتك .

وبأذيال ردائك الاطلسي الذي تزركشه النجوم مسحت دمعي .

حبي يسير في مواطىء اقدامك .

وعلى طريق الاحزان ركضت وراءك .

ايها النور الطافر في زرقة الفجر !

سألت عنك العرافين فلم يعرفوك ،

وسألت عنك يمامتي السمراء .

رفرفت بجناحيها المسحورين بضيائك وقالت :

ها هو ذا المصاوب الذي لم يصلبوه ...

قاهر الاوجاع الذي احزنوه ...
ممالكته ليست في هاوية السأم والدموع .
ايها الظافر بالخطاة !
في طريق المحبة سقتنا .
ومن ينبوع القيامة قدمت لنا راووق نبيذك ...
اما هم ففي افواههم غش، وفي صدورهم وحش..
ويمامتي ... يمامتي السمراء ، عيناها تسبيحة لمجدك ...
عيناها لؤلؤ من ضيائك ...
وشعرها كثيف السواد حزنا على الحمل المذبوح بمنجل الاشرار ...
ايها السيد المكلل بالفجر !
يمامتي السمراء منبع للعطر في هيكلك
في عينيها متشاعل من نورك
وفي قلبها انشودة من فجرك
وفي صدرها صايب من نار
كن قريبا منا يا فتى الزيتون !
لقد احترق تابوت العهد القديم ،
وهم ينحدرون في هاوية السأم بلا سأم ... بلا نـدم ...
أركلهم باقدامك من القاع
مزق اكفانهم ... واخرج جثثهم للعراء ...
ليبقى المهد الذي لن تحرقه النار ...
ولينطفىء ناموس النار بين يديك !

القاهرة **محيي الدين اسماعيل**

مقابلة أدبية مع : جان بول سارتر

نشرت جريدة « الاهرام » القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ - ١٢ - ٦٥ مقابلة هامة مع المفكر العالمي الكبير جان بول سارتر الذي سيزور الجمهورية العربية المتحدة في أواخر هذا العام ، وسيزور كذلك معسكرات اللاجئين الفلسطينيين قبل زيارته لاسرائيل (١) . ويسر «الاداب» ان تستأذن زميلتها القاهرية الكبيرة بنشر هذا الحديث الخطير .

***

الشيء الذي ادهشني حينما قابلت « سارتر » هو احترامه للمواعيد ، كان قبلي في الموعد بخمس دقائق ، وانه انساني في حياته اليومية ، يهمه جداً وانت امامه ان تكون مرتاحا في مقعدك .

هذا العملاق الذي بث الذعر يوما في نفس رئيس محكمة جنايات فرنسا الذي كان يحاكم الفرنسيين لمساعدتهم الثورة الجزائرية حينما قال له : « لقد استدعيتني كشاهد ولكني في الواقع منهم ، لانني احسد هؤلاء الابطال الصغار في انهم استطاعوا ان يقوموا بهذه الخدمة لثوار الجزائر . واذا شئت انصحك بان تعتبرني متهما » . ولم يتجرأ رئيس المحكمة ان يدخل سارتر الى قفص الاتهام حتى لا تصيح الوف الحناجر في عواصم الدنيا : ماتت الحرية .

هذا العملاق حينما تراه : مؤدب جدا بل خجول . استقبلني في بيته الجديد وراح بحماسة الملتزم المعروف يجيب على اسئلة الاهرام .

سؤال : لنبدأ حديثنا بالمستقبل . اعني رحلتكم المرتقبة الى مصر التي ينتظرها الكثيرون من المثقفين العرب باهتمام ..

سارتر : يسعدني حقا ان ازور مصر - اعتقد اني ساقوم بها في ديسمبر ١٩٦٦ بسبب ارتباط سابق لي بزيارة اليابان ، وسوف تهيىء لي هذه الزيارة فرصة الالتقاء بالمثقفين المصريين واجراء حوار مفتوح معهم .. هذا فضلا عن التعرف على بلادكم الجميلة التي لم يتح لي رؤيتها من قبل .

سؤال : اسمحوا لنا ان نعود الى الوراء قليلا للتحدث عن الماضي بهدف تصفية بعض الالتباسات فلسنوات طويلة ظن البعض انكم تحجمون عن الحوار مع الطليعة الثورية المصرية .. في الوقت الذي كان فيه هؤلاء الناس مشتبكين في نضال ضد جهود كانت تمارسها بعض السياسات الغربية في محاولة دائبة لجرنا الى حلف سياسي عسكري ابتداء من حلف بغداد الى الحلف المركزي . فهل يمكن لكم ايضاح السبب في هذا الاحجام ؟

سارتر : انكم تطرحون هنا في الواقع مسالة تاريخية وهي العلاقة بين المثقفين اليساريين بفرنسا - وانا واحد منهم - وبين حركة ثورية لا يمكن النظر اليها كشيء ثابت ، وانما تتطور حثيثا نحو غاياتها الخاصة . ومن الواضح انني لم احجم ابدا عن الحوار مع المصريين الذين ناضلوا من اجل القضية الثورية ولقد جاء الى مقابلتي بعض من تفاعلوا مع النظام الثوري في مصر . ولا زلت اذكر ان بعضهم حين جاء لمقابلتي اخذ يحدثني عن ضرورة زيارتي لمصر .. لكن لسوء الحظ - ولما تعلمونه عن طبيعة الثورات بتقلباتها ومنعرجاتها - فقد نشأت ظروف ادت الى ان بعضهم دخل السجن في وقت كنت قد قررت فيه السفر فعلا بناء على تقديرهم .. في تلك الظروف ، فان ما امتنعت عنه ببساطة يرجع في الحقيقة الى انني وجدت نفسي في وضع لا يسمح لي بان اتبين حقيقة الموقف الذي يتعين علي ان اتخذه في مواجهة تقلبات ومنعرجات النضال ، فضلا عن ان معلوماتي عنه مبتورة ومشوهة - ولم يكن من الممكن بالتالي الحكم على كل هذا الا بعد انقضاء فترة من الزمن . ومن هنا فقد كان احجامي بسبب خوفي من الخوض في حديث حول اشياء معلوماتي عنها ناقصة وغير دقيقة - الأمر الذي قد يؤدي الى ان اتخذ مواقف قد تسيء الى هؤلاء او اولئك دون ان اعلم .. وحيث اكون قد ارتبطت بالتزام وانا لست على بينة بكل عناصره . وهكذا عندما دعاني البعض ونصحني بان اجيب الدعوة واوشكت ان اقرر السفر - بدا لي انه من المتعذر علي ان ازور مصر ، وان اتحدث مع اخرين في وقت كان البعض - بالذات من اليساريين - قد دخلوا السجن .. فان الثورة كما نعلم ظاهرة معقدة تتطور خلال صعاب متنوعة نحو اهدافها المحددة لها . وواضح اننا اليوم نقترب من لحظة الترجيح الحاسم للعناصر الايجابية في الموقف ، ومن ثم اصبح الوضع الان صالحا للحوار .. وها انا اتحدث اليكم دون ما خشية مني او حرج .. ويظهر فعلا الان انه قد تم عدد من الانجازات الثورية التي عملت على بلورة الوعي في المجتمع المصري .. وهو الامر الذي كان يجري من قبل بطريقة حثيثة ، وهو يسمح الان بالتعبير الصريح . وبصفة خاصة فاني اقرر - وهذا امر عظيم - ان الثورة وان بدت لنا من قبل في صورة استيلاء جزء من البرجوازية على السلطة ، افضت في الحقيقة والواقع الى انضاج عدد من الطبقات الاجتماعية الاخرى - هذه الطبقات التي اصبحت تملك الان القدرة على التعبير عن ارادتها داخل اطار العمل الثوري . وانطلاقا من هذا الوضع فان اللقاء مع المصريين يعتبر بالنسبة لي ولغيري من المثقفين قضية تهمنا غاية الاهتمام .

سؤال : رغم كل الاعباء التي تتحملها مصر بسبب تطورها الاقتصادي والاجتماعي - استطاعت أن تلعب دورا ثوريا ابتداء من الكونغو حتى الجنوب العربي تحملت فيه على الدوام في حدود اقصى امكانياتها تقديم كل مساعدة ممكنة ، وبصفة خاصة تجاه الكونجوليين عندما دعا الرئيس جمال عبد الناصر بصفته رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ثوار الكونغو الى القاهرة في محاولة لتوحيد صفوفهم في جبهة متحدة . وفي كل هذه الجهود التي بذلت لخدمة الحركات الثورية احسسنا ان اليسار الفرنسي لم يدرك اهمية هذا الدور .. ومن ثم لم يقدم لها المساندة الواجبة .

سارتر : داخل اليسار الفرنسي هناك اشياء كثيرة يجب ان تقال .. والواقع انها مشكلة شديدة التعقيد - فمن المؤكد ان علاقات اليسار المبدئية مع عدد من المبادىء المتعلقة بالايديولوجية وبالتكتيك مع العالم الثالث ، هي علاقات صعبة ومعقدة معا .. فهي لن تكون على نسق واحد في جميع الحالات بل ستختلف مع مصر عنها مع غيرها من البلاد . فمن الواضح بجلاء ان مشاكل العالم الثالث تتحدد وتتشكل على اساس الضرورات الخاصة بهذه البلدان - والتي تبرز خلال مراحل تطورها . وهذه مسائل لها دائما طابعها النوعي المتميز .. وكثيرا ما تثير البلبلة امام اليساريين عندنا .. اقصد نحن الذين درجنا على تصور الامور وفقا لمعايير مختلفة .. غير ان هذا بالطبع لا يجب ان يؤدي الى تخطئة لهذا اليسار من جانب او لحركة التطور في العالم الثالث من الجانب

---

(١) يذكر القراء ان رئيس تحرير « الاداب » كان قد وجه منذ اشهر رسالة الى سارتر بمناسبة ما اذيع عن اعتزامه زيارة اسرائيل ، دعاه فيها الى زيارة لبنان وزيارة معسكرات اللاجئين الفلسطينيين . وقد حقق سارتر بتلبيته دعوة الجمهورية العربية المتحدة له رغبة جميع الذين يؤمنون بتفكيره الحر ونشدانه الحقيقة .

الاخر .. وانما هو يكشف فقط مدى الصعاب التي تواجه عملية التقارب بينهما .

هذا هو بالدقة السبب في انه لا بد من وقت لبناء هذا التقارب .. وهو نفس السبب على وجه التحديد الذي دفعني ان انتظر طوال هذا الوقت قبل ان اسعد نفسي بزيارة مصر . هناك بعد ذلك – وبصفة خاصة – عدد من الانماط العزيزة علينا – نمط كالديمقراطية ، نحن لا نجهل انه لا يمكن حل مشكلة على مثل هذه الدرجة من الخطورة تثور في مجتمع يأخذ طريقه الى التصنيع ويتحرك من حالة التخلف الى حالة التقدم ، دون ان تتواجد بعض المؤسسات المركزية . اننا نعلم هذا كله .. ومن المؤكد انني لا اقترح هذا النمط من الديمقراطية بالذات بالنسبة للعمل القيادي في بعض البلدان . فقد لا يكون هذا النمط قابلا للتطبيق بدون الوصول الى درجة معينة من التطور الثوري. على هذا الاساس يتضح لي على وجه التحديد ان نوع الديمقراطية الذي انمناه لكم ليس هو الديمقراطية التقليدية البرجوازية .. لكنه ذلك النوع من الديمقراطية الذي يتيح الفرصة للجماهير الشعبية العريضة كي تعبر عن نفسها . ويبدو لي ان هذا يفترض بلوغ هذه الجماهير العريضة درجة من النضج السياسي واظن هذه الدرجة من النضج قد تحققت في مصر .

سؤال : اذا نظرنا الى عالم اليوم ، فثمة احساس قائم بان الحركات الثورية قد يراد تجميدها او عرقلة حركتها .. بينما تدعم قوى الرجعية قدرتها على العدوان . ما هي في رأيكم الاسباب العميقة لهذه الازمة داخل الحركات الثورية ؟

.. وبناء على ذلك – ما هو الدور الذي يمكن للقاهرة ان تقوم به في نظركم بوصفها احدى العواصم النادرة التي ما زالت تحتفظ بحرية الحركة ؟

سارتر : ان السبب الاساسي في اعتقادي لتجميد بعض الحركات الثورية – هو ان التعايش السلمي في مجمله قد أفاد الكتلة الاستعمارية اكثر من الكتلة الاشتراكية . وهذا امر يمكن فهمه .. ان المطلوب من التعايش السلمي هو اقامة علاقات طيبة – لكن الدعوة لاقامة مثل هذه العلاقات الطيبة – وهي تفضي في نهاية الامر العمل على تجنب الاحتكاكات في كل مكان – قد اتاح للاستعماريين وهم يضعون الحرب في حسابهم امكانية اخيرة ، ان يقدموا على ممارسة تدخلات عديدة كما حدث مثلا في الكونغو وفيتنام الخ ..

اذن – فالذي يواجهنا في واقع الامر هو وضع معين واجبنا ان نعمل على تصحيحه ، وهو على اي حال في طريقه الان الى التصحيح. وانا شخصيا لا اعتقد انه يمكن تصور ان سياسة الكتلة الاشتراكية ستظل على ما كانت عليه حتى الان ، وبالذات منذ حرب الفيتنام .ولكن هناك سبب اخر كشفه « فانون » (يقصد فرانز فانون المفكر الثوري والطبيب النفساني – الذي شارك في الثورة الجزائرية وصار يمثلها في غانا حتى وفاته قبل انتصار الثورة) – وهو انه في عدد من البلدان التي ناضلت من اجل استقلالها وانجزت ثورتها ، تكونت طبقة من البرجوازية الصغيرة مكنت للاستعمار الجديد من ان يخلق الحاجة الى انشاء جيش .. فهي بهذا تعمل لصالح الاستعمار الجديد داخل بلادها. ومن هنا نجد انه باستثناء بعض البلدان التي احتفظت بعد استقلالها بنشاط ثوري حقيقي – هناك بلدان لا يعدو الاستقلال بالنسبة لها مجرد كلمة . وفي مثل هذه الحالات من المهم جدا وجود البلدان الاكثر تطورا – حيث كانت البرجوازية موجودة .. وكان من الواجب اجتذاب الطبقات الدنيا بالمعنى الاقتصادي للكلمة – الى درجة من النضج ... ومن المهم جدا وجود هذه البلدان وان تزيل بالتدريج نفوذ الطبقات القديمة السائدة . ومن الواضح ان هذه المشكلة في مصر في سبيلها الى الحل ، اي يبدو ان الطبقات التي كانت مقهورة ومقيدة تناضل حقيقة من اجل ان تحل محل الطبقات القديمة – لهذا السبب يبرز دور مصر على الدوام في افق السياسة الدولية كخميرة ثورية .. وانا من جانبي اتضامن معها منذ حرب السويس .

سؤال : انتهينا بذلك من قضية التيار الثوري على النطاق الخارجي – ويبقى ان نتحدث عن فلسفتكم التي الفها عديد من العرب منذ زمن بعيد . وتعلمون افضل منا ان فلسفتكم الوجودية قد اسيء فهمها او حرفت حتى ظهر مؤلفكم « الوجودية فلسفة انسانية » – فمن اجل تقويم حقيقي لكتابكم – هل يمكن ان نشرح ماهية الوجودية ؟

سارتر : الوجودية هي احدى فلسفات الحرية – لكن الحرية ليست حرية اللامبالاة او حرية الاختيار العشوائي او حرية التحيز بلا تمييز – انما هي حرية الفعل .. ان تكون حرا معناها ان نكون مسئولا مباشرة عن فعلك .. اذن المسألة – والحقيقة هي هي المسألة المركزية في الوجودية – هي مسألة الفعل. بعبارة اخرى « اللاطمانينة السلبية » في هذه الناحية تلتقي مع الماركسية .. وهذا ما دفعني مؤخرا الى ان اصف الوجودية بانها ليست الا لحظة مؤقتة من الحقيقة – وذلك ما دامت الماركسية لم تكن قد اخذت على عاتقها مواجهة المسائل التي طرحتها علينا ، وعلى وجه الدقة ، مسائل الالتزام والمسئولية .. انكم تعلمون انني كتبت في احدى مسرحياتي « انت لست الا حياتك » .. « انت لست الا ما صنعت » .. بعبارة اخرى ، الانسان الوجودي يتحدد فقط حسب عمله وفعله .. وبالتالي فان هدفه هو ان يؤكد حرية العمل والفعل بانخراطه في مجموع الاخرين من البشر المحيطين به والذين يحيون معه لان ليس هناك انسان يستطيع ان يكون حرا وحده. الانسان حر في مجتمع حر . ومن ثمة فنحن احرار بالدقة لاننا نناضل من اجل الصيرورة . ان اول اشكال حريتنا هو حرية اتخاذ القرار . وهو شكل حرفته المجتمعات في تتابعها . ولتحقيق تعريف الانسان على اساس انه كائن يمارس نشاطا عمليا بصفة اساسية وصاحب التزام اجتماعي ، لا بد من تحطيم الانقسامات بين الطبقات والامم وهي الانقسامات التي تعطي للعالم صورتها الراهنة التي نعرفها .

سؤال : نجدنا مضطرين للعودة الى الوراء والحديث من جديد عن موقف مصر ازاء عدد من الحركات الثورية .. الا تجدون من وجهة نظر التحليل السياسي الموضوعي – ان دور الجمهورية العربية المتحدة بجانب الجمهوريين اليمنيين كان دفعا لقوى الثورة حيث كان يبدو ان لا امل لها ؟

سارتر : في رأيي ان مصر ساهمت بمساندتها للثورة اليمنية باكثر من البلاد ذات الحكومات الاشتراكية مثل حكومتنا الفرنسية اثناء الحرب الاسبانية .. بغض النظر عما كانت عليه ارادتنا او امكانياتنا وقتذاك. لقد جاء موقف مصر اكثر حسما واشد اصالة من الوجهة الثورية من موقف حكومة ليون بلوم اثناء الحرب الاسبانية . ومع ذلك يمكن القول اننا في هذا المقام بصدد مواقف مشابهة .

سؤال : كثر الحديث عن ازمة اليسار في اوروبا .. وبوجه اخص عن اليسار الفرنسي ، ازمة تتمثل امام اعيننا في انخفاض الروح الثورية وتفشي نوع من الانتهازية السياسية في بعض الجوانب حيال عدد من المشاكل . فهل ترجع ازمة اليسار في رأيك الى سبب اساسي يفضي الى عدم القدرة على فهم كثير من المشاكل المطروحة في العالم الثالث ، وافتقاد حوار حقيقي بين اليسار والطليعة الثورية في افريقيا والشرق الاوسط مثلا ؟

سارتر : انم تطرحون سؤالا في غاية التعقيد .

وكنقطة بداية – احب ان اقول ان ازمة اليسار الفرنسي يمكن ان نسميها ازمة تعدد اليساريات الفرنسية ، وان شئتم الدقة – هي ازمة المجتمع الفرنسي .. والسبب في الشلل في انقسام صفوف اليسار هو ان المجموعة التي تؤلف الاغلبية والمتمثلة في الحزب الاشتراكي الفرنسي .. انما تتشكل من اناس ذوي مصالح مختلفة عما يمثله الحزب الشيوعي ، والمسألة هنا لا ترجع الى خطأ في القيادات .. لكن القضية بصراحة هي قضية المجابهة في مجتمع تشكل نظام حياته الصناعية على نقطة انطلاقه الاولى فحسب – والذي تجمدت فيه الحياة عند حدود هذا الانطلاق ، وقد نتج كذلك نوع من التجمد في الصراعات وفي التناقضات .. وهذا وضع من المحتمل ان يتغير وان كانت الانتخابات

يسر مجلة ((الاداب)) ان تعلـــن ان عددهـــا
السنوي الممتاز لعـــام ١٩٦٦ سيعالج موضوع

الشعر العربي الحديث

وسيكون حافلا بالدراسات والبحوث التـي تتناول قضايا الشعر العربي الحديث ، مضمونا وشكلا ، الى جانب النماذج الشعرية الجديدة لكبار شعرائنا المعاصرين وشعراء الشباب .

انتظروا صدور هذا العدد الممتاز في مطلـع اذار (مـارس) ١٩٦٦

قد اثبتت صعوبة الوحدة بين الاحزاب التي تطلق على نفسها احزاب اليسار .

ويمكن القول عنا هنا ـ بصفة خاصة ـ ان السبب الذي جعل موقف الحزب الشيوعي في حرب الجزائر دون ما كان ينبغي عليه ان يكون.. انما يرجع الى ان هذا الحزب قد حاول قبل كل شيء ان يوحد هذا اليسار ، وان يبحث عن اعادة تحقيق وحدة العمل مع الحزب الاشتراكي بينما لم تكن جماهير هذا الحزب راغبة في اقامة هذه الوحدة . بيد ان هذا العامل الذي لعب دورا فعالا في عدد من الحالات لم يكن على اهميته العامل الوحيد للازمة ـ فهناك ايضا عامل ان المشاكل المطروحة في بلدان العالم الثالث الآخذة بسبيل التطور هي في حقيقتها مشاكل جديدة تتطلب حلولا جديدة وتستلزم انشاء صور لايديولوجية تسمح بوضع حلول مناسبة . كل هذا ينبغي أن ينبع من واقع هذه البلاد ذاتها ، اما عن ((يسارنا)) .. فمن الواضح انه قد صاغ منذ زمن طويل مبادئه وفكره وتكتيكاته .. ووجد نفسه في اغلب الاحيان مقحما فـي صراع كلامي تارة ، وصراع ايديولوجي بحت تارة اخرى . او في نوع من انواع الصراعات التي كشفت في الواقع عن عدم القدرة على فهم عدد مـن المشاكل المطروحة . .بخاصة في البلاد التي بسبيل اقامة صناعاتها ، وسأضرب لكم مثلا محددا على ذلك ربما كان بالنسبة لنا المثل الرئيسي .. ان التناقض بالنسبة لنا منذ امد طويل .. اعني المشكلة الرئيسية هي : الاشتراكية ، الديمقراطية .. ومن الواضح ان امانينا على الدوام تتجه الى ايجاد حركة ديمقراطية في البلدان التي نالت استقلالها . ومع اننا نجهل ان هذه البلدان لا تستطيع ان تنجز الجهد الهائـل الواجب عليها دون وحدة عميقة وممركزة .. الا ان ما نامله هـو ان تتحقق هذه الديمقراطية من خلال هذا كله . وهذا لا يعني العودة الى الديمقراطية البرجوازية .. بل دعوة فئات متزايدة الاتساع من الشعب لتساهم في صنع تاريخها .

ويبدو أنه في مصر قد حلت اللحظة التي وصلت فيها الطبقات التي كانت خاضعة ومستغلة ومحرومة الى النضوج . واصبح في وسعها من خلال حركة شاملة ـ خدعنا بشأنها احيانا ، وخلقت سوء الفهم فيما يتعلق بقضية الديمقراطية ـ ان تحل بالفعل محل الطبقات الفنيـة السابقة .

سؤال : شكرا وارجو ان تسمح لنا ان ننتقل لمسألة عملية تتعلق بالعدد الخاص من مجلتكم ((العصور الحديثة)) المخصص للنزاع العربي الاسرائيلي فهل توضح لنا ما هي فكرتكم عن هذا العدد الخاص ؟

سارتر : ان هذا العدد اذا نجح كما اتمنى ـ سيكون عملا هاما.. ويمكن ان يسهم في توضيح المشكلة .. لانه سيكون حدثا اعلاميا .. اعني انه لاول مرة نقدم وجهتي النظر ، وتحرص مجلتنا على ان نلتزم بالحياد الصارم في هذه القضية .. نريد ان نترك لاصحاب الشأن غرض وجهات نظرهم ليكون بوسع الجمهور ان يلم بالمشكلة . ولا نقصد مجرد الجمهور الفرنسي وحده .. بل الجمهور في اوروبا .. اذ من المؤكد انه سيكون لهذا العدد صدى قوي خارج فرنسا نظرا لاهميـة القضية المطروحة . واعتزم مواصلة الالتزام بهـذا الموقف الموضوعي تماما . ذلك بان ازوركم في مصر واتحدث معكم . وازور معسكرات الفلسطينيين . وبعد ذلك سأزور اسرائيل ـ لارى بنفسي ـ وبهـذه الروح كما ترون سوف اقدم هذا العدد .

.. اذن ـ فليس ثمة حوار في الواقع لان عناصر هذا الحوار ليست متوافرة وليس دورنا أن نقيم مثل هذا الحوار .. بل نكتفي بتقديم وجهتي النظر باقصى درجة من الموضوعية وبكل ما تنطوي عليه من قيمة ـ اي باختيار اقدر الناس على التعبير عنهما .

سؤال : نشكركم باسم كل الذين ينتظرون ان يلقوك في القاهرة ـ واترك لكم الكلمة لتخاطبوا الشعب المصري بما تحبون من حديث .

سارتر : تعلمون مقدما ما يمكن ان اقوله ..

ارجو للشعب المصري ان يواصل دوره كعنصر ثوري في العالم الافريقي وفي العالم كله . وارجو له طول النفس الذي يبدو انه يمتلكه بالفعل ، لبناء الاشتراكية في مصر .

(عن ((الاهرام)))

مأساة الحلاج

في الفصل الثاني من مسرحية « مأساة الحلاج » (1) مشهد ثلاثة قضاة ، هم ابو عمر الحمادي وابن سليمان وابن سريج ، يحاكمون الحلاج في سجنه :

***

الحلاج

لستم بقضاتي
ولذا لن ادفع عن نفسي

ابن سريج (للحلاج)

يا حلاج
لا تدفع عن نفسك
بل حدثنا عما فيها
ان كان هو الحق ، عرفناه معك
واذا كان الباطل
نبهناك اليه
واخذناك بجرمه ..

الحلاج

اوعدتم ان كان الحق ...
ان تمضوا فيه معي ؟

ابو عمر

نمضي فيه معك .. ؟
اما انك رجل ساذج
او انك اذكى مما نتصور
ولهذا افسدت صعاليك العامه
وعلى كل ، لا ضير
قد نصبح من اتباعك (ساخرا)
من انت ، وما خطبك ... ؟

الحلاج

انا رجل من غمار الموالي ،
فقير الارومة والمنبت
فلا حسبي ينتمي للسماء ،
ولا رفعتني لها ثروتي
ولدت كالاف من يولدون ،
بالاف ايام هذا الوجود
لان فقيرا – بذات مساء –
سعى نحو حضن فقيره
وأطفأ فيه مرارة ايامه القاسيه
نموت كالاف من يكبرون ،
حين يقاتون خبز الشموس ...
ويسقون ماء المطر
وتلقاهم صبية يافعين حزانى
على الطرقات الحزينه
فتعجب كيف نموا واستطالوا ،
وشبت خطاهم ...
وهذي الحياة ضنينه
تسكعت في طرقات الحياة ،
دخلت سراديبها الموحشات
حجبت بكفي لهيب الظهيره
في الفلوات
واشعلت عيني ، دليلي ،
انيسي في الظلمات
وذوبت عقلي ، وزيت المصابيح ،
شمس النهار على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ،
ككلب يشم روائح صيد
فيتبعها ، ثم يحتال حتى ينال
سبيلا اليها ، فيركض ، ينقض
فلم يسعد العلم قلبي ، بل
زادني حيرة واجفه
بكيت لها وارتجفت
واحسست اني وحيد ضئيل
كقطرة طل
كحبة رمل
ومنكسر ، تعس ، خائف مرتعد
فعلمي ما قادني قط للمعرفه
وهبني عرفت تضاريس
هذا الوجود
مدائنه ، وقراه
ووديانه ، وذراه
وتاريخ املاكه الاقدمين
واثار املاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ،
ومقصده ، مبتدأ امره منتهاه
لكي يرفع الخوف عني ، خوف
المنون ، وخوف الحياة ، وخوف القدر
لكي اطمئن
سألت الشيوخ ، فقيل
تقرب الى الله ، صل ليرفع عنك
الضلال .. صل لتسعد
وكنت نسيب الصلاة ، فصليت
لله رب المنون ، ورب
الحياة ، ورب القدر
وكان هواء المخافة يصفر في
اعظمي ويئز كريح الفلا ...
وانا ساجد راكع اتعبد
فادركت اني اعبد خوفي ، لا الله ...
كنت به مشركا لا موحد
وكان الهي خوفي
وصليت اطمع في جنته
ليختال في مقلتي خيال القصور
ذوات القباب
واسمع وسوسة الحلي ،
همس حرير الثياب
واحسست اني ابيع صلاتي
الى الله ...
فلو اتقنت صنعة الصلوات
لزاد الثمن
وكنت به مشركا ، لا موحد
وكان الهي الطمع
وحير قلبي سؤال :
ترى قدر الشرك للكائنات
والا ، فكيف اصلي له وحده
واخلي فؤادي مما عداه
لكي انزع الخوف عن خاطري
لكي اطمئن ...
(سكتة)
كما يلتقي الشوق شوق الصحارى
العطاش بشوق السحاب السخي
كذلك كان لقائي بشيخي
ابي العاص عمرو بن احمد ،
قدس تربته ربه
وجمعنا الحب ، كنت أحب
السؤال ، وكان يحب النوال
ويعطي ، فيبتل صخر الفؤاد

(1) تصدر هذا الشهر عن «دار الاداب»

ويعطي ، فتندى العروق
ويلمع فيها اليقين
ويعطي ، فيخضر غصني
ويعطي ، فيزهر نطقي وظني
ويخلع عني ثيابي ، ويلبسني
خرقة العارفين
يقول هو الحب ، سر النجاة ،
تعشق تفز
وتغني بذات حبيبك ، تصبح أنت
المصلي وانت الصلاه
وانت الديانة والرب والمسجد
تعشقت حتى عشقت ،
تخيلت حتى رأيت
رأيت حبيبي ، واتحفني بكمال
الجمال ، جمال الكمال
فاتحفته بكمال المحبه
وافنيت نفسي فيه

ابو عمر
صمتا .. هذا كفر بين !

ابن سريج
بل هذا حال من احوال الصوفيه
لا يدخل في تقدير محاكمنا
امر بين العبد وربه
لا يقضي فيه الا الله
لنسائله عن تهمة تحريض العامه
فلهذا اوقفه السلطان هنا
هل افسدت العامة ، يا حلاج ؟

الحلاج
لا يفسد امر العامة الا السلطان
الفاسد
يستعبدهم ويجوعهم

ابن سليمان
يعني ، هل كنت تحض
على عصيان الحكام ؟

الحلاج
بل كنت احض على طاعة رب الحكام
برأ الله الدنيا احكاما ونظاما
فلماذا اضطربت ، واختل الاحكام ؟
خلق الانسان على صورته
في احسن تقويم
فلماذا رد الى درك الانعام ؟

ابو عمر
ماذا يعني هذا الشيخ ؟
هل هذا ايضا من احوال الصوفيه ؟
ام يستخفي خلف الالفاظ المشتبهه
كي يخفي وجه جريمته الشنعاء ؟
اني اسألك سؤالا محدودا
لتجيب جوابا محدودا
هل تزعم انك صوفي .. ؟

الحلاج
الله يصنفني حيث يشاء

ابو عمر
هل تزعم انك فارقت الدنيا
وشواغلها ؟ ..

الحلاج
ها انذا في الدنيا يا سيد
اشغل نفسي بالرد على اسئلتك

ابو عمر
هل ارسلت رسائل لابي بكر
الماذرائي وسواه
تدعوهم فيها ان ينتفضوا ،
ويهبوا ضد الدوله ؟

الحلاج
الدوله .. ؟
لا اشغل نفسي بالدوله
بل اشغلها بقلوب احبائي

ابو عمر
تنكر .. ؟
يا حاجب ...
قل للشرطة يأتوا بالماذرائي

الحاجب
هرب الماذرائي من بغداد يا مولاي
وكذلك حمد الطولوني والقنائي

ابو عمر
منذ متى .. ؟

الحاجب
من يومين
مذ انبأهم جاسوس بالقصر
عن قرب محاكمة الحلاج

ابو عمر
كيف عرفت .. ؟

الحاجب
انبتني الشرطة يا مولاي

ابو عمر (للحلاج)
احسبك الان ستمضي في انكارك
لكني من نطقك سأدينك
هل ارسلت رسائل ؟

الحلاج
قطع من قلبي اهديها
لقلوب احبائي ...

ابو عمر
ماذا فيها ؟

الحلاج
تذكير لهم أن الانسان شقي
في مملكة الله
لم يبرأنا الباري ليعذبنا ،
ويصغرنا في عينيه
بل ليرانا ننمو ، وتلامس جبهتنا
وجه الشمس
او نمرح تحت عباءتها كالحملان
المرحه

ابو عمر
لم ارسلت اليهم برسائلك المسمومه ؟

الحلاج
هذا ما جال بفكري
عاينت الفقر يعربد في الطرقات
ويهدم روح الانسان
فسألت النفس :
ماذا اصنع ؟
هل ادعو جمع الفقراء
ان يلقوا سيف النقمه
في افئدة الظلمه ؟
ما اتعس ان نلقي بعض الشر
ببعض الشر
ونداوي اثما بجريمه
ماذا اصنع .. ؟
ادعو الظلمه
ان يضعوا الظلم عن الناس
لكن هل تفتح كلمه
قلبا مقفولا برتاج ذهبي ؟
ماذا اصنع ؟
لا املك الا ان اتحدث
ولتنقل كلماتي الريح السواحه
ولاثبتها في الاوراق شهادة
انسان من اهل الرؤيه
فلعل فؤادا ظمآنا من افئدة
وجوه الامه
يستعذب هذي الكلمات
فيخوض بها في الطرقات
يرعاها ان ولي الامر
ويوفق بين القدرة والفكره
ويزاوج بين الحكمة والفعل ..

صلاح عبد الصبور

قضيّة الكتاب العربيّ

بقلم فؤاد الشايب

اصدقائي في اتحاد الناشرين (*)

يشرفني حقاً ان اكون ضيف مائدتكم ، في هذه الليلة من ايام الكتاب الذي تبسطون لــه اكفكم وسواعدكم ، وتمنحونه من نفوسكم عظيم الولاء ، وجميـل الوفاء . ويسعدني في الوقت ذاته ، ان اجد بجانب هذه المائدة السخية الطيبة منبرا للكلمة ، ومجالا لتحية ، ومتسعـا لحديث سريع عن سيد هذه المائدة ، وجامع شملها وموقد شموعها : الكتاب .

وان يكن من تقاليد الخطب ، في ختام المآدب ، ان تكون خطبا مقصوصة محفوفة ، كثيرة الذوق بقصرهـا ولطيف مجاملاتها ، فارجو الا تكون كلمتي قليلة الذوق من جهة الطول . وان كنت من جهة المجاملة ، لم اتوخ لها ابدا ان تكون مشرقة كتبادل الانخاب وقرع الكؤوس ، وتذوق الحلاوات .

ايها الاخوات والاخوة :

بالامس حييت مجلس المتن الشمالي للثقافة فـي مهرجان الريحاني،واليوم أحيي اتحاد الناشرين في مهرجان الكتاب .

ذاك مهرجان لاحياء التاريخ ، وهذا مهرجان لتنوير المستقبل . ذاك لقاء لتكريم نضال ، وهذا لقاء لتكـريم الياذات النضال . وما النضال بلا الياذاته سوى دماء مهدورة ، وجلجلات محشورة ، وحركة قطعان بشرية ، تساق في عدمية الدهور،ويستوي فيها الابطال والمجرمون .

بالامس في بيروت ، واليوم في بيروت ايضا . فكم لكم من يد ، يا أصحاب القناديل ، في هذه المدينة المنورة، وكم لكم من فضل ، على ماضي الحرف العربي ، وعلـى مستقبل الكلمة العربية .

من حقكم على الكتاب،وتاريخ اشراق الكتاب في لبنان وفي ديار العرب، ان نذكر لكم، ايها السادة الناشرون، في يوم احتفالكم بالكتاب ، ودعوتكم اليه ، اجمل ما تذكرون به ، واطيب ما تطيب به سيرتكم : وهو انكم ادباء اهل ادب ، علماء احفاد علم ، مثقفون اصحاب رسالة في نشر الثقافات . بعضكم نشأ الحرف بين انامله صبيا ، وبعضكم نشأ الحرف بين شفتيه فتيا ، فمنكم من رفعته عصاميته من وراء المحابر ، الى حيث تدور الكلمة في مدار الشمس، ومنكم من هبط من دوحة عريقة في الادب والفكر الى حيث يتصل بصناعة حديثة شريفة تعز منازل الادباء والمفكرين.

وليس من دار ــ كما اعلم ــ الا وكان هوى الكتاب فيها وراء صناعة الكتاب ، ونفح الطيب قبل نشر الطيب ، فسبحان من خلق النحلة ، جارسة زهر ثم صانعة شهد ، وسبحان من نفض حبة الادب سنبلة في حقولكم ، ومن رمى السنابل غلالا في بيادركم .

... حمامة برية هبطت على بيدركم ، اذ لوحتم لها بمنديل ، فافرخ روعها ، وطاب مقامها . فشكرا لليد التي حيت ، وللمنديل الذي لوح بوعد المحبة . وليطب البيدر لاهله ، وليبارك الله غلال الزارعين الحاصدين .

ايها السيدات والسادة :

بعد التحية اقول : لكل بطولة مأساة . ولكل قضية جليلة ، وجه منور ، واخر في الظلام ، وصناعة الكتاب في المحيط العربي لمن خبرها وعاناها ، صناعة شقية لا يتصدى لها الا كل من القى به شوقه الى معاناة الشوق ، ووضعه طموحه في المسالك الخشنة التي يصعد فيها طمـوح المغامرين .

قضية الكتاب العربي في وجهها المنور ، وفي جمالها الشعري ووصفها البطولي، بيدر وغلال ، ولذة سعي ورزق حلال ، ولكنها في وجهها الغارق فـي الظلال مأساة (سيزيفية) رهيبة لا يبررها سوى اذعان البطولة لمصيرها في لعبة الصخرة الازلية .

قضية الكتاب العربي في مدى الرؤية الراضية ، والواجهة الفاخرة ، صورة جميلة كصورة الحرف الكحيل، والورق الاسيل والغلاف المضمخ بطيوب الجنة ، يعرض في الواجهات ، كما تعرض ازياء الغانيات ، بينما القـراء الملهوفون دونها في اذناب مصفوفة ، ينتظرون دورهـم لينالوا نسخة ، او يلتمسوا بركة ، او يسرقوا من سارق النار فكرة .

اما قضية الكتاب العربي بوجهها المغيب فـي ظلام العصر ، ومأساة الجيل ، فليست سوى صورة القنديل الشاحب ، المعلق في سقف كوخ معتم ، زواياه محشورة برؤوس بشرية رسمت بفحم الجهل والغباء ، ولا شأن لها سوى ان تلعن النور وتبصق على القناديل .

قضية الكتاب العربي في هذه الرباع المظلمة مـن المحيط العربي ، قمر دائم الخسوف قلامة منه للفضاء الحر ، وكل بقيته الباقية في ظلام بطن الحوت . حـول القلامة يتحلق جمهور ضئيل، كأنه يصطلي في ليلة مقرورة

(*) نص الكلمة التي القيت في احتفال اتحاد الناشرين في الشهر الماضي بمناسبة اسبوع الكتاب .

حزينة . وفي بطن الحوت الرهيب ، كل الصيد وكل القضية ، وكل ذلك السواد الاعظم من الجماهير العربية، حيث الامية سلطان ودولة ، وقضاء مبرم .

في الجانب المنور من الحياة الجميلة ، يوقظ الناس باجراس الصباح ، ومآذن الفجر ، وفي الشطر المغيب في ظلام الدهور ، لا يزال الاحياء يهربون الحوت آكل القمر ، بقرع الطبول ، ونحاس المطابخ .

ان الجانب المنور من حياتنا الفكرية شريط دقيق على هامش الحياة يسلكه السالكون وكأنهم على صراط . اما الكتلة المظلمة من حياتنا ، فتكاد تكون معظم حياتنا .

وهل سر بعد ، ان الكتاب العربي يعيش في محيط تبتلع الامية فيه سبعين حتى الثمانين من اهله وبشريته، ويتحرك الكاتب العربي والناشر العربي في جمهور الخمسة بالمئة من العشرين غير الاميين ، في ابعد تقدير المتفائلين. فاذا باع الكاتب من كتابه ، عندما ينفخ القدر الرحيم في حظوظه اربعة الاف نسخة ، خلال اربعة اعوام ، لا ادري اية نسبة يكون قد حقق . ولا ادري اي رزق بلغ ، واية رسالة ابلغ،وهو يذري هذه الحفنة على امة الثمانين مليونا.

فليست مأساة الكتاب ان قد قامت دونه الحدود ، في مدى اللسان العربي ، وتألبت عليه فروض ادارة وسياسة ، ومال ، فجعلته في بلاد امته مسافرا في محجر الغرباء ، وبين بني جنسه ، متشردا في معزل المشبوهين، بلا جنسية ولا جواز . بل مأساته من قبل ، انه نطفة في رحم عقيم ، وبذرة في بلقع مرمل . نوره سري كمصباح قرصان في قبو سفينة مهربة . او كنور الحباحب،يرسم الومضة على لوح الليل ، وسرعان ما يلعقها لسان الظلام .

قلت انني اتحدث عن الضفة المظلمة ، حيث يغرق الوجه الاكبر من القضية . فلا ترموني بالتشاؤم وسوداوية المزاج . اذ كل ما فعلت في الضفة الموحشة هذه ، انتزعت من قيثارتي أوتار الغزل ، ومضرب الانامل على الاحلام .

ان في مأساة الكتاب والثقافة عامة ، ما هو اشد هولا ، عندما نعلم باليقين العلمي الاجتماعي ، ان الامية تغزو الادمية المتعلمة نفسها كما تغزو الرمال كمران الصحراء ، وكما يحيل السرطان دم مرضاه الى ماء ، لان الامية كالوباء تسيطر على المجتمعات الموبوءة وتسود عقلية الاميين . فكيف بها اذا كانت وباء اكثريا . وكيف بها اذا نيطت بارجاها الساحقة اعنة السيادة !

***

لقد رأيت لا في جحيم دانتي ، منذ سبعة قرون بل في جحيم القرن العشرين ، اميين ينهشون جماجم المتعلمين على ضفة النهر الاسود ، ويحيلونها الى قواقع فارغة . فسألت فيم عذابهم، فقيل هذا جزاء من يتمردون على شريعة الغاب السوداء . فليعودوا اليها طينا وترابا .

واذ رأيت اخرين ينجون بانفسهم من بؤرة العذاب، على شبه قشة عائمة ، او على دفة سياسية ملائمة ويدنون من سدة الديانين ، حيث تنجر عظامهم ارجلا لكراسي السلطان ، واضلاعهم مراوح في ايدي الخصيان ، هتفت: من هؤلاء المساكين ؟ قيل هم المتعلمون المحظوظون الذين نجوا بجماجمهم من عذاب النهر الاسود .

فان لم تصدقوا ايها السادة ، منطق هذه الرموز ، وقلتم هذه قصص خيال ومحال ، فاشهدوا ، رعاكم الله، ان الواقف امامكم ، هو احد الناجين المحظوظين ، ليصبح منذ ربع قرن احدى الارجل في كراسي مستودعات السلطان .

... فصلوا على ارواحنا .

ايها الاخوة في اتحاد الناشرين

عندما اتحدث عن الامية العربية ، انما اتحدث عن مأساتكم ، واضع الاصبع على جرحكم ، لأشير الى المغامرة الكبرى التي تدفعون في مجهولها مصير الكتاب العربي. ويبدو احيانا ، انكم كالكباش التي تنطح في صخرة المستحيل .

اننا نعلم اية آلية حربية هيأتموها لغزو القارىء المجهول ، وفتح اسواق الكتاب العربي : اكثر من مئة دار نشر ، واكثر من مئتين وخمسين مطبعة حديثة ، في هذه المدينة المدججة بسلاح السلام تحت قيادتكم الجريئة ، وطموحكم الفاتح . ولكن حرث النهر الاسود بجوار الغابة السوداء ، ليس من استراتيجية السلام بنشر الكتاب وحمل غصن الزيتون . بل لا بد من حشد حديد الدولة، في حرب معاقل الامية الممتنعة وفتح مجاهلها .

ان تلك المجاهل لا تمتنع على الكتاب فحسب ، بل كثيرا ما تلقفت حركات الاصلاح ، والثورات ، بله الافكار والانظمة والشرائع واحالتها الى مثل دبيب النمل فوق ترابها ، ومثل سحيق الفحم في انهرها ، ومثل الفطور السامة في جذوع اشجارها .

فكم مرة ظهرت الامية حوتا على صفحة الموج فقلبت المراكب والراكبين . وكم مرة فتحت كالموجة الغادرة صدرها للعابرين فاستقروا كأنهم آمنون ، واذ بها تطبق عليهم وتهضم مسيراتهم . كم مرة اسكروا الامية بخمرة السياسة علاجا او شرابا ، فاقبلت عليهم بنشوة غامرة ، وانقلبت عليهم بوحشية مدمرة . كم مرة اكلت شعاراتها ورجالاتها ، كما تأكل السعالي بناتها .

ان غريزتها غريزة جريمة ، وسجيتها سجية براءة . -

فكم مرة اكلت وشربت وزنت ومسحت فمها وقالت ربي لم آت اثما .

ومثلما ان الامية الضروس الهلوك لا تؤخذ بكتب الناشرين فهي كذلك لا تروض بسيوف الحاكمين ، او بخمور السياسيين. فقد يثيرها الكتاب فتغدو اشد حرونا وجموحا بفعل رد الفعل . وقد يذلها السيف فتغدو اكثر سلبية واستهتارا وبلادة . ولن تفعل خمور السياسة فيها ، سوى نفخ عروق الجنون في غرائزها الجائعة .

ولا يحسبن السياسيون ، ان هناك في كيمياء السياسة خمرة رديئة ، وخمرة جيدة . فكل شراب ودواء ان الاديان الكبرى ، تحولت في احشاء الامية ، الى تفاهات في هذا المصنع الجرثومي يستحيل الى جراثيم . حتى وضلالات ، وقناعات مريضة ، انعدم معها اجمل ما في الاديان من قيم ثقافية واخلاقية .

كل محاولة ، عبث ، وليس الا بمحاريث الدولة ، بكل ما في الدولة من حديد المحاريث ، تقتلع الامية من جذورها ، وتنبش ارضها ، وتذري في الرياح الاربع اثارها .

والدولة التي لا تستطيع ان تجعل من سياسة حرث الامية حرثا ، اول مفهوم من مفاهيم قناعاتها الاساسية التأسيسية ، انما هي دولة تسودها عقلية الاميين حقا وفعلا . هي دولة اسلمت قيادها للديانين الرابضين على ضفة النهر الاسود .

فليست الامية في المجتمع العربي المعاصر ، جانب المأساة المروع في حياة الكتاب والمثقفين ، والنشر والناشرين ، فحسب . بل هي بالواقع مأساة الحكم العربي ، والسياسة العربية ، وكل حركة صادقة من حركات الاصلاح والثورة .

فاسمحوا لي ان اضع امامكم ايها الاصدقاء ، وعلى مائدة اسبوع الكتاب ، فكرة ميثاق ثقافي عربي ، مقدمة لاتحاد المثقفين والناشرين العرب ، يعلن به رجال الفكر والمعنيون بصناعة الكتاب العربي ، اول ما يعلنون ان الامية ، اضخم امراض الامة ، وان حرثها اول واجبات الدولة ، ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية ، اطلاقا .

اضع على مائدتكم ايها الاصدقاء فكرة ميثاق عربي يتقدم انشاء (اتحاد المثقفين والناشرين العرب) تقرع بمجموع قبضته ابواب الدولة المغلقة دون قضيتها الكبرى ، ودون تسهيل نشر الكتاب كاداة اولية اساسية من ادوات القضية .

واني لاذكركم ، ولعلكم ذاكرون ، ان قد هلت وتحققت فكرة (مؤتمر الادباء العرب) منذ ثلاثة عشر عاما في لبنان ، فعسى ان تتحقق فكرة (اتحاد المثقفين والناشرين) في لبنان ايضا بما توافر لكم من اسباب الاتصال ، وكفاءات الممارسة العملية لشؤون صناعة الكتاب ونشره .

وان يكن قد تحول (مؤتمر الادباء العرب) الى مجرد عكاظ ادبي بلاغي ، يتجمع له الادباء ، للتعارف فيما بينهم ، في احسن حالاته ، ولم تكن توصياته سوى رموز وشكليات . فعسى ان يتحول (اتحاد المثقفين والناشرين) ، فوق ركام التجارب والمحاولات ، الى قوة جديدة ، دائبة قارعة ، تحرك ضمير الامة التي وضعت ميراث اضخم الحضارات بين ايدي اتعس الاميات .

بل عسى ان يكون الميثاق وما يتلوه درسا علميا واجتماعيا للمعضلة العربية الاولى ، يوزع معه في الافاق القريبة والبعيدة صرخة المأساة ، ويرسل الى جبهة الغابة السوداء ، شارة جديدة من شارات التحدي . وستكون هذه المرة ، شارة الكتاب العربي الذي لا يقبل ان تسوده عقلية الغابة السوداء ، ويرفض دينونتها .

انكم ايها الاصدقاء ، لا تفعلون ذلك ، لاجل الكتاب وحده ، وهو بحد ذاته ، هدف من اعز الاهداف ، بل تفعلون ذلك في سبيل امة لم يبق كتابها بيمينها ، عندما تدعى امم الارض وكل كتابه بيمينه .

ايها الاخوة

مهما يكن من فكرة الميثاق والاتحاد ، وانتم بطبيعة معاناتكم ، وبطبيعة الصلة الرائعة بينكم وبين اصدقاء الكتاب تؤلفون هذا الاتحاد ، على الصعيد اللبناني تأليفا عمليا واقعيا تهنأون عليه وتغبطون لاجله ، فانني لست هنا الليلة ، بينكم ، الا للتحية ، ورد التحية بمثلها . ولا استطيع احسن منها .

فشكرا لكم . وشكرا لكل ما تفعلون ، وتبذلون وتعانون ، في سبيل جمهور الكتاب العربي ، وعزة اهله .

فؤاد الشايب

الذي يأتي ولا يأتي

عائشة ماتت ، ولكني اراها تذرع الظلام
تنتظر الفارس يأتي من بلاد الشام

ـ ايتها الذبابة العمياء
لا تحجبي الضياء
عني وعن عائشة ، ايتها الشمطاء

ـ مغشوشة خمرة تلك الحان

ـ سكرت بالمجان
وزحف الدود على جبينك المتقع الاسيان
وجفت العينان

ـ مولاي ، لا يبقى سوى الواحد القيوم
وهذه النجوم
الكل باطل وقبض الريح

ـ عائشة ماتت ، ولكني اراها مثلما اراك
قالت ، ومدت يدها ، اهواك
وابتسم الملاك
فلتمطري ايتها السحابه
ايان شئت ففدا تخضر نيسابور
تعود لي من قبرها المهجور
تمسح خدي وتروي الصخر والعظام

ـ يأتي ولا يأتي ، اراه مقبلا نحوي ، ولا اراه
تشير لي يداه
من شاطىء الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياه

ـ من كان يبكي تحت هذا السور ؟
كلاب رؤيا ساحر مسحور
تنبح في الديجور ؟
ام ميت الجذور ؟
في باطن الارض التي تنتظر النشور

ـ من كان يبكي تحت هذا السور ؟
لعلها الريح التي تسبق من يأتي ولا يأتي
لعل شاعرا يولد او يموت (*)

عبد الوهاب البياتي

(*) من قصيدة طويلة بعنوان « الذي يأتي ولا يأتي » تحكي ، سيرة ذاتية لحياة عمر الخيام الباطنية « الذي عاش في كل العصور منتظرا الذي يأتي ولا يأتي » .

القيم الاجتماعية قبل الإسلام

بقلم الدكتور محمد النويهي

فخر الحادرة بوفاء قومه في بيتيه الماضيين (*)، وقد اتخذنا من فخره ذاك مجالا لدراسة تاريخية اجتماعية حققنا فيها نصيب الجاهليين من الوفاء والغدر . ونريد ان نستمر معه، متبعين نفس المنهج ، حين ينتقل في بيته التالي الى الفخر بكرمهم اي سخائهم بالمال في الشطر الاول ، وببلائهم في الحروب في الشطر الثاني :

ونقي بآمن مالنا احسابنا ونجر في الهيجا الرماح وندعي

ان السخاء أكبر صلة بما كان فيه من فخر في بيتيه الماضيين. فكما ان قبيلته تحرص على سمعتها الطيبة ان تشوبها شائعات الغدر ، فتكف طمعها في الاستيلاء على مال الحليف ، كذلك هي تحرص على الاحتفاظ باحسابها ، فتحميها ببذل مالها النفيس . واحساب القبيلة ما تكتسبه لاسمها من ذكر حميد باعمالها المجيدة ، بينما الانساب هي موضعها السلالي من تفرعات القبلية العربية . وواضح ان القبيلة لا بد لها في هذه الانساب ، فهي لا تستطيع ان ترتفع بنسبها اذا كان وضيعا بمعايير الانساب الجاهلية ، اي اذا لم تنتم الى جماعة من الجماعات التي كانوا يعدونها شريفة النسب . وقد بلغ من ايمانهم بالنسب ان اعتقدوا ان النسب الوضيع ، او اللئيم كما سموه ، لا يزكيه عمل مهما يكن حميدا. ومن هذا تدرك انهم قبل الاسلام كانوا يؤمنون بارستقراطية مسرفة تساوي في اسرافها الارستقراطية الانجليزية في العصر الفكتوري، حين كان الانجليز يؤمنون ان بعض الدماء زكية او « زرقاء » بطبيعة وراثتها، وان من ولد من العامة لا يصير ابدا الى ان يكون من الاشراف ، حتى قالوا ان الملك يستطيع ان يمنح الالقاب ولكنه لا يستطيع ان يجعل من الشخص العادي « جنتلمان » .

ومن هذا تدرك ايضا ان من ابعد الاشياء عن الصحة ان ننسب الى الجاهليين اي ايمان بالديمقراطية الصحيحة . ويجب علينا في هذا المجال الا نخلط بين الديمقراطية الصحيحة – وهي التي تنبع من ايمان عميق بان الناس متساوون في قيمتهم الانسانية ، وان لكل منهم حقا متساويا في الحياة الكريمة – وبين التقارب في الحالة الاقتصادية الذي فرضته على معظم الجاهليين طبيعتهم الصحراوية الشحيحة القاسية ، كما يجب الا نخلط بين الديمقراطية وبين الفوضى او شبه الفوضى التي شاعت بين القبائل ، والتي جعلت البدو شديدي الرعونة كثيري الشغب نافرين من الخضوع للحكم والسلطان . فهم برغم ذلك كله قد آمنوا وسلموا بان بعض الناس بطبيعة ميلادهم اشرف من سائرهم ، وظلت تلك عقيدتهم الارستقراطية حتى جاء الاسلام يحاربها كما حارب معظم قيمهم الجاهلية ، ويعلمهم ان المرء بعمله لا باصله ، فلم تلق منهم هذه القيمة الجديدة قبولا كبيرا أول الامر ، واحتاجت الى زمان طويل قبل ان يقتنعوا بها . استمع الى قول عمرو بن معديكرب في ديوان الحماسة :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وان رديت بردا
ان الجمال معادن ومناقب اورثن مجدا

وهو يعني بالمعادن الطبائع الشريفة التي يرثها الرجل الشريف عن آبائه الاشراف . فهذا الشاعر الاسلامي لا يكتفي بالمناقب ، وهي الاعمال الحميدة التي يقوم بها الفرد ، بل يصر على المعادن ايضا قبل أن يسلم لفرد بالمجد ، بل المناقب نفسها لا بد ان تكون متوارثة من الاباء !

لكن حتى اذا كانت القبيلة ذات نسب شريف فانها يجب عليها ان تدعمه باعمال مجيدة ، والكرم من اهمها . وكلما كان علو نسبها كانت حاجتها الى ان تؤكده بالقيام بمستلزماته وواجباته ، من اكرام الضيف، ومعونة المحتاج ، وحمل الحمالات اي الديون والديات التي لا يستطيع غارموها اداءها ، وسائر الواجبات التي عددوها والزموها ساداتهم .
فالحادرة يفخر بان قومه يحمون احسابهم ببذل آمن مالهم ، وآمن المال بكسر الميم هو المال الخالص الشريف الذي أمن لنفاسته ان ينحر ، اي الابل والخيل التي يبلغ من جودة سلالتها انهم لا يذبحونها ، وكان العرب يحتفظون بشجرات الانساب لابلهم وخيلهم العتاق . فان قرأت آمن بفتح الميم كان افعل تفضيل ، اي اوثقه في نفوسهم ، فيكون وصفا لعاطفتهم نحو هذا المال من الاعزاز ، وهم لا يعزونه الا لشرفه وجودة سلالته .

وهذا يضطرنا الى ان نناقش مسألة كرمهم اي سخائهم بالمال كما ناقشنا مسألة وفائهم . وهنا ايضا يتوقف الامر على طريقة فهمنا لدلالة الشعر ، اما الصورة الشائعة فتدعي ان العرب الجاهليين كانوا نهاية الكرم ، وتذكر لنا اخبار حاتم الطائي وقصصه العديدة ، ومن اشهرها قصته اذ نحر فرسه النفيس ليطعم به رسول قيصر الروم ، وكان القيصر قد ارسل رسوله ليمتحن ما بلغه عن كرم حاتم بأن يسأله ان يهب له ذلك الفرس ، فالصورة الشائعة تريد منا ان نصدق انهم كانوا جميعا على هذه الدرجة من السخاء . ولا ينتبه المستشهدون بهذه القصة – التي لا شك لدينا في أنها مخترعة – الى انها لم تشتهر الا لانها على اي حال ترسم مثلا اعلى نادر الوجود اثار عجب العرب انفسهم. كذلك لا ينتبهون الى ان هذه الاشعار الكثيرة التي يستدلون بها على قضيتهم لها دلالتها العكسية لو انعموا النظر فيها ، والا لم يكن داع الى تفاخر الشعراء بكرمهم لو كان الجميع كرماء .

ومن الناحية الاخرى نجد لاستاذنا الكبير الدكتور طه حسين فصلا طريفا في كتابه « في الادب الجاهلي » يكذب به هذه الصورة الشائعة فيتطرف في النقيض . اذ يطيل الحديث عن بخل العرب وحرصهم على المال ، ويستمد صورته من القرآن الكريم وتصويره لبخلهم وحرصهم وحبهم للمال وغرامهم بالربا . ثم يستعمل هذا التناقض بين الصورة التي يرسمها القرآن والصورة التي يعتقد ان الشعر الجاهلي يرسمها لكرمهم حجة من حججه في رفض صحة هذا الشعر واثبات نحله .

والطريف في هذا ان استاذنا الكبير في جهاده لهدم الصورة الشائعة عن كرم العرب لا ينتبه الى انه قد وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه من يرسمونها ، فاخطأ الدلالة الصحيحة التي يدلها الشعر الجاهلي ، وظنها مناقضة للصورة التي يرسمها القرآن ، والحق ان لا تناقض ، فالشعر الجاهلي لا يرسم للعرب الجاهليين صورة الكرم التام الا اذا اخطأنا الاستنباط وغفلنا عن دلالة الكلام ، والا اذا كانت معرفتنا بالشعر الجاهلي معرفة محدودة . وهذا الخطأ لا يقوم حجة على الشعر الجاهلي نفسه .

فاذا تركنا كل هذا التجادل بين الفريقين المتطرفين والتمسنا الحقيقة التاريخية الهادئة التي تشهد بها اخبار الجاهليين واشعارهم، وجدناها ذات شقين : اولهما ان العرب كسائر الاجناس البشرية كان فيهم الكرماء والبخلاء ، فهم لم يتفردوا بين البشر جميعا بطينة تعلو على الطينة الادمية . وثانيهما انهم مع هذا قد توفرت لهم اسباب مادية واجتماعية جعلت الكرم مثلا رفيعا من اعلى مثلهم ومن اكبرها حثا لهم على محاولة تحقيقه والاقتراب منه ، ولكن حدث معظمهم عن بلوغه حدود

(*) راجع العدد الماضي من الاداب .

عديدة . فلنحاول الان ان نثبت كلا شطري الحقيقة ، وأن نتبين طبيعة هذه الحدود .

نجد في حماسة ابي تمام اشعارا لبخلاء يعتذرون عن بخلهم ، واشعارا يحوف اصحابها من الفقر ويذمونه ويبررون سعيهم الى الغنى وحرصهم على المال . واشعارا تذم البخلاء . اضف الى هذا كله ان كل افتخار بالكرم يثبت البخل في اخرين ، كما شرحنا طريقة الاستدلال الصحيح . هذا كله حق ، ولكن الفهم التاريخي الصائب ، دعك من العدل ، يقنعنا بان الكرم كان يحتل في قائمة الفضائل عندهم مكانا يفوق مكانه لدى امم اخرى كثيرة ، وانهم قد اجلوه اجلالا عميقا .وبلغ من تقديرهم له انهم بالرغم من تقديسهم الذي شرحناه للنسب الرفيع، اعتقدوا ان البخل يزري بهذا النسب ، ولعله الخلة الوحيدة التي اعتقدوا انها تهدف النسب . بل تأمل في تسميتهم السخاء بالكرم ، والكرم في الاصل ليس السخاء بالمال ، بل هو عتق السلالة ورفعة النسب ، تجدها دليلا على قرنهم بين الوصفين ، واعتقادهم بضرورة تلازمهما ، فكريم الاصل لا بد ان يكون كريم الفعل اي سخيا . وعلى هذا الضوء تستطيع ان تجيد فهم هذه الابيات التي قالها السموأل :

صفونا فلم نكدر واخلص سرنا ... اناث اطابت حملنا وفحول
علونا الى خير الظهور وحطنا ... لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما في نصابنا ... كهام ولا فينا يعد بخيل

انظر كيف انساق الشاعر ، وهو في معرض الحديث عن شرف سلالهم ورفعة نسبهم ، انسياقا طبيعيا الى نفي البخل عنهم ، فكيف يكون منهم البخيل ونسبهم على هذا الصفاء والزكاء ؟

ومن هذا ايضا نستنبط حقيقة اخرى هامة : ان الكرم كواجب مفروض كان يلزم اشرافهم وحدهم ، اما للآخرين فهو مثل عال يجلونه ويسعون جهدهم اليه لكنهم لا يلامون اذا قصروا في بلوغه . فذوو النسب الشريف يحتاجون الى ممارسته ليحفظوا احسابهم التي نعزز انسابهم،وغيرهم يقلدونهم وفق المثل المشهور : الناس على دين ملوكهم. وهذا بدوره يدفعنا الى ان ننظر نظرة موضوعية في حقيقة الكرم الجاهلي الذي تمدحوا به قبل الاسلام ، حتى نرى اختلافه الجسيم عن نوع الكرم الذي جاء الاسلام يعلمهم اياه ويحضهم عليه .

فالحق ان السبب الاساسي في ايجاد ذلك الكرم الجاهلي واحلاله منزلته العالية في قائمة فضائلهم الاجتماعية كان سببا اقتصاديا. فتلك الحياة البدوية المتنقلة كانت مهددة دائما في اساس رزقها ، وهو ماء المطر الذي قد ينقطع سنة او سنين متعاقبة عن اراضي القبيلة . فما من قوم اغنياء الا وهم عرضة لان يصبحوا فقراء في اشد الحاجة اذا اصابتهم السنة اي القحط . والذين يقوم معظم رزقهم على ارشاد القوافل وضمان سلامتها لا يأمنون ان تتحول طرقها عن اراضيهم ،وهي قد تحولت مرارا عديدة في تاريخ ما قبل الاسلام .

اهتدى الجاهليون الى « الكرم » كوسيلة للاحتياط من هذا التقلب ، وتخفيف اسوأ عواقبه ، فهو نوع من ضمان المستقبل ، او سمه « التأمين الاجتماعي » ان شئت . فالمال كما يقول شاعرهم غاد ورائح ، ولا يبقى منه الا الاحاديث والذكر ، فان اشتهر عنك انك كنت كريما في زمن غناك ، فهذا اجدر ان يحمل الاخرين على معونتك اذا افتقرت واحتجت . لذلك يقول احد شعراء الحماسة :

ولا تحرم المولى الكريم فانه ... اخوك ولا تدري لعلك سائله

ويقول اخر .

وانك لا تدري اذا جاء سائل ... أأنت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سائل ذو حاجة ان منعته ... من اليوم سؤلا ان يكون له غد

الحقيقة اذن هي ان كرم العرب قبل الاسلام كان منظورا في معظمه الى الفائدة المادية التي تعود على صاحبه ، او « الاستكثار » كما سماه القرآن الكريم في نهيه الرسول عليه السلام عن هذا النوع من الاحسان. لا نريد بهذا ان نطعن في فضله او ننكر فائدته الاجتماعية الجليلة،فنحن ممن يسلمون باهمية العوامل الاقتصادية في تحديد مقاييس الفضيلة التي تشيع في مجتمع معين ، لكن نريد ان نتبين منزلته الحقيقية بين الفضائل ، لنرى انه كان فضيلة او « قيمة » اجتماعية ولم يكن فضيلة نفسية ، نعني انه لم يكن ذلك النوع الخالص من الكرم القلبي الصادر عن تعاطف عميق وتألم وجداني يشعر به المرء نحو المعدمين فيأسى لما يعانون من الضر . ولا كان صادرا عن ضمير اخلاقي يستنكر تفاوت الحظوظ ويسعى الى عدل الميزان المختل بين الموهوبين والمحرومين . اما الذي جاء يعلم العرب هذا النوع السامي من الكرم ، هذا النوع الذي يفعله صاحبه لمجرد حب الخير ، ولا ينتظر عليه جزاء بل لا ينتظر عليه شكورا ، والذي يفعله صاحبه خفية لا مباهاة ولا مراءاة ولا اكتسابا للفخر ودعما للحسب وصيانة للنسب ، يفعله خفية حتى لا تعلم شماله ما اعطت يمينه ـ فذلك هو الاسلام .

لسنا ندعي ان العصر الجاهلي خلا من افراد فهموا هذا النوع العالي من الكرم ، ومنهم ممدوح زهير الذي وصفه ببيته الرائع المشهور :

تراه اذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي انت سائله

وبيته الاخر الذي يتلوه :

وذي نسب ناء بعيد وصلته ... بمال وما يدري بانك واصله

لكنهم كانوا في ذلك العصر قلة . وليس ادل على قلتهم من ان نذكر الانبهار العظيم الذي احسوا به امام بيت زهير المذكور ، ونقرأ شرح ديوان زهير لنرى كيف يحاول بعض الشراح ان يفسر البيت تفسيرا يلغيه ، كانه يستنكر على انسان ان يوصف بهذا الوصف . ثم نعود الى تفاسير القرآن لنقرأ محاولة بعضهم ان يفسروا الاية الكريمة « ولا تمنن تستكثر » تفسيرا يجعل النهي فيها موجها الى الرسول عليه السلام وحده دون امته ، وانه نهي تنزيه لا تحريم ، الامر الذي يدل على انهم وجدوه يعسر على البشر العاديين ان يعملوا به (1) .

فاذا تأملت في البيت الثاني الذي رويناه لزهير ، وجدته يومىء الى حقيقة اخرى ، هي ان معظم كرمهم كان مقصورا على ذوي النسب القريب . وفي سيرة الفرزدق في كتاب الاغاني قصة يصمم فيها ثلاثة من متهوري الشعراء على ان يمتحنوا ثلاثة من اجواد العرب المشهورين بالجود . فيذهبون الى اولهم يسألونه الهبة ، لكنه يسألهم اولا عن نسبهم . فينصرفون عنه الى الثاني ، فيسألهم ايضا ممن هم.فينصرفون عنه الى ثالثهم ، وهو ابو الفرزدق ، فيعطيهم دون ان يسألهم عن قبائلهم، فيحكمون بأنه اكرمهم . لذلك يروون عن ابي الفرزدق ، وهو غالب بن صعصعة ، انه كان لا يبالي ما اعطى ومن اعطى .

وفي ديوان الحماسة اشعار كثيرة في الشكوى من بخل القبيلة على من ليس ذا نسب قريب منها . كقول احدهم :

لعمري لرهط المرء خير بقية ... عليه وان عالوا به كل مركب
من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى ... جزيل ولم يخبرك مثل مجرب
اذا كنت في قوم ولم تك منهم ... فكل ما علفت من خبيث وطيب

بل لهم اشعار يشكون فيها ان اقاربهم او مواليهم جيرانهم لا

---

(1) يميز علماء الاخلاق بين مراتب اخلاقية ثلاث . في ادناها يفعل المرء الخير ويتجنب الشر طلبا للثواب المادي وتحاشيا للعقاب المادي. وفي اوسطها يكون دافعه رغبة ثناء الناس وحمدهم وحذر ذمهم وتشهيرهم . وفي اعلاها يكون دافعه الوحيد حب الخير من اجل الخير وكره الرذيلة في ذاتها وارضاء الضمير دون اهتمام بما يقوله الناس . ولما كان الاسلام دينا موجها للناس جميعا على اختلاف مراتبهم، وجدنا القرآن يستعمل هذه الدوافع الثلاثة في مخاطبة البشر . لكنه لا شك يرسم لهم المثل الاعلى الذي يحضهم على الاقتراب منه جهدهم، وهو الذي يفعلون فيه الخير من اجل الخير نفسه ، ابتغاء مرضاة الله وحده ، فلا يفسدون عملهم بالمن ، ولا يبغون من المحسن اليهم جزاء ولا شكورا . وهو ان اجاز لهم ابداء الصدقات ، ووعدهم بالمثوبة ان ابدوها ، قد لفت نظرهم الى سلوك ارفع بكثير ، هو أن يخفوا صدقاتهم ، فاخفاؤها خير لهم .

يعطفون عليهم . منها :

اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم نعطف عليه اقاربه
فالموت خير للفتى من قعوده عديما ومن مولى تدب عقاربه

وقول الاخر :

اذا كنت في سعد ـ وامك منهمو ـ غريبا فلا يغررك خالك من سعد
فان ابن اخت القوم مصغى اناؤه اذا لم يزاحم خاله بأب جلد

وقوله ((مصغى اناؤه)) اي ممال اناؤه ، ومعناه ينقص حظه ، لان الاناء اذا اميل نقص ما يسعه. ومعنى الشطر الاخير اذا لم يكن اعمامه اقوى من اخواله . ومن هذا نعرف انهم لم يبخلوا على ذوي النسب البعيد فحسب ، بل بخلوا على اولاد الاخت . واليك شاعرا اخر يشكو اساءة الجيرة ويصوغ شكواه في تهكم وسخرية لاذعة ، ويندم على تركه لقومه :

فنعم الحي كلب غير انا رأينا في جوارهمو هنات
ونعم الحي كلب غير انا رزئنا من بنين ومن بنات
فان الغدر قد امسى واضحى مقيما بين خبت الى المسات
تركنا قومنا من حرب عام الا يا قوم للامر الشتات
واخرجنا الايامى من حصون بها دار الاقامة والثبات
فان نرجع الى الجبلين يوما نصالح قومنا حتى الممات

فنرى ان بخل هؤلاء قد بلغ في نظر الشاعر درجة الغدر .

ولكن لن نمضي في الاستشهاد بالاشعار الكثيرة التي تدل على ان كرم الجاهليين كان محدودا بحدود . ويكفي ان ترجع الى باب الاضياف والمديح من ديوان الحماسة لترى ان الشعراء لا يكادون يفخرون بانهم كرام حتى يرموا اخرين بانهم بخلاء . اما ما يحتويه باب الصفات من مقطوعات لشعراء يصرحون بانهم يكرهون الضيف ويجتهدون في طرده فلن نستشهد بها، لانها ربما تكون قد قيلت من باب التظرف .

***

فاذا عدت الان الى بيت الحادرة نفسه ، وجدته يصرح بالدافع الذي يدفع قومه الى بذل آمن مالهم ، وهو وقايتهم لاحسابهم . واذا عدت الان الى الشعر الكثير الذي يفخرون فيه بكرمهم وجدت هذا التعليل صريحا او متضمنا في اكثره ، خصوصا حين يصوغ الشاعر فخره في صيغة حوار شائق بينه وبين زوجته التي تلومه على اسرافه في كرمه . حتى ليخيل الينا ان احدهم ما يكاد يكرم عليك اليوم الا ليفخر غدا بعمله هذا في قصيدة مدوية تسير بها الركبان .

لكن دعنا الان ننتقل مع الحادرة من فخره بكرم قومه في شطره الاول من البيت ، الى فخره ببلائهم في الحروب في شطره الثاني ، وذلك حين يقول ((ونجر في الهيجا الرماح وندعي)) . اما اجرار الرمح فهو ان يطعن الرجل الرجل ثم يترك الرمح فيه ولا ينزعه من جسده. ويقال اجر فلانا طعنه وترك الرمح فيه يجره . ويقول الشرح القديم انه يفعل ذلك ليكون ذلك اعنت للمطعون اي اكثر ايلاما له . ولا شك ان ترك الرمح في الجسم يسبب ايلاما افظع واطول زمنا مما لو انتزع منه (كما تفعل الرصاصة اذا بقيت في جسم المصاب ، لذلك يعمل الجراحون على استخراجها باسرع ما يمكن).والجاهليون كانوا شديدي القسوة في حروبهم ، وكانوا يفخرون بقسوتهم هذه ، وهذا هو الحادرة الذي رأينا مبلغ رقته في نسيبه ، نرى الان مبلغ قسوته وتلذذه بايلام الاعداء حين انتقل الى فخره القبلي . فقد كانت شجاعة الجاهليين ممزوجة بقدر كبير من الغلظة وتعمد القسوة والتمثيل بالجثث وصفات اخرى لا نسميها الا وحشية . حتى جاء الاسلام فسعى هنا ايضا في ان يهذبهم ويزكيهم من هذه الخصال البدائية . نحن اذن نوافق على ان قوله ((نجر الرماح)) تصوير منه لمبلغ نكايتهم بالاعداء ، لكن يخيل الينا ايضا ان فيه فخرا اخر ، هو الفخر بغنى قومه ، حتى ليستغنون عن الرمح ولا يسعون الى استخلاصه ، فيتركونه في جسد عدوهم يجره الى دياره اعلانا عن فعلتهم .

واما قوله ((وندعي)) فهو ان يطعن الرجل خصمه ويقول خذها وانا ابن فلان او وانا الفلاني . فهو يدعي الى قومه اي ينتسب اليهم ليعرف كما يقول الشرح القديم . لكن هنا ايضا لا نفهم الفخر الكامل الا اذا ادركنا ان العكس كان يحدث كثيرا ، وهو القتل غيلة . فما اكثر ما كان الرجل يمضي الى خصمه او خصم قبيلته متخفيا فيقتله ثم يسرع بالهرب ، حتى لا تقع عليه ولا على قبيلته جريرة القتل ، خصوصا حين يوجد بين القتيلين حلف او ولاء . وعد الى ايام العرب وتأمل احداثها واسبابها لترى مصداق ما ندعي . وقد صوروا القتل غيلةفي كثير من اشعارهم . فالحادرة يفخر بانهم ليسوا ممن يقتلون اعداءهم مخالسة ثم ينكرون ما فعلوا تخلصا من العقاب او الثأر . بل يفعلون فعلهم معلنين عن انفسهم ومتحملين جميع العواقب .

ونخوض غمرة كل يوم كريهة تردى النفوس وغنمها للاشجع

هنا يصف جسارة قومه وجلدهم على الوقائع الشديدة التي تهلك الناس ولا ينتصر فيها الا ذو الشجاعة القصوى . والغمرة والغمر في الاصل الماء الكثير والبحر العظيم . ووجه الاستعارة ناشيء من خوف البدو للبحر وركوبه ، لقلة الفتهم به وعدم خبرتهم بملاحته . ولهذا اتخذوه مدارا لكثير من تشبيهاتهم واستعاراتهم للشدائد والمخاطر وللرجال ذوي المهابة ، واستعمله القرآن في آيات عديدة لتصوير الرهبة القوية ورحمة الله بعباده اذ ينجيهم من هول البحر الى امان البر . ويقول الشرح القديم ((تردي الناس اي تهلكهم ولا يظفر فيها الا الشجاع .)) وبهذا يفسد على الشاعر ما قاله . فالشاعر يستعمل افعل التفضيل ((الاشجع)) ويعنيه ، لانه يريد ان هذه الشدائد لا يغنم فيها الشجاع ذو القدر العادي من الشجاعة ، بل من بلغت شجاعته الغاية القصوى . وسبب هذا ان الشجاعة كانت صفة سائدة فيهم . لا نريد بهذا ان ننكر انهم كان منهم الجبناء ، فهجاؤهم الكثير للجبن والجبناء ، وذمهم لمن يهربون من المعارك او يتجنبونها مفضلين الحياة مع الذل على الموت الكريم ، تدل على وجود الجبناء بينهم . لكننا يقودنا التحقيق الهادىء الى ان نقرر ان الشجاعة لا الجبن كانت الصفة الغالبة على رجالهم . ليس هذا لانهم خصوا بقدر زائد من الشجاعة بفضل تكوينهم العنصري ، فاننا لسنا ممن يعتقدون ان الامم تتمايز في اخلاقها بتركيبها العنصري او نقائها السلالي ، بل لان طبيعة حياتهم القبلية بتصارعها الدائم وخطرها الماثل في صحرائهم القاسية قد ربت فيهم خلال الصبر والجلد والشجاعة الى درجة لا توجد عادة بين الحضر الذين لا يتعرضون في حياتهم اليومية الى مثل هذه المخاطر. كما ادعى ابن خلدون وكان محقا في فصله المشهور ((في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر .)) لذلك يحتاج احدهم الى قدر زائد من الشجاعة حتى يكون لفخره مبرر .

ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا زمنا ويظعن غيرنا للامرع

قال الاصمعي في شرح هذا البيت : ((دار الحفاظ التي لا يقيم فيها الا من حافظ على حسبه وصبر على ما لا يصبر عليه ، وذلك انه لا يحافظ على حسبه الا الشريف .)) وهو يعني بالشريف ذا النسب الرفيع . وهكذا نرى مرة اخرى تمييزهم بين النسب والحسب ، ثم ادعاءهم ان الحسب لا يكون لمن لا نسب له ، وان يكن ذو النسب محتاجا الى جهد دائم ليحافظ على حسبه . ولكن ماذا يعني بقوله ((صبر على ما لا يصبر عليه)) ؟ يقول الشراح انه يعني الجدب الذي يصيب ديارهم في بعض الاحيان . مرة اخرى لا نفهم وجه الفخر الا بمقارنته بما يدل عليه من وجود العكس بينهم . وهو ان كثيرا من قبائلهم ان لم يكن اكثرهم لم تكن ترتبط باوطانها بعاطفة قوية ، ولم يكن يشدها اليها الا درجة خصوبتها ، فان اجدبت رحلت عنها باحثة عن الامرع ، وهو المكان الاكثر خصبا ان قرأت الكلمة بفتح الراء ، اما ان قرأتها بضم الراء فهي الامكنة الخصيبة جمع مرع .

فالحادرة يفخر بانه حين يفعل الاخرون هذا (وهو تسجيل منه لكون هذا هو القاعدة العامة) يظل قومه مستمسكين بدارهم على اجدابها . فالشاعر يفخر بصفة قليلة الوجود فيهم ويتخذها دليلا على

ـ التتمة على الصفحة ٥٤ ـ

هدية العائد

(اما آن لهذا الفارس ان يترجل ؟)

اسماء بنت الصديق .

في اللحظة التي يستقبل فيها اللاجىء عاما جديدا
بنقة (يتآمر كل شيء على هدمها) .. لا يستطيع ان ينسى
انه اضاف عاما اخر الى سلسلة اعوام النفي والتشريد .

... وهداياي لكم يا رفقاء
هذه اللعنة : مر عام
وازددنا خواء !!
مثلكم عدت لاقضي العمر ،
قولوا :
كيف من اطرافه الجبل قبضتم
لستم موتى ، ولستم شهداء !!
اين سوق الكلمات الزور ،
سوق اللون ،
من امهر من يغسل لطخات الرداء ؟!
كيف اقصي ــ ان ذكرت البيت ــ
طيف البيت عن عيني ،
الغي الامس بالضحكة ،
امضي ــ مثلما تمضون صبحا ــ :
« دم هابيل هباء
ودم الصديق ... »
اه .. كيف يحيا دون ان يبعث من خان يهوذا ــ
اولا يشعر بالاثم ،
يشير الشيء بالاصبع ان مر ،
الا يخشى الضياء ؟!!
اي نوح كان من انقذنا بالامس
من جرح
ليلقينا على الشاطىء موتى ... اغبياء ؟!
انت ماذا ــ لو تسمى باسمها الاشياء ــ
من هم ــ لو يباح القول ساعات ــ
غواة ، ام خواة ،
ام فقاعات هواء ؟!
كيف يا قادم من شط بعيد
توقد النار ،
يكون الزحف ،
يحيا ويموت الشرفاء ؟!

قلة هم ــ لو ازلت العهر في الكلمة يوما
او حككت الجلد بالظفر ــ
بارضي الشرفاء !!
يتحدى ذل ايوب رماد القبر جهلا ــ
هو لو مات لعافت لحمه الديدان ،
ردته الى الارض بلاء !!
كيف لا تدمع للصفعات ،
لا تحرق ما تبصر
عين تتغذى الحقد ،
لا تغضب ،
لا تحتج في العرق الدماء ؟!
كيف لا يصرخ ميت :
« ليكن باسمي موت للذي يحفر قبري ،
ليكن للاخر العار
وللعالم في الصبح الفناء » ؟!
اي نوح كان من انقذنا بالامس
من جرح ،
ليلقينا الى التيه
بلا وعد ،
بلا ثار
عراة ... فقراء ؟!
انني عدت ــ وخلفي العام ــ
قولوا :
ما هداياكم لهذا العائد المجنون ،
قولوا :
كيف من اطرافه الجبل قبضتم ــ
لستم موتى ،
ولا اشباه احياء ،
ولستم شهداء !!

دخان (قطر) **حسن النجمي**

برنارد شو والمسألة اليهودية

بقلم مزاحم الطائي

اهتمت الدوائر العربية المثقفة في الاونة الاخيرة بالموقف الفكري والسياسي لكبار المفكرين العالميين من قضية اليهود واسرائيل ، فكتب الدكتور سهيل أدريس وكامل زهيري عن موقف جان بول سارتر واخرون عن موقف ارنولد توينبي واستمع الناس الى اراء كريشنا منون وبيير روسيه في ندوة الطلبة الفلسطينيين بالقاهرة . ورغم ان اخر مؤلفات برنارد شو قد خرج الى الوجود قبل اقامة اسرائيل فعسى ان يكون الحديث عن موقفه هو الاخر من المسألة اليهودية عموما وامعان النظر في جذور ذلك الموقف ودلالاته مساهمة متواضعة في استجلاء كافة ابعاد التحدي البشع الذي يواجه العرب مباشرة في فلسطين ويؤلف نضالهم ضده وفضحهم لجوهره البرجوازي العنصري حلقة ثمينة في نضال البشرية التقدمية كلها في العصر الراهن .

تنعكس صورة شو في ذهن الرجل الغربي عادة كمناوىء للسامية وممالىء للدكتاتورية وقد عمل اليهود ومناصريهم لاسباب دعائية خلال الحرب العالمية الثانية خاصة على توكيد هذه الصورة الساذجة المفتعلة في الاذهان مما يدعو الى وجوب التعرف على الحقيقة عبر التكوين الفكري العام لشو .

من المفكرين الكبار صنف امتاز بالابداع النظري الحق واضاعة مكتسبات جديدة الى مجالات الفكر الخلاق مثل هيجل وداروين وكيركجرد وفرويد وصنف ينحصر دورهم الرئيسي في تحطيم الاصنام القائمة ومحاولة الا يصبحوا هم اصناما ويبرز من خلالهم نيتشه وكارل ماركس وشو نفسه .

لقد بدأ شو كتاباته الهادمة بالهجوم على الارستقراطية البريطانية المزرية وقيم النفاق والتطلع الطبقي والشرف المصطنع والرياء والاهتمامات السخيفة الاخرى في المجتمع الانجليزي ، ثم اكتشف ـ تحت تأثير فاجنر ونيتشه وابسن ان كل تلك القيم والامال الكاذبة انما هي درجات معدودات في سلم طويل للاخلاق والواجبات والمثل العليا الجاهزة التي تنتسب بدورها ـ حسب تعبيره الى قوى عليا مجهولة تختفي ما بين السحب مما دعا به الى شن حملته البارعة على كل تلك الاخلاق والمثل المجردة وما ادت اليه من فقدان الحب الحر لحيويته وجعل الزواج شكلا من اشكال القهر والتسلط والمرأة اداة لاثارة الرجل وارضائه فحسب وليست هدفا بذاته . والتي رأت في الارادة الفردية الخلاقة شيطانية وخبثا ولعنة . وقال بصريح العبارة ان طريق الحرية التي تنشدها البشرية منذ الازل يمتلىء بحطام الواجبات وركام المثل العليا . والعبودية الحقيقية في الوقت الحاضر هي العبودية للمثل العليا والثوري من ينسف تلك المثل ويحطم الاصنام دون ان يخشى نظرات المجتمع الشزرة . وان لكل امرىء الحق في الا يضحي او يدفع بالاخرين الى التضحية من اجل مثل عليا لا يقتنع بها وما هناك من هو اشقى من انسان يمتنع عن القول او الفعل خلافا لمشيئة الاخلاق والنظم الجاهزة التي لا يؤمن بها ، وما دامت الحيـاة ارادة والارادة شيئا متطورا ناميا على الدوام فمن حقنا ان نحتكم الى انفسنا في مسائل السلوك ضد جميع المؤسسات والنظم التقليدية (١) .

وقد جعل شو شعاره في كل ذلك شعار ابسن : القاعدة الا يكون هناك قاعدة وهو الشعار (٢) الذي التزم به في الميدان السياسي أيضا . كتب سنة ١٩٤٣ : دعي ابسن الى أن يتخذ لنفسه بطاقة حزبية فرد بانه يجمع في ذاته بين اليمين واليسار ، لقد وجدت نفسي في عين الموقف تماما (٣) .

وفي الجانب الاخر لم يكن شو غافلا عن النموذج التاريخي الرهيب للعبودية الانسانية : التملك الفردي وهو النموذج الذي يؤلف في مجتمع كالمجتمع البريطاني في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين والنموذج الاخر الذي اشرنا اليه ـ الاخلاق الجاهزة وحدة لا تتجزأ في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية . فحمل عليه هو الاخر حملة اشد سعة وهولا وكتاباته ومواقفه بهذا الشأن غنية عن التعريف .

من حكم الثوار (في الانسان والانسان الكامل) : الملكية سرقة ، هكذا قال برودون ، انها المسلمة الوحيدة التي قيلت في الموضوع . ومن رسالة مؤرخة في ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٤٢ : اود ان انصح الشعوب باختيار الشيوعية (٤) وان اوضح بعناية كيف تقام بدون ان يمسك احد برقبة الاخر ! .

وبسبب من اندفاع شو في هذين الجانبين معا ولما امتاز به من مزايا شخصية فريدة فانه يؤلف طرازا طريفا من الاشتراكيين الفوضويين. قال في تقريره الى الجمعية الفابية صيف ١٨٩٣ : تبدو لي لهفة باكونين الشديدة لتدمير كل الحكومات والكنائس القائمة وما لها من قوانين ومؤسسات دينية وسياسية وقضائية ومالية وعقابية وثقافية واقتصادية واجتماعية مبررة تماما ومفهومة من وجهة نظر الرجل المتعلم العادي الذي يؤمن بان تلك المؤسسات هي التي امست تصنع الناس بدلا من ان يصنعها هي الانسان (٥) .

---

(١) يلتقي شو هنا والنظرة الوجودية الى السلوك الانساني .

(٢) عن جوهر الابسنية في مواضع متفرقة ومن حكم الثوار الاولى في الانسان والانسان الكامل : القاعدة الذهبية هي ان ليست هناك قواعد ذهبية .

(٣) قال ابسن عن فرديته : انا وحدي مسؤول عما اكتب ، انا لا احد غيري . انا لا املك القابلية على الانتماء لاي من الاحزاب ، اقف وحيدا كالديدبان واحارب بنفسي . برنارد شو : حياته ، اعماله واصدقاؤه ـ جون ايرفن ص ٢٣٢ لندن ١٩٥٦ ومن ثم هاجمه لينين في مرض الطفولة اليساري كمثال للمثقف المتردد .

(٤) يعني بها المشاعية الاقتصادية وليس النظام السياسي المعروف وتجد صدى لدعوته هذه في اندروكليس والاسد . انظر مدخل وارد للمسرحية ص ١٦٥ ط لونمانز وغرين ١٩٥٧ .

(٥) شو والمجتمع مقالة كنجسلي مارتن ص ١٢٢ لندن ١٩٥٣ ويقول نفس الكاتب ص ٥٠ : ذهنيا وذوقيا كان شو فوضويا ومثله برتراند رسل في صور من الذاكرة ص ٨٧ ت احمد ابراهيم الشريف .

ولنفس السبب ومع اهتماماته الفلسفية الكثيرة وتفننه في الكتابة المسرحية فانه يظل سياسيا قبل كل شيء وتظل السياسة الشيء الجوهري في كل ما كتب كما قال تشسترتون احسن من كتب ويمكن ان يكتب عن شو فيما يرى جون ايرفن (٦) .

ومن المزايا الفريدة لشو : الوضوح والسخرية فهو يطلق اراءه في كل قضيه بصراحة لامتناهية لحد السماجة كما اتهمه البعض ، وبعبارات جازمة لا تقبل اي لبس او ابهام وكتاباته فيما يرى جون مثل كتابات سويفت وفولتير خالية من الهمس والظلال والرمزية .

واما السخرية فخير اداة تنفع رجلا في موقف كموقف شو يكاد أن يهاجم كل شيء ولا يعقد اعتقادا جازما باي شيء ، يهتك متناقضات المجتمع البرجوازي ويفضح تقاليده ومعاييره المهترئة . كما ونرى ان الفكاهة والسخريه من سمات الرجال ذوي الفكر المنفتح والنفوس الرحبة على عكس الرجال المتعصبين لارائهم الميالين للتسلط .

لقد نشأت العلاقة المهمة لشو بالمسألة اليهودية ولكن من الناحية السياسية السلبية من جراء احدى فعالياته السياسية بالسمات المارة الذكر وهي انتقاده للديمقراطية واطراؤه لبعض الزعماء المعادين لها في بعض فترات حياته .

فلقد كان شو عديم الايمان بقابلية « الاغلبية » في حسم القضايا الاجتماعية الكبرى وبالتالي ساخرا بقادة احزابها وبرلماناتها وبمؤتمرات الساسة الدوليين متهما اياها بالعجز والضحالة . وفي مسرحيته عربة التفاح نستخدم اصوات الناخبين لمجرد وضع اناس غير اكفاء في اماكن غير مناسبة (وانظر جود ص ١٦٥) وفي « على الصخور » يتهم الحركة العمالية بعدم ادراك مصالحها الحقيقية البعيدة المدى (٧) .

ولعدم وضوح رؤيته الكاملة لاسباب عجز الاغلبية في الحكم والذي اصبح اليوم في عداد المبادىء السياسية الثابتة (٨) ولتوقه الشديد الى الاصلاح الاجتماعي الفوري والقضاء على الفقر ابشع ما يمكن ان تعانيه الامة كما قال ، فقد ابدى اعجابه ببعض الحاكمين بغير الوسائل الديمقراطية المعروفة كقيصر الذي صوره مثاليا عاجزا عن العمل في مسرحيته « قيصر وكليوباتره » على عكس نابليون الذي رسم شخصيته في مسرحية رجل القدر نموذجا للرجل المطلوب بنظره : اللاديني ، غير المتعلق باحد اوهام الاخلاص او الوطنية او المثل العليا المجردة ، وقال عنه انه ذو رؤيا واقعية واضحة للطبيعة البشرية في شؤونها العامة(٩) ثم كان رضاؤه عن بعض اعمال موسوليني وهتلر وستالين (١٠) .

وحين نضع رأي شو هذا في مكانه الصحيح يبدو من الضحالة اتهامه بالفاشية . واذا كانت الفاشية تعني على مر التاريخ امتياز فئة معينة على بقية الناس لسبب لا عقلاني ،فهذا ما يدعوها الى احتقارها لهم وسيطرتها عليهم ومحاولة القضاء على كل اعدائها . ونحن نؤكد على العنصر اللاعقلاني في الموضوع وانعكاسه العملي : افناء المعارضين اذ لا نجد اية مفاهيم دقيقة ومحددة لدى دعاة الفاشية في اي زمان او مكان وسواء اكانوا من حملة « الرسالات الدينية المقدسة او العنصرية او الارستقراطية الاجتماعية والنخبة » وبهذا ايضا يمكننا تعليل تغزل الفاشيين دوما بالروحية الدينية . يقول ستندال في«الاحمر والاسود» : الفكرة التي نقدم للطغاة اجل الخدمات هي فكرة الاله .

الم يقل موسوليني ان الدين اعمق مظاهر الروح الانسانية وهتلر في « كفاحي » : ان اصول الدين هي القوانين الاساسية للدولة .

وامامنا ايضا الفاشية الاميركية ما عنصرها الحقيقي ؟ حمل«رسالة العالم الحر» والدفاع عن « القيم الروحية » للانسان المعاصر ضد الاشتراكية العلمية وما هو انعكاسها العملي ؟ انه التمييز العنصري والتعالي على كل « اجنبي » عن الولايات المتحدة وهو ما يشعر به كل زائر لها ومجاله الاوسع : مذابح الدومينيكان والكونغو واليمن وكوريا وفيتنام .

ومن هنا ايضا تحذيرنا لبناة ودعاة الاشتراكية العلمية في وطننا العربي من قلبها الى « اسطورة ... صوفية دينية .. » خاصة وقد قلب سان سيمون اشتراكيته الى « مسيحية جديدة او ديانة نيوتن » وكادت ان تنقلب الماركسية بايدي الماركسيين الى « ديانة » كما عبر بردياييف .

... واذا كانت الفاشية بهذا المعنى فقد وضح لنا فكر شو بعناصره العقلانية واللاتعصبية وعدم تشبثه بالتصورات المطلقة وتأكيده اللامحدود على المساواة الاقتصادية مما لا يتفق واياها ابدا وحتىمفهومه عن السوبرمان ليس اكثر من مبدأ يوجيني صرف اصبح معترفا به من العلم الحديث بان يتطور الجنس البشري ككل الى مرحلة بيولوجية يصبح فيها الرجل من « عامة الناس » اعلى مستوى من يوليوس قيصر بنسبة ما يعلو ارباب الحرف الانجليز اليوم على مستوى رجل الغابات الاسترالية البدائيين ـ كما يقول شو .

وبنفس الكيفية لا يمكن اتهام شو باللاسامية ايضا وقد قيل ان غضه من قيمة الديمقراطية وخاصة في مسرحية جنيف (١٩٣٩) قد وضع العديد من الحجج بيد الدكتاتورين موسوليني وهتلر لارتكاب اعمالهما التدميرية (١١) واثارت المسرحية ثائرة اصدقائه وقال بعضهم عنها انها فاسية وغير لائقة وتجاهلت المعاملة المجحفة لهتلر تجاه اليهود ورغم احتجاج الاميركان والانجليز عليها (١٢) .

والحقيقة ان شو لم يكن جاهلا بطبيعة النظام الهتلري وقد حمل الغرب مسؤولية اتجاه المانيا بعد هدنة ١٩١٨ نحوه ورأى انه مجرد هوى جنوني لا نظاما سياسيا بالمعنى المعروف وكان عالما باضطهاده اليهود . ويعتبر شو من القلة الذين تنبأوا بفشل هجوم هتلر على الاتحاد السوفياتي بمقالته المبكرة في نيوز كرونيكل عدد ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٤١ (١٣) .

والخلاصة ان ليس هناك اي التقاء نظري بين الشوفية والفاشية او اللاسامية وانما كما قالت بلانش بانش (١٤) : لقد اقتنع شو بالدكتاتوريين لاصلاحاتهم التي كانت تجذبه دائما . لقد آزر هتلر عندما وضع حدا للبطالة ووافق موسوليني عندما قضى على مستنقعات بونتاين ولم يبدأ بتقدير خطورة حقدهما على اليهود والشعوب الملونة

---

(٦) ويوافق جود على قول تشسترتون : شو ص ١٣١ لندن ١٩٤٩

(٧) مما يذكر هنا ان نهرو قرأ هذه المسرحية مع غيرها من مسرحيات شو في السجن وقد تمتع بمقدمتها والجدال الدائر ما بين المسيح وبيلاطس فيها . جواهر لال نهرو : فرانك موريس ص ٣٢ ؛ نيويورك ٤ وقد يبدو غريبا اعجاب زعيم لم يتخلل عن ايمانه بالديمقراطية وعمله من اجلها يوما هو نهرو بكاتب هذا انطباعه عن الديمقراطية ولكننا لو فهمنا المناخ الفكري الحقيقي الذي انبت هذا الانطباع لزالت الغرابة .

(٨) عبر عنه هارولد لاسكي بقوله ان القرارات الحاسمة في كل شيء لم يعد يتخذها الناخبون او النواب او الساسة وانما الخبراء وحدهم وهذا ما تحسس به شو بصورة بدائية عندما قال في ميجر بربارة (١٩٠٧) : ان اخطر المهام نعهد اليوم الى لجان مؤلفة من نفر من ادعياء المعرفة بعلوم الاقتصاد والنفس وهم لا يعلمون منهما اكثر مما يعرفه الرجل البدائي عن سطحية الارض .

(٩) جود ص ١١٨ .

(١٠) يرى جود ص ١٤٩ ان من اوجه الشبه العديدة بين افلاطون وشو كراهيتهما للرجل الشارع وانه تحت تأثير جمهورية افلاطون لم يعد شو مؤمنا بتحقيق الاشتراكية عن طريق الاغلبية البرلمانية .

(١١) برنارد شو : الانسان والكاتب ـ اودري ولياميس ص ٣٦ ، نيويورك ١٩٦٣ .

(١٢) جون ايرفن ص ٥٦٤ .

(١٣) برنارد شو : حياته وشخصيته ـ هيسكث بيرسون ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ و ٤٣٨ حاشية ، لندن ١٩٤٨ .

(١٤) ثلاثون سنة مع ج.ب.ش ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ط ٣ لندن١٩٥١ .

وهو نفسه لم يكن يشعر بأي شعور ضد اليهود الذين كان بينهم عدد من اصدقائه (١٥) .

الا ان هذه العلاقة السلبية لشو بالمسألة اليهودية لا تعني انه لم يكن ذا نظرة خاصة اليها فقد وردت اشارات عديدة في مؤلفاته الى اليهود واليهودية وفي كثير من الاحيان يتفق ونظرة الكثيرين الى اليهود كاناس يحملون خصائص اجتماعية معينة ففي « الفاجزي الكامل اشارة الى المرابي اليهودي وفي حوار قصير بين الزنجية واليهودي في مسرحية « الزنجية تبحث عن الله » تستهجن الاولى عقيدة يهودي بظهـور المخلص الذي سيصلح كل شيء . وميندوزا زعيم العصابة التي تدعي الفوضوية الاشتراكية في الانسان الكامل يعلن عن شرف كونه يهوديا وانه لن يكون المطوع الاخير عندما تحتاج الصهيونية لزعيم بجمع شمل الجنس اليهودي على ارضه التاريخية فلسطين (١٦) ويظهر في المسرحية مثال للانتهازي السياسي الذي يتسرب الى قيادة الحركات السياسية ويحمل كل الشعارات في سبيل تحقيق مطامعه .

ويضع شو يده على المفهوم الصحيح لليهودية في مقدمة « الزنجية تبحث عن الله » (١٧) عندما يحددها ليس كمجرد حالة نفسية يعانيها الفرد اليهودي بسبب اضطهاد الاخرين له ونظرتهم غير الطبيعية نحـوه بل كاندفاع قبلي اهوج تحت تأثير الوهم القائل بان اليهود هم شعب الله المختار والورثة الطبيعيون للارض ومحتكرو القدسية الالهية وبذلك وضعوا الاساس النفسي والمعنوي ليس « لحالة الاضطهاد » بل « لدوافع استعبادهم واستغلالهم الاقتصادي » للاخرين ، فما داموا هم الورثة الحقيقيين للارض وثرواتها فلماذا لا يستغلون الغير ويحرمونهم منها ؟ وبذلك اكمل شو النصف الثاني التفسير الماركسي للمسألة عندما ربط بين سر اليهودي المتدين واليهودي الواقعي وكشف ان نظرة الاخرين لليهود تقوم على اساس موضوعي بحت هو الطبيعة الفاشية التسلطية للعقلية اليهودية ووجهها العملي التجارة لا المزاج .

واذا كانت اليهودية في جوهرها ، والصهيونية وجهها السياسي، اضطهادا واشيا منظما للشعوب مرتكزا على اساس غيبي بحت (١٨) فان الرد عليها لن يكون بمثل ما فعل هتلر وقد اعتبر شو اضطهاده لليهود من قبيل الحروب الدينية (١٩) وانما بسلب اليهودية سلاحها المادي الا وهو الملكية الفردية او كما قال ماركس في المسألة اليهودية « وحين ينجح المجتمع في الغاء الجوهر العملي لليهودية : المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلا » وهو الهدف الصميم الذي ناضل من اجله شو طويلا وينبغي ان يناضل من اجله العرب قبل غيرهم ان ارادوا التحرير الحقيقي لوطنهم وللانسانية من الصهيونية ... ولا طريق اخر .

مزاحم الطائي

الاعظمية ـ العراق

---

(١٥) مثل اينشتين وكان يعلق صورته في حجرة المكتب الى جوار نيتشه وديكارت وقد حياه اينشتين بكلمة ، انظر كتابه : العالم كما اراه، ص ٣٧ ، نيويورك ١٩٤٩ .

(١٦) الانسان والانسان الكامل ١٩٠٣ ص ١٢٠ ط بنجوين .

(١٧) ص ١٦ ط بنجوين .

(١٨) ذهب توينبي في ندوته المنشور عنها بمجلة الكاتب القاهرية ابريل ١٩٦٥ الى ان اساس الصهيونية ليس دينيا لان كثيرا من قادتها غير متدينين . ان توينبي يفهم الدين هنا بمعناه الظاهري والدين ليس مجموعة طقوس او سلوكية معينة فحسب وانما هو قبلها حالة لاعقلانية منفعلة وعقائد غير واضحة او دقيقة .

(١٩) مقدمة الزنجية تبحث عن الله ص ٢١ .

عودة الكلمة

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

– يبدو انك مصمم على عدم الاجابة . انهـا المرة الثالثة التي يطلبك فيها المدير .

فقال من غير ان ينظر الي :

– الم تبلغيه انني لست في البيت ؟

– بلى ولكن يبدو ان هناك ملفا هامـا يجب ان تطلع عليه .

فقال في ايجاز يثير الاعصاب :

– سينتظر هو والملف .

واقتربت منه اقول بلهجة ملاطفة :

– الا ترافقنا في نزهة قصيرة ؟ اننا جميعا بحاجة الى الترويح عن النفس .

فقال : لا .

– اتريد اذن ان تبقى وحدك في البيت ؟

فاومأ برأسه ايجابا من غير ان يقول كلمة .

– انخرج وحدنا ، انا والاولاد ؟

– اذا احببت ذلك .

وكان هذا كافيا له ولي . وانسحبت وانا اغلق الباب خلفي . ان افضل حل للوضع وهو في ازمته هذه ان ادعه وشأنه . وتذكرت حوار الاسبوع الماضي القصير ، حيـن عدت ظهرا الى المنزل فوجدته فيه :

– الم تذهب الى المكتب ؟

– لا .

– عجبا . وعملك الذي تحبه ذلك الحب ..

فنظر الي في شبه استنكار :

– احبه ؟ انني امارسه .

قلت بعد لحظة صمت :

– هل يعني هذا انك هنا في البيت ، اسعد حالا ؟

فابتسم بسمة احسست صفرتها في ضلوعي . وقال :

– لا اهمية اطلاقا للمكان الذي اكون فيه .

ولم يشق علي ان ادرك قصده . كان الخارج شيئا تافها عنده . كان يلتمس الداخل ، يبحث عن هذا الذي اضاعه فيه . كنت قد سألته اكثر من مرة عما اذا كانت حياة البيت والاستقرار والعائلة قد عادت عليه بشعور الندم فاجابني : ان حياة التشرد واللامسؤولية لم تكن في طبعي . ومع ذلك فيبدو ان حياته هذه الجديدة كانت ، في نظري على الاقل ، هي سبب الازمة . أأكون اذن ، انا ، المسؤولة الاولى بعد كل حساب ؟

***

حين عدت بالاولاد في المساء ، لم نجده في البيت . وحاولت ان اواجه الامر بهدوء . ولكن حركاتي وكلماتي كانت تشي بقلقي : لماذا خرج ، وكان عازما على البقاء ؟

غير ان انشغالي بتدريس الاولاد واطعامهم والباسهم لباس النوم ، انساني موقتا ساعتي الانتظار هاتين . وحين صمت الاولاد في سررهم انتشرت في البيت رهبة الغيبة وكانت تتفاقم بمضي الدقائق حتى تمنيت ان يستيقظ الاولاد من جديد ويملأوا البيت اصواتا . وفتحت جهاز التلفزيون فكان فلما صاخبا من افلام المطاردة والرصاص . ولكني لاحظت بعد فترة قصيرة اني لم اكن اتابع الصور ، ولم اكن اسمع الطلقات ، بل كان وجودي كله متجمعا في اذنين تنتظران وتتلهفان وتبتهلان ان تسمع جرس الباب .

ولم اسأله حين عاد ، بعد منتصف الليل بقليل اين كان ، ولا ماذا فعل ، بل قمت اعد له صحنا من الحساء الساخن وقطعة من الخبز المحمص بالجبنة . غير انه لم يأخذ الا الحساء واوى الى سريره من غير ان يقول لي شيئا . واندسست الى جانبه بلا حركة كأنما كان همي ان انقل بعض حرارتي الى جسمه الذي كنت اظنه باردا .

وهو الذي ايقظني في الليل حين احاط عنقي بذراعيه وجعل رأسي الى صدره في ذلك الوضع الذي كنت اطلبه واسعد به . وتمتمت له بالسؤال :

– هل تحبني ؟

فقال في الظلام :

– منذ عشرة اعوام وانت تطرحين هذا السؤال . الم تمليه ؟

وسألته :

– ولكن من هي تلك التي تشغلك عنا هذه الفترة ؟

فاحسست ابتسامته في ثنايا جوابه :

– اوه . لا استطيع ان احدد لك واحدة . انهـن كثيرات .

ثم صمت لحظة قبل ان يستطرد :

– ولكن المريع اني لم اعد التقي باحداهن !

وادركت انه يعود الى مصدر ازمته : بطلاته وابطاله الذين يحاول منذ اشهر طويلة ان يستدعيهم ويعايشهم ويعقد معهم من جديد تلك العلاقة الحميمة التي تملأ رأسه افكارا وخيالات وتملأ قلبه عواطف وانفعالات وتملأ اوراقه حروفا وكلمات .

وقال بما يشبه الهمس :
ــ الم تكوني سعيدة حين كنت تتلصصين علي من وراء الباب وانا مجتمع بهم ساعات طويلة ؟ اكنت تشعرين حقا بالغيرة ؟
ــ لا من الابطال ! ...

واسعدني ان اسمع منه ضحكة صغيرة اشعرتني بأني استطعت ان اسري عنه . وقال لي :
ــ اما زلت تشكين بانك انت ...
فسارعت اضع اصبعي على شفتيه وانا اقول :
ــ اعرف ماذا تريد ان تقول .

ولزم صمته لحظة طويلة حتى ظننت اني استطعت ان اجس باصبعي الكلام على شفتيه . ولكنه ما لبث ان سألني :
اتعدينني بأن تسامحينني دائما ؟
وقبل ان يتاح لي التفكير بعبارته ، فضلا عن الرد عليها ، سمعنا صوت الصغير يرتفع من الغرفة المجاورة يطلب كوبا من الماء . فسارعت انهض وانا اشعر كأني مدفوعة بتفادي الاجابة عن سؤاله اكثر مني بتلبية طلب الصغير .

وجلبت كوب الماء وسقيته وملت على اختيه اغطيهما باللحاف الذي كانتا تتنافسان في دفئه عن جسميهما . وتباطأت لحظة اخرى في الغرفة حتى اذا عدت الى غرفتنا وجدته قد عاد الى النوم او تظاهر بذلك ، لا ادري . ودخلت الفراش من جديد وانا احاذر هذه المرة ان امسه .

***

كيف استطعت ان تتناسانا طوال هذه الايام الخمسة؟ وما الذي كنت تفعله في نهارك ؟ وما الذي كنت تفعله في ليلك ؟ كيف انفقت ساعاتك . واين قضيت أوقاتك ؟ خمسة ايام بلياليها . لا تسأل عن هذه التي خلفتها في الرعب والتمزق والجنون . واذا استطعت ان تنساها هي، فكيف استطعت أن تنساهم هم ؟ اما حننت الى العذوبة في وجه الكبرى ؟ والوسطى التي كان يناوشها المرض، اما خفت ان يتغلب عليها في غيبتك ؟ . وذلك الصغير الذي كنت تجد الدنيا كلها في ضمه اليك ، اما اشتاقت ذراعاك الى حرارة جسمه اللدن .

وهل استطعت حيث كنت ان تلقاهم ، ابطالك، اولئك الذين كانوا يفرون منك ؟ . ما الذي جنيته انا . الم احاول ان اوفر لك كل شيء ؟ لماذا تعذب نفسك وتعذبني معك. وماذا لو اعلنت عن عجزك واستسلامك ؟ ان كثيرين غيرك قد اعلنوا رضوخهم وارتضوا الامر الواقع . اما يكفيك ما كسبته من شهرة ومجد. انني اعرف جوابك: انا لا استطيع ان اعلن استسلامي . الكلمات ما تزال تملأ نفسي كما يملأ الجنين احشاء امه . ولكن هذا كلام من الخيال . فاهبط الى الواقع وطلق هذا الهوس وتعال نعش حياة جديدة كحياة جميع البشر . حاول ان تنتمي الى طائفة العاديين وكف عن وهم منافسة الالهة . تقول انني لا استطيع ان اتصور تلك اللذة التي تحسها انت حين تضبط تلك الاشباح الشاحبة المبهمة الاثيرية الراقصة من حولك . ولكن هل نقضي العمر كله ونحن نطارد هذه الاشباح وهي تفلت منا وتستعصي على ارادتنا . لقد عجزت انا ايضا وها إنذا اعلن استسلامي ولم يبق لك الا ان تختار: ان تختار بيننا وبين اشباحك !

***

بعد ان هدأني روى لي رحلته الغريبة ، رحلة غيبته.
لقد نزل في احد فنادق الجبل وكل غايته ان يقضي على ذلك الشعور بالاختناق الذي كان يعانيه منذ اسابيع. وكان يخرج منذ الصباح ولا يعود الى الفندق الا وقد هبط الليل . وبالرغم من ان هواء الجبل كان منعشا في تلك الايام الربيعية ، فانه عبثا ما كان يلتمس التفريج . وحين كان ينظر الى الشمس وهي تتوارى وراء الجبل كان يشعر بان الليل يتكاثف في نفسه . كان يمشي وحيدا بلا هدف وسط صحراء لا يستشرف فيها اي سراب . وتوقف ذات لحظة وانحنى فالتقط حجرا وقذف به نحو الوادي المريع في انحداره ، وراح يتأمل تدحرجه نحو الهاوية ، الم تكن حياته هو ايضا تنحدر نحو الهاوية ؟ وفكر : كيف للكلمات الحبلى في نفسه ان تتدحرج ؟ أليست هي التي تثقله فتشد قدميه الى الارض باثقال من رصاص . لقد كان يشعر دائما ان تحت ابطيه اجنحة منطوية تريد ان تتحرر فيعجزها ذلك . واحس ثانية بان الظلام يغشي عينيه .

وحدق في الهاوية امامه . ان كل شيء من حوله حالك ، اخرس . فلا زرقة السماء تلك ولا هذا الامتداد اللانهائي ولا حفيف الاشجار، ولا روعة المنظر، لا شيء من ذلك كله يحدثه . لقد خرس ذلك الحوار ، هنا ، ايضا، مع الطبيعة والاشياء كما كان اخرس هناك ، مع الانسان . وتحسس جسمه،فوجد يديه باردتين .وشعر بركبتيه تصطكان .وآمن ايمانا عميقا بانه يعيش الان في الزيف . وتساءل ايكون الحل ، اذا شاء المرء ان يقضي على الزيف ، هو في القضاء على حياته ؟

وانفتل عائدا في طريق المصيف واحس فجأة انه بحاجة الى البشر ، وان هذه الوحدة التي لجأ اليها حين فكر بمغادرة بيته لبضعة ايام انما كانت تزيده بعدا. وعجزا. وحين وصل الشارع الرئيسي توقف امام واجهة للكتب. وقفزت الى عينيه فجأة حروف الفها . عجبـــا . انها روايته . وان تلك المكتبة الصغيرة في ذلك الجبل ما تزال وفية له . انها ما تزال تحتفظ به . واذن فان العالم لم يلفظه كما لفظ هو نفسه . واذن ، فأن حروفه لم تمت . هذه الحروف، التي يحس الان انها تحمل دعوة غريبة له..

ودخل المكتبة فوجد البائع يعرض على شاب كتبا مختلفة كانت بينها روايته تلك . ورأى الشاب يتناولها فينظر الى غلافها ويقلب اوراقها ويقرأ بضع سطور فيها ثم يضعها جانبا . وتجمدت عيناه على هذا الكائن . كان بوده ان يقول له : « خذ هذا الكتاب فسأدفع انا ثمنه . اجل خذه . صادقني . صادق ماضي . اعد لي الثقة بحاضري . » وارتعش ان يرى الشاب يمد يده الى جيبه ويدفع ثمن الكتاب . وارتفع صوته هو ... اتراه قد ارتفع بالفعل ام خيل اليه انه قد ارتفع فيما هو ظل حبيسا في حنجرته ؟ واحس بشيء ما يتكسر في داخله ، واحس بجليد ابدي كان قد غلف نفسه يذوب فجأة . فوضع يده على كتف الشاب ونظر الى عينيه المندهشتين ثم دفعه امامه وهو يحيط كتفه بذراعه وسأله . لماذا ، لماذا اخذت الكتاب ؟ واندفع في بحر من الاسئلة واسترسل في الكلام كأنه الة اوتوماتيكية ادير زرها فلن تتوقف قبل ان تفرغ خمسة عشر عاما من الصمت . تقول انك كنت تبحث عن الكتاب .. انه مفقود في بلدتك ، وانت سعيد .. لقد سبق ان قرأت اشياء كثيرة لي .. انه يعجبك .. انك تحبه .. تحب بطله الاخير ؟ . لقد قرأتها من قبل وتريد ان تعيد قراءتها ؟ انها ما تزال تحتفظ برونقها .. انه يعبر عن جيل من الشباب .. فيه تصوير بديع .. وبشر حقيقيون .. وموسيقى حنون .. صاخبة ، واصوات .. وشعر .. وحب عنيف وانسانية وماذا .. ماذا ؟ ..

وظل يصغي دقائق وساعات ودهورا الى صوت الشاب الذي يرافقه واحس بأن مغاليق نفسه تنفتح ليخرج منها ذلك الصوت الداخلي. وظل يمشي ويمشي والصوت في سمعه . ثم التفت فلم يجد رفيقه .

وشعر بأنه يسيخ . ولكنه وجد عزاء اشبه بالسعادة ان يكون مخلوقه ذاك الذي تركه في روايته الاخيرة يشيخ مثله ايضا . وتساءل صوته الداخلي لماذا لا ارافقه من جديد ؟ لقد مرت عليه احداث كثيرة ، عبر اعوام عديدة هي اعوامه . فلماذا لا يتابعه ؟ كيف فاته ذلك من قبل ، بل لماذا لا يصور حتى عجزه واستسلامه وفشله ؟

وقفل عائدا الى الفندق . ودلف الى غرفته . فاضاء المصباح فوق الطاولة الصغيرة التى كانت قائمة بجانب السرير وبدأ ينظر الى الكلمات تنهمر خطوطا سوداء على الورق الابيض .

***

قال لي بعد ان فرغت من تقليب الصفحات الثلاثين التي كتبها : ــ انتهى الامر . لقد عادت .

الاشباح . البطلات . الابطال . الكلمات : لم اسأله ما الذي عاد . لانه هو الذي سألني :

ــ اما وعدت بأن تسامحيني ؟

عايدة مطرجي ادريس

باب سليمان

فليسقط الشعراء ! ولتسقط قصيدتك الجديدة !
ماذا ستكتب غير لغوك ؟
انجما ، وندى ، ونخلا
وحكايتين عن الضياع ، وتشتم العصر الملا
وتخط رمزا في السياسة ليس يفهمه سواك ؟

في المغرب الاقصى ، تسيل مياهك الخضراء ،
في عتبات داري
ويدور ورد الهيل ، والمران ، نقشا في ستار
يا ايها النهر المشتت في جداول من نخيل
يا أيها الملقى على بعد المزار
بيني وبينك لحظة ، بيني وبينك باب داري

●

المد يأتي مثل شيء لست اعرفه ، ولست اري خطاه
الا على الاعشاب في ضفة ، وفي الاخرى اراه ـ
يسقي جذور النخل ، تلمع حين تلمسها يداه
وتغيب جذرا بعد جذر ،
ثم تحضنها المياه

●

والجزر ، يبقي خيطه الفضي معبر
يلهو الفراش على حبائله ، ويقطعه السمندر
حتى اذا ارخى اليمام جفونه ، والنجم ازهر
وتفرق الصبيان ،
غنى بلبل في التوت ...
فانثنت المياه

●

في المغرب الاقصى ، غريب انت ...
يا نهرا تشف به السماء
ما دجلة العوراء ؟
ما « المختارة » الخضراء ؟
اسماء وماء !
واد ببلعباس يسقي الزان والبستان ، خير منك !
لكن ، اين تلتمس السماء ؟
وجرار نسوتك النحاس ؟
وسدرتي ؟
وشباك جدي ؟
وسجارتي الاولى
ولمح من مظاهره ؟
وكوخ كنت احلم فيه وحدي ؟

●

اين الطريق اليك ؟ يا ماء نشاء كما يشاء
كل الدروب اليك تومىء ، غير اني لا اراها
هب لي طريقا لن نعفر في مسالكها الجباها
جذعا لقنطرة تأكلها الشتاء
مرت بها اقدام فلاحيك مثقلة ، ومر بها الزمان
فما رآها
و كنت جذعا فوق قنطرة قصية !
اني اجف هنا ...
اموت ...
وانت تبخل بالهديه !

سيدي بلعباس **سعدي يوسف**

(*) باب سليمان ، نهر في جنوب العراق .

فصل من « أصول الدافع الجنسي »

بحث عام حول الانحراف الجنسي

بقلم كولن ولسن

من المناسب ان ابتدىء هذا الفصل بطرح السؤال الذي هو محور هذا الكتاب : اي دور يلعبه الجنس في وجود الانسان الشامل ؟

وهذا السؤال يجر مباشرة الى سؤالين اخرين . الاول ، وهو الاكثر الحاحا ، يتعلق بطبيعة الدافع الجنسي . اما الثاني فهو : ما هو المعني بـ « وجود الانسان الشامل ؟ » وان الوصول الى جواب مرض للسؤال الاول سيمكننا بالتالي من القاء الضوء على السؤال الثاني .

ان اكثر الامور جلاء بالنسبة للدافع الجنسي هو ان الانسان و « الطبيعة » لهما في هذا المجال ، غايتان متباينتان . ان التناسل هو غاية الطبيعة كما يبدو . اما غاية الانسان فهي ان يحصل على اكبر قدر من الاستمتاع بالنشوة الجنسية .

ومن الصحيح القول ان اغراض الانسان والطبيعة قلما تتوافق وتلتقي التقاء تاما . فالطبيعة تقتضي من الانسان ان يهتم بالطعام بالقدر الذي يضمن له البقاء والصحة الجيدة . ولكن معظم الناس المتمدنين لا يكتفون بذلك فيتعدى تولعهم بالطعام القدر الذي تتطلبه الطبيعة ، والنهم يقود بعضهم الى حتفه . لكن معظم الناس في الغالب يبقون ضمن حدود « ما تتطلبه الطبيعة » . وينطبق هذا المثال على حالات الشرب والنوم والتمرين . وفيما يتعلق بالدافع الجنسي ، يبدو ان الهوة بين غاية الانسان وغاية الطبيعة واسعة بشكل غير عادي . ولهذا السبب فان الانحرافات الخاصة بالدافع الجنسي هي اكثر من تلك التي نصيب اي دافع انساني اخر من دوافع خفظ النوع .

هنا تنشأ المشكلة الاولى . فالشذوذ يفسر عادة بانه « عمل غير طبيعي » ومن السهل بمكان فهم كلمة «غير طبيعي» عندما يحس الانسان بميل غريزي قوي نحو ما هو غير طبيعي . وعلى سبيل المثال ، فان احدا لا يشك في ان اكل الغائط هو عمل غير طبيعي لان ما لفظه الجسم لا يمكن بطبيعة الحال ان يكون غذاء للجسم .

لكن السؤال هو : « كيف نستطيع ان نحكم بما هو طبيعي في حالة مثل حالة الجنس حيث تتسع الهوة بين غاية الطبيعة وغاية الانسان ؟ »

تفسير تولستوي للعادية :

ان المنطق العادي يساعد الى حد ما ، وقد حدد تولستوي في روايته « سوناتا كرويتزر » The Kreutzer Sonata جوهر النظرة الى الجنس المستقاة من المنطق العادي . وروايته هذه تحمل في الاساس طابع الكتابات الوسليانية (نسبة الى القس الانكليزي جون وسلي مؤسس مذهب النظامية الديني) ضد الحرية الجنسية . فبودسنيشيف ، قاتل الزوجة ، يشعر بان المجتمع المعاصر قد تملكه نوع من الجنون الجنسي . وذلك ان الزيادة في اوقات الفراغ قد منحت الانسان مزيدا من الطاقة الفائضة التي يصرفها في سعي محموم لاهث وراء المتعة . ان الزوج او الزوجة حسب النظام الطبيعي للاشياء لا يملكان القدرة على ممارسة الجنس بكثرة ، فهي منهوكة بانجاب الاطفال وهو ينهك بالعمل اليومي ويحدد عمله من انصرافه الى الجنس . امـا الطبقة الارستقراطية العاطلة (وبالذات الارستقراطية « المثقفة ») فهي تصرف ايامها وساعاتها في التفكير في الجنس ، وهو التفكير الذي يختفي في مراحله الاكثر براءة تحت ستار رقيق من الحب . وقد بدأت غيرة بودسنيشيف من زوجته حين قامت بعزف « السوناتا التاسعة » للبيانو والكمان لبيتهوفن بمرافقة شاب ارستقراطي .

وقد بين تولستوي ان مثل هذه المشاركة الثقافية الفنية ما هي الا عذر جديد لاقامة علاقات قد تؤدي الى الخيانة الزوجية . وقد توصل في روايته هذه الى ان العلاقة الجنسية الطبيعية الوحيدة هي التي تهدف بالذات الى انجاب الاطفال . وكل ممارسة جنسية اخرى تجري بقصد المتعة الخالصة ، حتى بين الرجل وزوجته ، فهي عمل « غير طبيعي » .

وميزة هذا الرأي على الاقل هي ثباته وتماسكه ، فهو يتجاوز تعاليم القديس بولس بمرحلة واحدة ويماثل تعاليم الكنيسة الكاثوليكية حـــول منع الحمل . انـه في جوهره رأي ديني ، فهـو يعلن ان ميول الانسان ليس لها اي دور في تحديد ما هو طبيعي وانه يجب الانصياع لرأي « اعلى » حتى وان كان هذا الرأي مناقضا لما يعتبره الانسان « طبيعيا تماما » .

ان عددا قليلا جدا من الناس ، من هم على استعداد لان يتفقوا مع تولستوي على تفسيره للعادية او الطبيعية . وقد عرف معظم الذين كتبوا عن الجنس ، من « اليس » الى « كرافت ابينج » ، الجنس الطبيعي بانه « نشاط جنسي يؤدي في النهاية الى عملية التناسل » . وهذا الرأي يعكس بعض التناقضات . انه يقول ان الجنس يكون طبيعيا اذا كانت النتيجة الاخيرة هي حدوث قذف في المهبل ، بغض النظر عما ان كانت قد سبقت عملية القذف ممارسات غير طبيعية . وبالتالي ، اذا تعمد الرجل القذف خارج المهبل او استعمل مانعا للحمل اعتبر اكثر « شذوذا » من الرجل الذي يضرب زوجته بجنون لغرض التهيج الجنسي او الرجل الذي يغتصب فتاة بعد ان يفقدها رشدها . لكن الاعتراض الرئيسي على هذا الرأي هو انه يسيء الى المنطق السليم حين يجعل الغاية ، وليس الوسيلة ، هي التي تقرر الشذوذ من عدم الشذوذ . فاذا كان القذف هو اصلا الغاية من معظم الممارسات الجنسية ، افليس من المؤكد اذن ان الوسيلة التي تتبع للوصول الى هذه الغاية هي التي ينبغي ان تكون المقياس الذي يقرر الشذوذ من عدمه ؟

ان المفهوم « السيكولوجي » للشذوذ هو حكم عملي مناسب ، لكنه لا يبدو مصيبا الا لان معظم الرجال الذين يتمون عملية القذف في داخل المرأة يصلون الى التهيج الجنسي بالطرق العادية .

جيد وكوريدون (١) :

كتب « جيد » الذي لم يخف ميوله اللواطية يوما ، اربعة حوارات بين قاص يتمتع بميول جنسية عادية وبين صديقه « المنحرف جنسيا » كوريدون ، حاول فيها ان يأتي بتبرير فلسفي للشذوذ الجنسي . وقد اعتبر الكتاب مجرد دفاع عن اللواط ، ولقد قال جيد عدة مرات بانه يعتبر هذا الكتاب اهم اعماله ، وهو ليس من السذاجة بحيث يلقي بهذا الحكم لمجرد ان الكتاب يدور حول احد اهوائه المحببة اليه . ذلك ان التساؤلات التي يطرحها هذا الكتاب تتعدى بكثير قضية ما اذا كان

---

(١) هذا الاسم يرمز في الاصل الى راع شاب ورد اسمه في الاساطير الاغريقية .

الشذوذ الجنسي ((طبيعيا)) او ((مستوجبا للزجر)) .

ان جيد يشير الى ان الرغبة الجنسية عند الحيوانات تنشأ عادة من الرائحة التي تصدرها انثى الحيوان في حالة التهيج الطبيعي ، ولذلك يمكن اعتبارها حالة ((جسدية)) طبيعية . ثم يضيف : ومع ذلك فانه من الخطأ القول ان ذكر الحيوان لا يحس بالرغبة الجنسية الا حين يشم رائحة الانثى هذه ، لان الرغبة الجنسية عارمة وقوية لدى الذكور الى حد ان الذكر يلجأ احيانا الى ركوب ذكر اخر او الاحتكاك بجسم ما ، لاستحضار النشوة الجنسية .

وعلى كل حال فان رائحة الانثى هذه توحد وتوجه غرائز الحيوان الجنسية . والانسان يفيض كذلك بالرغبة الجنسية . وفي حالته لا توجد هناك رائحة الانثى التي توحد غرائزه وتقودها نحو الجنس الاخر في لحظة معينة . فالحافز الذي يوحد غرائزه ويحرضها هو حافز عقلي محض . وهذا هو السبب في كثرة انواع الحوافز او بتعبير اخر ((الشواذات)) . فالرجل ((الطبيعي)) يتهيج لدى رؤية امرأة عارية ، لكن الرجل الذي يفضل امرأة سمينة جدا او نحيلة جدا او متوسطة السن ذات مظهر امومي ليس بالضرورة ((غير طبيعي)) ان لم تهيجه المرأة العارية التي لم تتوافق مع ميوله الجنسية . وكذلك فان الرجل الذي يهيجه اكثر من اي شيء اخر منظر امرأة في ثيابها الداخلية ، او امرأة ذات شعر طويل منسدل خلف ظهرها قد لا يكون شاذا ابدا .

يقول جيد : وعلى هذا فان الرجل الذي يفضل صبيا او رجلا اخر ، لا يكون قد ارتكب عملا شاذا على الاطلاق . ومن المعروف جيدا ان اللواط لا ينتج نسلا ، ولكن جيد يورد في كتابه امثلة عن بعض اللواطيين الذين مارسوا حياة عائلية معتادة مع زوجاتهم وانجبوا اطفالا . ويبدو ان جيد يلمح هنا الى انه يجوز للرجل او المرأة ان يمارس او تمارس ، علاقات جنسية كل مع جنسه ، شريطة ان يؤديا واجبهما في اقامة الحياة العائلية وانجاب الاطفال .

وكل هذا يطرح تساؤلات ذات دلالات كبيرة وعميقة . ففي مقالي ((دراسة في جريمة القتل)) كنت قد قلت ان الرغبة الجنسية عند الاطفال ((غير مميزة)) بمعنى انها ليست اكثر من مجرد الحاجة الى اثارة العضو التناسلي . فهي اذن حاجة بسيطة كالحاجة الى الطعام . ففي مثل هذه السن المبكرة تكون الشهية الجنسية خاضعة للتأثير ((التنويمي)) لشيء ما ، بحيث يرتبط هذا الشيء بالاستمتاع الجنسي . وقد يكون هذا الشيء دمية او طاقية نوم او لباسا . وقد يكون ايضا اعضاء الطفل التناسلية نفسها او الاعضاء التناسلية لطفل اخر . ومن حسن الحظ ان ((الشيء)) الذي يمارس مثل هذا التأثير على معظم الرجال هو الجنس الاخر . وينبغي هنا ان اشير الى حقيقة اساسيه وهي ان الرغبة الجنسية في ابسط صورها هي احد مطالب العضو التناسلي وهي ملازمة له تماما كما ان الجاذبية المغناطيسية ملازمة لحجر المغناطيس ، والفرق بينهما هو ان العضو التناسلي اكثر شبها بالمغناطيس الكهربائي الذي اما ان يكون ممغنطا او ((هامدا)) بلا حياة ان ما يحتاج اليه العضو التناسلي هو نوع من الكهرباء الاستثنائية .

وقد نكون على علم بسيط بـ ((المولد)) الذي يولد الكهرباء الجنسية ، لكننا لا نستطيع ان ننفي وجود هذه الكهرباء . وينبغي علينا عند بحث الدور الذي تلعبه المخيلة في الجنس الا ننسى هذه الحقيقة الواقعية التي هي احد العوامل الجسدية فينا . وقد يفاجىء رجل منغمس في افكار بعيدة عن الجنس برعشة داخلية حين يحتك بجسم ما ، ذلك ان كهرباء جنسية سرت في جسمه حينذاك .

عند هذا الحد يمكن لنا ان نطلق تعميما واحدا فقط حول الفريزة الجنسية ، وهو انها تعمل على مستوى اعمق من اي دافع انساني اخر، بما في ذلك دافع السلامة الشخصية .

وعلى العموم ، فان بامكان الرجل ان يفهم ميوله واذواقه . فاذا كان الرجل يسعى وراء المال او الشهرة ، او السلطة ، او حتى اذا كانت به رغبة عارمة لاقتناء لوحات الرسم او الكتب القديمة فان بامكانه ان يستقصي منشأ هذه الرغبة وان يتفهم العوامل والظروف التي كونتها ونمتها فيه . ان استيعاب الدافع الجنسي وادراكه ادراكا واعيا، اكثر صعوبة من استيعاب وادراك اية دوافع اخرى . فقد يظن الانسان انه يدرك هذا الدافع تمام الادراك، فاذا به يباغت بعكس ذلك تماما . ففي رواية برنارد شو ((الانسان والسوبرمان)) مثلا ، نرى ان رجلا مثل ((تانر)) Tanner تسيره رغبة عارمة في ان يصلح العالم ، ينجرف بالرغم من سداد رأيه الى مضاجعة امرأة لا يكن لها احتراما كبيرا . بل نسمعه يقول وهو يحتضن ((آن)) : ((ان قوة الحياة تسحرني ، وحين اضمك الي فانني اضم الدنيا كلها بين يدي)) ثم يقول : ((قوة الحياة ، انني في قبضة قوة الحياة)) .

ويشير رومان رولان الى هذه النقطة بالذات في روايته ((جان كريستوف)) حين يقول : ((انه ليس هناك اية رابطة مشتركة بين والدي كريستوف ، وان والده في الواقع ليست لديه اية فكرة عن السبب الذي حدا به الى ان يضحي بمهنة ذات مستقبل باهر ، لكي يتزوج من خادمة صغيرة .)) ويردف رولان : ((لكن ذلك ما كان ليؤثر على القوة المجهولة التي القت به في احضان الخادمة الصغيرة الشقراء . لقد لعب دوره)) في (انجاب رجل عبقري) .

لكنني لا املك اية رغبة عند هذا الحد في ان احاول تقديم اية تعميمات عن ((التطور)) ، فكل ما اريد ان اشدد عليه هو القوة الفعلية للدافع وقدرته على اكتساح كوابح الوعي .

يروي هيرشفلد Hirschfeld حكاية طريفة عن طبيب في الخامسة والثلاثين من عمره يعاني نوبات من اليقظة النومية ، منذ طفولته ، ومن الصرع ايضا . وقد وجهت اليه يوما تهمة الاعتداء الجنسي على طالبة صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها . كان الطبيب يعالج الفتاة التي كانت مصابة بمرض ((الاكزيما الجلدي)) المنتشر فوق جسدها .

يقول هيرشفلد : ((جلس الطبيب على الاريكة وجذب رأس الصبية اليه بحيث ان جسدها قارب جسده ، فاثار غرائزه الجنسية واحدث عنده حالة انتصاب . وعند ذلك شد الصبية اليه . اما ما حدث بعد ذلك فان المتهم لا يذكر شيئا بوضوح ، فعندما عاد اليه وعيه الفى نفسه جالسا على الاريكة ، بينما وقفت الصبية تبكي بين فخذيه ... ولم يصف ذهنه الا حين عاد الى شقته ...))

والذي حدث ان الطبيب استطاع اثناء ((غيبوبته)) ان يتوصل الى النشوة الجنسية عن طريق الاحتكاك بجسد الصبية. وذكر هيرشفلد ان الطبيب كان يعاني في ذلك الوقت من حالة انقباض ، وكذلك من حالة ارهاق بسبب كثرة العمل .

وقد يبدو من الوهلة الاولى ان قصة الغيبوبة ، وان التركيز على حالة الانقباض النفسي هما محاولة عرجاء لتبرير عمل واع تماما . وقد يكون ذلك صحيحا . لكن هناك عدة حقائق يجب التنبه لها ، واول هذه الحقائق هي ان وعي الانسان محدود بشكل غريب جدا . فمع ان كل الكائنات البشرية تمتلك ذاكرة قوية ، الا ان مقدار وعيها الفعلي للحياة اليومية ضئيل وباهت نسبيا . فالانسان لا يستطيع الولوج الى ما يختزنه وعيه الباطن من المعرفة والحوادث الا في حالات نادرة ،وسبب ذلك لا تعلمه الا قوانين التطور . (لقد شبهت الوعي الانساني في مكان

اخر بحصان عصبت عيناه بغمامات في طريق مزدحم بحركة السير لان كثيرا من « الادراك الواعي » لما يجري حوله سوف يلجمه عن حرية الحركة) . والكائنات البشرية تحد من مقدار وعيها عن تعمد لان انصراف الذهن الى شاغل واحد لا يتمشى مع اتساع الوعي . بل أن اغلب الناس في حاجة الى ان ينصرفوا بأذهانهم الى شاغل واحد من أجل البقاء والاستمرار . ويبدو في الغالب ان « الطبيعة » لا تبدي أي اعتراض حين يستغني الانسان عن احساس الدهشة والعجب . فهي لا تصر على ان تكون حواس الانسان متشعبة وحادة كحواس الطفل . فاذا حاول الانسان في حالة ارهاق او انقباض ان يستغني عن شهوته الجنسية، فهي قد ترتد ضده بطريقة سوف نصدمه .

ان الدافع الجنسي هو ابن الطبيعة المفضل ، ومهما تكن طاقة الانسان مثقلة بالمشاغل والمشاكل فان الدافع الجنسي لا بد من ان ينال نصيبه (١) . ومن الطريف أن نلاحظ ان كثيرا من الجرائم الجنسية التي رافقتها حالات من الغيبوبة او النزعات الجامحة العنيفة قد صدرت عن رجال كانوا يعانون من حالة اعياء او انقباض (٢) .

وينبغي علينا الا نتسرع فنرفض الادعاء القائل بأن نزوة عنيفة مباغتة تنبعث من الوعي الباطن قادرة على ان تطوع الارادة الواعية وتسخرها، اقول ينبغي علينا الا نرفض هذا القول على اعتبار انه محاولة للتملص من عواقب الفعلة . ولقد وصلنا هنا الى الحد الذي يمكننا فيه ان نطلق التعميمات التالية حول الجنس عند الانسان :

١ — ان الجنس عند الانسان كما هو عند الحيوان لــــه مظهر فزيولوجي واضح ، الا وهو توق الاعضاء التناسلية الى الوصول الـى النشوة الجنسية ، ومن ثم القذف ، الذي يشبه « رعشة » ناتجة عن تيار « كهربائي » جنسي يريد ان ينقذف الى الخارج .

٢ — ان رائحة الانثى ليست هي العامل الذي يوحد الحوافـز الجنسية عند الرجل ، مع انها قادرة طبعا على التأثير عليه . والعامل الذي يوحد ويوجه الحوافز الجنسية الانسانية هو عامل عقلــي او تصوري محض مع انه يرتبط ارتباطا قويا ، عادة ، بانفعالات شهوانية جسدية .

٣ — ان الغريزة الجنسية من دون كل الغرائز والرغبات الانسانية كلها ، هي التي تتخطى اكثر من غيرها ادراك الانسان الواعي لنفســه ولاهدافه ومطالبه . وهي اشبه ما تكون بـ « كيان منفصل » يحمله الانسان معه ولا يعيه او يفهمه في الغالب .

فرويد وجورديف :

لم يقم اي عالم نفساني او فيلسوف حتى الان بوضع نظرية جامعة حول الدوافع الجنسية . اما فرويد فقد اقتصر اسهامه في الغالب على التأكيد بأن الطاقة الجنسية الغريزية (وهي ما يسميه بالليبيدو) ، هي من أقوى واعمق النوازع الكامنة في وعي الانسان الباطن . وقد اثار هذا الرأي ضجة عامة حينما اعلنه فرويد في بداية القرن الحالي ، فقد كان القرن السابق هو عصر المثالية الاجتماعية ، وكان رجل القرن التاسع عشر يحب ان يعتقد ان اعمق نوازعه ذات طبيعة اسمى مما يدعيــه فرويد وانها تنمي على سبيل المثال الى امور ، كالثقافة والتقــدم الاجتماعي . ومنذ ذلك الحين وانسان القرن العشرين اكثر ادراكا للدافع الجنسي ، حتى انه بات « اليوم » يلمسه في معظم النشاطات التي تحفل بها حياته اليومية .

يدعي الفرويديون ان بعض الفضل في نمو الادراك الجنسي يعود الى التحليل النفساني . لكن هذا الادعاء قابل للاخذ والرد . الا ان الامر المؤكد هو انه لو لم يظهر فرويد ويؤكد غلبة الدافع الجنسي ، لكانت هذه النظرية قد ظهرت تدريجيا من تلقاء نفسها بفعل « الجــو الفكري » الذي يسود القرن العشرين .

فيلسوف واحد فقط من بين الفلاسفة المعاصرين هو الذي حاول ان يأتي بنظرية جامعة عن الجنس . هــذا الفيلسوف هــو جورج جورديف . ومع ذلك فان كتابات اتباعه تحتوي على النزر اليسير حول هذا الموضوع . وقد أعلن جورديف انه توجد في الانسان سبعة«مراكز» تتحكم باعماله وتصرفاته . هناك مركز غريزي ومركز عقلي ، ومركز عاطفي ومركز حركي (وهو الذي يتعلق بحركات الجسم) ومركز جنسي، وهناك كذلك « مركزان اعليان » . وكل مركز من هذه المراكز يعمل بطاقة مختلفة ، ومن سوء الحظ ان البشر يعمدون الى الخلط بين كافة هذه الطاقات . فهم يستعملون طاقة العاطفة لتسيير العقل ، وطاقة الغريزة لتسيير العواطف ، وطاقة العقل او العاطفة لتسيير المركز الجنسي وهكذا . والظاهر ان كل المراكز تعمد الى اختلاس الطاقة من المركز الجنسي ، وتستخدمها لاغراضها الخاصة . (ان جورديف كان سيقول بان روبرت ايروين استخدم طاقته الجنسية لتسيير عقله وعواطفه) . ثم هي تعطي المركز الجنسي مقابل ذلك طاقة عديمة النفع من عندهـا

(١) هناك قصة تؤكد هذا سمعتها من جندي اشترك في « تحرير » معتقل الماني عام ١٩٤٥ . فقد روى الجندي انه لدى « تحرير » المعتقل، انطلق المعتقلون والمعتقلات وراحوا يرتمون في احضان بعضهم البعض بشبق حيواني همجي على الرغم من حالة تشبه الجوع التي كانوا يعيشون فيها . ويبدو أن الجوع الهب شهوتهم الجنسية بدلا من ان يخمدها. وللانصاف اقول انني سمعت نفيا قاطعا لهذه القصة ، لكن النفي جاء من انسان لم يشهد او يشترك في اية عملية « تحرير » مماثلة . وبهذه المناسبة فان كرافت ابنج يقول : « ان الشهوة الجنسية عند المسلولين تكون قوية بصورة غير عادية » .

(٢) راجع على سبيل المثال قضية روبرت ايروين الواردة في كتاب « قاعة المحكمة » Courtroom تأليف كوينتن رينولدز ، وكتاب « عرض للعنف » Show of Violence تأليف فردريك ورثام، وكذلك في كتابي « عصر التخاذل » . لقد حاول ايروين بالفعل ان يبتر عضوه التناسلي لكي يحتفظ بكامل قواه وطاقته لممارسة تمرين للمخيلة اسماه « التصور الذهني » وقد قام ايروين بعد ذلك بثلاث جرائم قتل بسبب الغيرة .

بحيث يضطر هذا المركز في كثير من الاحيان الى ان يعمل بطاقة العاطفة او حتى بطاقة العقل . وقد قال جوردييف لاوسبنسكي يوما : « انه لشيء عظيم جدا ان يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة . »

وقد تبدو هذه الملاحظات حول « المراكز » غير علمية على الاطلاق بالنسبة لبعض القراء ، والواقع ان جوردييف لم يحاول ان يضع نظاما فلسفيا فحسب بل حاول كذلك ان يخلق ديانة جديدة ، لها شعائر ورقصات خاصة (وهي تكون جزءا هاما من « نظامه » هذا) ولها كذلك نصوص شبه مثولوجية لا يقبلها معظم الناس بسهولة . وليس هناك اي « دليل علمي » فيما يتعلق بوجود مثل هذه « المراكز » . ومع ذلك فسواء اصح ما يقوله جوردييف عنها عموما ام لا ، فان احدا لا يستطيع ان ينفي ان هناك بعض الحقيقة في قوله « انه لشيء عظيم جدا ان يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة » وهذا القول على الاقل ، يتطلب تأملا دقيقا (١) .

وليس باستطاعة من قرأ رواية « عشيق الليدي شاترلي » ان يشك في ان احد الدوافع التي حدت بلورنس ان يكتب روايته هذه ، هو احساسه بالنقص الاجتماعي ، وانه كان يتمثل نفسه في مكان الحارس الذي يضاجع سيدة ارستقراطية تحمل لقب « ليدي » . وهذه المشاعر الاجتماعية ليست عاطفية فحسب ولكنها فوق ذلك عاطفية بطريقة سلبية (يعلن جوردييف ان العواطف السلبية مثل الخوف والكراهية والاشمئزاز عديمة النفع تماما بالنسبة « للجهاز الانساني » وانها مجرد نفايات) .

وبالنتيجة فان العاطفة الجنسية في رواية لورنس ليست خالصة وصرفة . وبالطريقة ذاتها فان كل من يقرأ مذكرات كازانوفا لا بد ان يحس كذلك بأن دوافعه ليست جنسية صرفة . فعلى الرغم من كونه كاتبا رائعا فان كازانوفا يظهر بمظهر الرجل الضعيف المغرور الذي يعنى في الغالب بما يخلفه من اثر في نفوس الاخرين . وبالتالي فانه من الصعب ان نصدق ان طاقة المركز الجنسي هي وحدها التي دفعته الى الغواية . ويبدو ان ما دفعه الى ذلك كان نوعا من حب النفوذ والسيطرة لاقناع نفسه باهميته الشخصية (١) .

هكسلي والجنس :

هل توجد هناك امثلة في الادب على المركز الجنسي الذي يعمل بطاقته الخاصة ؟ ليس هناك مثال واحد على ما اعرف . وقد يكون سبب ذلك ان الذين كتبوا عن الجنس خلطوا بينه وبين طاقة العقل او طاقة العاطفة . والطاقات الجنسية الحقيقية تكون دائرة كهربائية مقفلة . والرجل الذي خبر هذه « الدائرة » لا يحس بأي دافع للكتابة عنه، مع ان هناك عددا قليلا من الامثلة التي يبدو وكأنها اقتربت من وصف المركز الجنسي حين يعمل بطاقته الخاصة ، وبعض هذه الامثلة موجودة في كتابات الدوس هكسلي . فروايته « انتيك هاي » Antic Hay مثلا تدور في الغالب حول مواقف جنسية غير صادقة وغير اصيلة ، ومواقف وضيعة من اللاتمييز ، ولا هي بمجدية ولا بمرضية .

لكن هناك بالمقارنة موقفا جنسيا واحدا كامل الارضاء :

كان جمبريل على علاقة بفتاة يحبها اسمها اميلي . وذات ليلة وبعد حفل موسيقي احسا بعده بنشوة عاطفية تطهرانهما ، اقتاد جمبريل حبيبته الى الفراش :

« وبرقة متناهية ، راح يضم اليه كتفها ثم ذراعها النحيل الطويل، بينما راحت اطراف اصابعه تمر برفق وببطء رائع على جلدها الناعم الاملس ، وتنسل ببطء من جيدها الى كتفها ثم تتلكأ عند مرفقها وتعود

ـ التتمة على الصفحة ٥٩ ـ

(١) يتضمن كتابي « اللامنتمي » موجزا قصيرا عن اراء جوردييف . اما كتاب « دراسة في تعاليم جوردييف » فهو افضل مرجع عن هذا الموضوع .

(١) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .



على حفنة الرمل تنشف هذي الرياح ،
ومن حفنة الرمل يزهر ليل المدينه ،
ونحن نطوف بقايا نواح
نذرذر ليل السكينه
نسائل عن نجمة ، عن اثر ،
على الرمل ، عن مرفأ يستباح
لترسو عليه سفائن وجد حزينه
ليعمل منه الفجر ،
خيوط انتظار ليوم السفر

* * *

لان بيادرنا ما اطاف الخضار
عليها ، ولا أزهرت في تلال الصنوبر
مطارح وجد ، مضغنا الدروب
ونحن نقول ستزهر
لان الاماني انتظار
وجوع الى حفنة من رجاء ،
أتينا وما من صباح
نشد عليه الاضالع ، ما من مساء
نساهر فيه الهوى والرياح ..

* * *

سنبقى نجوب السنين اشتياقا وحبا
غناء يمد الى الله وربا ،
ليندى علينا من النور دفء وطيبه
ويلثم منا الوجوه الكئيبه
ويمسح عنها اغتراب الحياه ..

* * *

الى الغد نحمل زهر التمني ،
ونحرق الذكريات
وفي خضرة القلب والوجه نبقى ،
نلامس خفق الشراع ونبكي غداة السفر
فأواه ياريح لو تحملين
بقية شوق . وذكرى حنين
واواه لو تمرحين
عن المتعبين
عذاب القدر .

محمد اسماعيل الاسعد

حمدون القصّار

يا ويلي من نهر الليل
ينفجر رمادا دمويا في شريان العالم
ينسكب خلال حدائقه الجرداء
ويدس الطمى القاتل في رحم الاحياء
ينحدر فيهدم كل جدار قائم
ويقيم الموتى ، ينشرهم في وجه الارض بلا اكفان.
والويل الويل الويل
من شجر ينبت في النيران
ويعشش فيه البوم الاخضر والغربان
ويحط عليه سحاب النمل .

***

في ملقى طرقات العالم كانت بائعة التفاح
وجها قمريا ، صوتا مخمور الايقاع
يتلبد في ظلم الاسماع
ويفجر في ابناء الارض ينابيعا دمويه
يتراكض في ظلمات الصدر خيولا شهويه
فتحمحم ، تغرس حافرها المشتعل بغور القلب
وتميد سقوف شربت مطر الصمت ،
وتغطت بالاقمار
فتحط شموس الرعب
ويفيض النهر ويرمي فوق الجسر زهور الموت .

***

ابناء العالم يرتعشون
يتلهب فيهم ظمأ مجنون
يتكسر فيهم جوع مسنون
فيفر الجيل وراء الجيل ويندفعون الى التيار
يسقيهم نهر الموت ويطعمهم شجر الزقوم
ويسيل عصير العالم في الثدي المسموم ،
يندفق خلال عروق الطفل فيهرم في شفتيه الشعر ،
ينعقد ثمارا جبليه
تنفجر حلاوتها في قلب البشم الضاحك والمحروم
فيفتت وجه العالم ليل يركض في عينيه نهار .

***

هذا الانسان الثرثار
مجدور الوجه ثقيل الشفتين
يتحدث منه دثار فوق دثار
فتقول عباءته خطبا ومواعظ كونيه
تتفجر منه المزق التحتيه
ثرثرة ملأى بالاخطاء النحويه
وانا مطروح تجرف قلبي النار ..

***

تجرفني النار
يتهزم صوت في الاغوار
يطردني عبر مهالك نفس ، يدخل بي مملكة الصمت
يسلخني مني ، يتركني عريانا تحت الريح
يكشفني عني ، يفضح ما قدمت وما ابقيت
فتجف دمائي رعبا من شارات العار
واواري وجهي ... كم قضيت زماني في الاسفار
متكشف العورة تحت الشمس !!
فاكلت رغيف الصدقة ، واستلقيت على ارصفة المقت
والويل الويل الويل
لو خانت جسدي العاري عين الليل
فانسكبت روحي – عبر الجرح – رمادا لا يخضر
ولا تحمله الريح ..

***

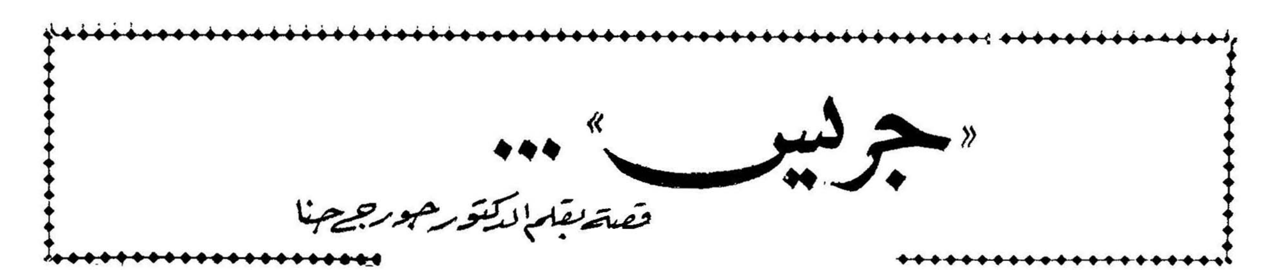
سأجيء اليكم عبر مهالك نفسي في اردية الليل
منهزما ، في عيني الدمعة والتغريبه ،
مطرحا جسدي في الاسواق ، ومغتسلا في
مطر الكمد الاعلى والنسيان
ساجوع لاشبع صمتا ، سوف امزق
حنجرتي كي تهجرني لغة الانسان
وانام لكي تعرفني النار ..

***

يا ابنائي
كسرتني تحت سنابكها نفسي الامارة بالاشعار
فضحتني شمس العصر الاقتم يا ابنائي
وتخبط قلبي في اللغة الانسيه
يا ابائي
لو حملت اوجهكم لوني ،
او غمغم صوتي الاجرب في معزفكم بالموسيقى
فاطرحوا جسدي تحت سقيفة هذا العالم كي ينهار ..

القاهرة — **محمد عفيفي مطر**

(*) حمدون القصار ، هو ابو صالح حمدون بن احمد ابن عمارة النيسابوري ، ثاني مؤسسي مذهب الملامتية في التصوف الاسلامي ، توفي سنة ٢٧١هـ .



«جريس» ...

قصة بقلم الدكتور جورج حنا

كان اسمه الحقيقي جرجس عازر .. وهو ينتمي الى عائلة كبيره ومحترمه .. فيها شبان وشابات اكثر علما من سائر عيل الضيعة .. وكانت مختارية الضيعة نادراً ما تعطى لغير هذه العائلة .. وكان الكاهن كذلك منها .. واذا قدم القرية قائمقام او مدير ناحيه او ضابط كبير، كان ينزل في ضيافة احد كبارها .. وكان المرشحون للانتخابات البلدية او النيابية ، يطلبون رضاها عليهم ، ويزورونها بيتا بيتا .

كان اهل القرية ينادونه « جريس الاخوت » .. مع انـــه ليس مجنونا كسائر المجانين . فهو لا يضرب ، ولا يقتل ، ولا يعربد ، ولا يخوف احدا .. ولكنه غريب الاطوار كل الغرابة .. اذا كلمه احد ، لا يرد عليه ، واذا رد ، ينبر فيه نبرا ، بجرس كجرس الضبع .. ثم يطلق ضحكة مجلجلة ، ويدير له ظهره ، وهـــو يردد معـزوفة خاصة « تره لم تره لم تره لم » .

**

كانت سنه حوالي الاربعين حين عرفته ، ما خرج يوما من ضيعته .. قدمه لم تطأ فسحة خارج حدود بشامون (اسم الضيعة) .. يلفها من اولها الى اخرها عشية كل يوم .. ويدخل بيوت اهلها واحدا واحدا كأنه منهم .. الرجال يمازحونه ، والنساء لا يتحجبن عنه .. يدخل املاك القرويين ، ويقطف منها ما يحلو له .. يحبه الجميع لانه لا يضر احــدا .

كان « جريس » يسكن غرفة جانبية في بيت ورثته اسرته ابا عن جد في « حارة التحتا » .. يقوم مع الفجر ، فيخطف لقمة من معجن البيت ، ويمشي الى ساحة العين ، في « حارة الفوقا » .. رأسه الى الارض ، لا يتطلع لا الى اليمين ولا الى الشمال .. وكان اذ يصل الى الساحة ، يذهب توا الى دكان الشيخ بو علي .. ويصبحه بالخير .. ويتقوقع القرفصاء على دكة امام الدكان .. ويطبق فمه حتى غروب الشمس ـ موعد لفه على البيوت ـ الا على معزوفته الخاصة « تره لم تره لم تره لم » .

**

عندما كنت اذهب الى بشامون (في صغري كنت اتردد عليها مرة كل شهر على الاقل ، وامضي فيها اياماً ما تزال حلاوتها تحت اضراسي كما يقول المثل ، بسبب من محبتي لها ولاهلها ، الاتية من محبتي لابنتها امي) كان جريس اول من يقع عليه نظري ، مقوقعا امام دكان الشيـخ بو علي ، على مدخل الضيعة .. عيناه الى الارض ، كما لو كان غارقا في تفكير عميق .. يلبس سروالا فضفاضا ومرتقا كان بالماضي ازرق اللون .. على رأسه طربوش مجعد وبدون شرابة .. صدرته مفتوحة على وسعها تكشف عن صدر صلب صلابة الحجر ، ومكثف الشعر الموشى بخيوط بدأ فيها الشيب .. لا تزرر صدرته ـ بل ليس فيها ازرار ـ لا فرق اكانت الدنيا صيفا ام شتاء ، فلا وهج الشمس يؤثر فيه ، ولا برد الشتاء يكزبر جلده المنحسة .. يشرحط مداسه المشقوق من الامام من كثرة لبيطه حجارة الطريق .. يلف سيجارة وراء سيجارة من ارخص انواع التبغ ، وينفث دخانها الاسود كدخان « المتساحر » .. اذا صبحه احد ، وخطر له ان يرد عليه ، جاء رده همدرة كهمدرة الضبع .. ثم يعقبه بمعزوفته الخاصة « تره لم تره لم تره لم » . الانسان الوحيد الذي يرد عليك « صباحك بالخير » هو صاحب الدكان الشيخ بو علي .

**

كان جريس في طريقه الى ساحة العين ، مر على الجنائن ويقطف ما تصل اليه يده من ازهار ، من كل لون الا اللون الاصفر ، لانه يتطاير شرا من اللون الاصفر ، وهذه احدى غرائب اطواره .. احب الازهار اليه ، الوردة الحمراء ، فاذا وجدها ، يقطف كل ما يجده منهـا في الجنينة المكوبة به . ثم يحمل باقته العزيزة الى الساحة ، ويلوح بها كلما مرت امامه صبية .. شافعا تلويحه بمعزوفته « تره لم تره لم تره لم » .. تفنيها غناء لكي يلفت نظر الصبية . وكان جريس لا يرفع نظره عن الارض الا عندما تزدحم ساحة العين بالنساء، الحاملاتجرارهن لتملأنها من مياه العين .. اذ يمتع نفسه ، الجائعة الى الحسن ، « بالبصبصة » عليهن . انه يحب الصبايا والصبايا يشفقن عليه .. ولا يبخلن عليه ببسمات بريئة .. يشفعنها احيانا بكلمة حلوة ، لتطيب القلب المحتاج الى ان يطيبه احد .

غير ان شأن الصبية عكس شأن الصبايا .

كان الصبية العفاريت ، يهزأون به ، ويلاحقونه بـ « يا اخوت يا اخوت » .. ويرشقونه بالبحص .. فيهمدر بهم ، ولكن لا يخانقهم ، ولا يأتي ما يؤذيهم .. واذا اصابه احد « بنقفة » بحصة ، يلجأ الى داخل دكان الشيخ بو علي ، ويحتمي فيه .. فيقوم صديقه الشيخ ، ويهول بعصاه على الصبية الارذال ، ويفرقهم عن هذا الانسان المسكين، الذي لا يعطف عليه احد غيره .. ثم يعود ويطيب خاطره بكلمات لا اعذب ولا احن .. ويناوله كم حبة ملبس ، او كمشة قضامي ، او شيئا اخر من موجودات الدكان .. وفي حالة اصابته بجرح او خدش ، يضمد جرحه بالسبيرتو والقطن ، ويبقيه داخل الدكان ، الى ان يتفرق الصبية الارذال .

**

كان صاحب الدكان الشيخ بو علي ، من اهل التقى ، واحد كبار اجاويد دروز الضيعة .. سنه حوالي السبعين ، وعليه كل علائم الطيبة والوقار .. لحيته البيضاء كالثلج تزيده مهابة .. في حياته الشيخية، ما لفظ كلمة سوء باحد .. ترمل قبل سنتين ، دون ان ينجب اولادا، فاحب ابناء اهل القرية كلهم .. بعد موت من كانت له اوفى زوجة ، تهدل جسمه ، وشح نظره ، وضعف قلبه .. احدودب ظهره كما لو كان ابن تسعين .. ولكنه كان يأبى الاعتكاف في البيت .. فيقوم مع الفجر ، ويمشي رأسا الى دكانه ، كما تعود منذ خمسين سنة.. اشتغاله في الدكان من قبل تقطيع الوقت ، والهروب من الوحدة التي يعيشها في البيت .

ودكان الشيخ بو علي لا يحوي الا اشياء قليلة .. كيس طحين ، وكيس عدس ، وكم علبة ملبس ، وما الى ذلك من مواد ، ليس فيها ما يعطب ، ولا اثمانها تغني . على ان الشيخ الطيب ، كان يحرص على ان يكون عنده حفنة تبغ ، ليس برسم البيع ، بل ليؤمن لصديقه المسكين، ما ليس له عنه غنى . الشيخ بو علي لا يدخن،شأنه شأن كل الاجاويد.. واذا جاءه شار يشتري تبغا ، يستعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لحسبانه ان التدخين من المحرمات ، وبيعه من المنكرات . ولكن من شدة عطفه على جريس ، لا يطيق ان يحرمه من اللذة الوحيدة ، التي يتلذذ بها ، انسان محروم من ملذات الدنيا كلها .

**

لم يكن جريس يرى من يعامله معاملة انسان غير الشيخ بو علي. اذا صدف وتاخر عن المجيء الى الدكان في الصباح ، يسبقه جريس ،

ويتقوقع على عتبة الباب كالكلب الحارس .. الويل لمن يقترب من الدكان قبل وصول صاحبه الشيخ .. واذ يجيء بو علي ، ويفتح الدكان ، يربت على كنف هذا الحارس ، ويبتسم له ابتسامة المحبة ، ويناوله شيئا من موجودات الدكان .. يلتهمه جريس ويهجم على يد الشيخ ، وبوسعها تقبيلا .

**

جاء جريس ذات صباح الى ساحة العين ، كعادته كل صباح ، وتقوقع على عتبة الدكان بانتظار صديقه الشيخ بو علي .. فسمع من يقول ان الشيخ توفي فجأة في الليل .. فذعر جريس ، وكأن صاعقة نزلت عليه .. وهب هبوب الريح باتجاه بيت الشيخ بو علي القريب من الدكان . واذ دخل البيت ، ورأى الشيخ ممددا لا حراك فيه، طفق يبكي ويلطم رأسه وصدره بكلتا يديه .. وجعل يدافع الجماهير حول الجثمان .. وركع .. واخذ يقبل المسجى ، في وجهه ، ويديه ، ورجليه. وجعلت النسوة حول الجثمان يبكين لبكاء هذا « الابله » الذي ما ظن احد ، ان عنده مثل هذا الشعور .. وتوقفت النادبات عن الندب مشدوهات من منظر هذا الرجل المسكين المكسور القلب .

بقي جريس راكعا امام الجثمان ساعة كاملة ، دون ان يرفع نظره عن الوجه البارد ، كأن ليس حول الجثمان احد سواه .. لم يتلفت لا الى اليمين ولا الى اليسار .. وغاب عنه وجود النساء المحتشدات في غرفة الميت .. وهو من كانت لا تمر امامه امرأة الا ويأكلها بعينيه .

غير انه فطن ، ان غيابه عن دكان صديقه الشيخ بو علي ، قد يسول لاحد محاولة الاقدام على سرقة شيء منه .. فقام من ركعته، واسرع الى الدكان ، وتقوقع على عتبة الباب ، وهو يجهش بالبكاء .

كان بكاء جريس على صديقه الشيخ بو علي ، اول ما عرفت الدمعة طريقها من عينيه .

**

وعندما حل موعد تشييع الجنازة الى المقر الاخير .. عاد جريس الى بيت صديقه الشيخ ، حيث كان كل اهل الضيعة متجمهرين لمرافقة الجنازة . ان الشيخ بو علي محترم من الجميع ، وله مكانته المرموقة في القرية وجميع القرى المجاورة .. ومأتمه يجب ان يكون بمستوى مقامه . هذا فضلا عن ان في هذه الضيعة كما في سائر الضيع الجبلية، للموت حرمة ، لا يعرفها اهل المدن .

جعل جريس يدافع الجماهير ، ليصل الى حيث يسجى الفقيد. وعبثا حاولت الجماهير صده عن الوصول الى الجثمان . فكلما امسك به احد ليرده الى الوراء ، يحملق به كالثور الهائج ، ويشق طريقه بين الصفوف المتراصة ، ليودع من هو في عينه كل الدنيا ، الوداع الاخير، ويسجيه في المحمل بيديه هو . ان من حقه اكثر من غيره ، ان يسجي صديقه على محمل الموتى .. وهو لن يتنازل عن حقه هذا لاحد .. وهو هو من سيحمل المحمل على كتفه ، من البيت الى القبر .

**

جرت العادة في القرية – كما في غيرها – ان يحمل الميت الى قبره ، شبان من طائفته دون سواهم ، لا سيما اذا كان الميت احد كبار اجاويد الطائفة .. تقليد متوارث جيلا بعد جيل ، يحترمه القرويون (على بلادته) رغم تعاطفهم بعضهم مع بعض ، ومشاركتهم الافراح والاحزان . على ان جريس ابى بعناد الرضوخ لهذه العادة .. لغيره ان يتمسك بالتقاليد ويحترمها .. اما هو فلا يعرفها ولا يهمه امرها . واذ حاول بعضهم ازاحته من الطريق ، زمجر بهم زمجرة الذئب الكاسر .. وكادت تحصل معركة بينه وبين هذا البعض .. لو لم يتدخل احد كبار « العقال » ويرد المتهوسين عن بطل الساحة . كان لهذا الشيخ الجليل، المتفهم اكثر من غيره بلادة هذه العادة ، وضرورة اقتلاعها – رغم براءتها – الفضل في نجاة جريس الاخوت من ايدي الشبان المتهوسين، وتسوية الامر ، على ما يرضي الاخوت المستفرس .. كما كان له الفضل ، في مسخ هذه الظاهرة ، المتوارثة جيلا عن جيل .. اذ هو وجد مناسبة طالما راودته من قبل ، لجعل « خونتة » اخوت ، امثولة لمسخها ، كظاهرة من ظاهرات التفريق بين ابناء الوطن الواحد ، والقرية الواحدة .

**

ومن بيت الفقيد الشيخ بو علي الى القبر – مسافة كيلومتر واكثر – القى جريس على كتفيه مقدمة المحمل .. وابى ان يشاركه ، او يناوبه الحمل احد . انها اخر رفقة بينه وبين اعز الناس اليه . وهو لا يقبل ان يفوت عليه احد ، ولو دقيقة واحدة من هذه الرفقة .

**

واذ وصلت الجنازة الى المدفن ، في خارج الضيعة ، وسط غابة زيتون .. وضع المحمل على الارض . وشرع المشايخ الاجاويد في الصلاة على الجثمان صلاة الموت . فوقف جريس خاشعا وكاشف الرأس ، خشوع من عقله يزن قناطير .. عيناه شاخصتان الى الارض ، والدموع تهطل من عينيه .. حتى اذا ما انهى الاجاويد الصلاة ، اسرع من حيث كان واقفا ، الى المحمل ، وامسك بيديه الخشوشنتين ، كتفي صديقه الشيخ الميت .. ومشى به الى داخل بيته الاخير .. وهو يجهش بالبكاء كالطفل .

**

وعاد جريس ، محني الظهر ، كأنه في يوم واحد ، قطع عشرين سنة من عمره . وذهب توا الى دكان صديقه الشيخ بو علي .. وتقوقع على عتبة الباب ، كما لو كان صديقه الشيخ لم يمت .

ولاول مرة ، امضى جريس يوما كاملا ، دون ان يردد معزوفته الخاصة « تره لم نره لم تره لم » .

جورج حنا

ثلاث قصائد لفلسطين

ـ ١ ـ

ويكرزون بالبشاره
وهم في عشائه الاخير
وقبل ان يسير
مجرجرا صليبه على طريق الشوك والحجاره
تحلقوا عليه
واقسموا بانهم قد آمنوا به واسلموا اليه
وعاهدوه
لكنهم تثاقلت عيونهم وناموا
وخلفوه
ووحده اكتأب
وعاقر الكأس التي يعافها
احس برد الموت في دمه
وشال طعم الحزن في فمه
وقبل ان يلوح فجر
واحد وشى به
وواحد انكره
والاخرون فروا.

ـ ٢ ـ

هابيل على كتفي ما اثقله
هم قتلوه ولكنني انا أحمله
واجوب بجثته الطرقات
واولول اندب اصرخ هابيل مات
هابيل يا حزني يا قدري الاسود
لم اقتلك ولم اهو على رأسك بالحجر الجلمد
لم افعل ما يفعله الطير بجثمان اخيه
اعوام وانا اضرب في التيه
وانت على كتفي كاللعنه
كالأفعى تتمدد جثتك العفنه
كم عام مر وانت قتيل
نتنت جثتك وجف دمك
وتساقط لحمك يا هابيل
يا ويلي لو حاولت الرفض
لو ترت على قدري ونبشت الارض
كيّ القيك
تتشبث بي جثتك المهترئه
تنشب في عنقي الاظفار
وتدمدم يا للعار
تلقيني وتفر
من لي غيرك
لا تقوى لا تجسر اكتاف الغير
على حملي لو خطوات

ـ ٣ ـ

ايوب استوفى الوعد
وقضى المكتوب عليه
ان يقتات الدود يديه
ان يشرب عينيه
ان تلقى جثته فوق الشاطىء وعدا للغربان
وعصابات الطير
يا ايوب الخير
ابدا لا تتمرد لا تقنط لا تغضب
نخل الدود اللحم وانشب في العظم المخلب
وجنين الصبر باعماقك شاخ احدودب
وتقيح حتى رمل الشاطىء تحتك يا ايوب
حتى الريح على صهوات الموج تلوب
من عفن جروحك
تتساءل ماذا بعد
استوفى ايوب الوعد
وقضي المكتوب

غزة
عبد الكريم السبعاوي

التوابيت ...

مسرحية من فصل واحد

بقلم : نديم خشفه

«الى الذين دفنوا انفسهم في توابيت الاحلام ، واصم آذانهم صخب الافكار ، واستعبدهم التأمل حتى صرفهم عن العمل .. الى العبيد الداجنين ، ذوي النبرات المهذبة ، والعقول الراجحة . » ...

★ الاشخاص ★

هارون
عـزرا
شمعون
صموئيل
الفتى ــ ميلاده ١٩٤٨
قافله عبيد .. بدوي .. وآخرون
راشد
سليمان
مسعد
يعقوب

المنظر

(هيكل سيارة قديمة ، انغرس في الارض ونبتت من حوله الاعشاب . نوافذه مغطاة بالقنب . وقد اجريت عليه بعض التعديلات بحيث يكون مسكنا .

من بعيد : تلال رملية واشجار الصبير الشوكي .. عن يسار المسرح اطار باب وهمي ..) ..

هارون ــ هذه بلطة .. انظر الى حدها .. جارح . وهي ثقيلة وواثقة من نفسها . حسنا .. وهذه كرة الاسفنج ، تبدو امامها خائفة ترتعش . ولكن هل تستطيع أن تقسم كرة الاسفنج بضربة بلطة ؟

الفتى ــ استطيع.. ان البلطة حادة والكرة ليست اكثر من كرة.. (يحمل البلطة) .

هارون ــ حسنا .. حاول وسوف نرى ان الكرة تنط حول ذقنك وربما اصابت انفك ..

الفتى ــ سوف ترى انها لن تحتمل سوى ضربة واحدة .. هوب. (يخطئها ويصيب صحن حساء .. استهزاء) .

هارون ــ أرأيت يا بني ؟ المرونة والتواضع .. هذا ما نحن عليه معشر اليهود .. نعرف اين نضع انفسنا . لان من جلس في الصدر يزحزح عنه حتى يجد نفسه في العتبة ، لذلك نجلس في العتبة فلا ينافسنا عليها احد . وماذا تفعل الكبرياء ؟ اذا رفعت انفك وابرزت صدرك طمع بك النشالون ورجال الكنيسة ، وربما خطفك نخاس فخصاك وجعلك حارسا في حاشية امير .

الفتى ــ اذا اعتاد ظهري على الانحناء فلن يستقيم بعد ذلك ..

هارون ــ تماما .. هذا ما اريده لك .. ان ينحني ظهرك حتى يصبح الانحناء طبيعة فيه . يجب ان تشعر بأنك من الطبقة الاولى .

الفتى ــ وهل الطبقة الاولى ملتصقة بالارض هذا الالتصاق ؟!

هارون ــ اريدك ان تصبح من خميرة الارض . نحن نحمل الطبقات الاخرى فوقنا .. انها تمرح هازئة بنا ولكنها تزول في عنوان غرورها . ان الذي يشهد تعاقب العروش هو المالك الحقيقي لها ، اما الاخرون فمسوخ يهرجون امامه ساعة ثم يخلون الساحة لمسوخ اخرين .

الفتى ــ اراهم احتلوا الساحة وحرمونا حتى من متعة الفرجة عليهم .

هارون ــ ذلك لانا اردنا ان نهرج مثلهم ..

الفتى ــ هل خلقنا لنكون من الطبقة الاولى كما تدعوها .. الطبقة التي لبدتها الاقدام ؟! ..

عزرا ــ لا ترفع صوتك في وجه هارون يا بني واستمع الى نصائحه .. انه يعطيك خلاصة خصائص عرفنا .. لقد رفعنا رأسنا اكثر مما ينبغي ، فانظر ماذا حل بنا ...

الفتى ــ ... افاقون ، ليس لديهم قوت يوم ، نصبوا خيامهم على الطريق ..

هارون ــ السباع تحمل طعامها حيث تسير ..

عزرا ــ هذا رجل قادم دعونا نرى ما يحمل لنا ...

الفتى ــ ان ما يحمله له ولكنه يتصدق علينا .

عزرا ــ يا بني .. المال مال يهوه ، والطعام طعام يهوه ، وانما الناس وسطاء بعضهم لبعض ..

(بدوي يحمل متاعه على كتفه ويتوكأ على عصا)

هارون ــ افتح عينيك جيدا وارقب ما يفعله عزرا فانه تلميذي وتربية يدي ..

عزرا ــ سلمت ايها العربي وغنمت ..

العربي ــ سلمت ودمت .. ما تريد ؟

عزرا ــ قد تعلم رقة حالنا ، ونحن جيرانكم ، والجار بعض العيال اذا لم تكفه لحق بك عار سؤاله .

العربي ــ اسمع انت هناك .. ان للطير وكنات ، وللوحوش كهوف وللحشرات جحور ، وانتم نصبتم بيوتكم على الطريق واعترضتم باكفكم الممتدة كل عابر .

عزرا ــ قد كان لنا وكر ولكن طردنا منه . جاءنا الغزو كالسيل فاحتملنا ورمى بنا الى حافة الطريق .

العربي ــ فهلا صبرت له أو مت ــ ويحك ــ في عبابه ؟!

عزرا ــ يا اخانا ... ما كل الناس معجب بالموت .. وانت وامثالك بديل لنا من البيت والثروة .

العربي ــ ولكن الطريق الى مكة طويلة ، وزادي قليل ..

عزرا ــ لا اطلب منك شيئا آكله ، ان لدينا زادا يكفي ، ولكن رأيت عليك سيما الحجاج فقلت آخذ منك شيئا اتبرك به .

العربي ــ (يرمي اليه بالصرة) خذها بارك الله لك فيها ..

عزرا ــ لا اريد منها الا ما لا يفسد على الزمن .

العربي ــ فيها ثوبان وشيء من التمر .

عزرا ــ اما الثوبان فاقبلهما والتمر آكله فقد قيل : ان تمر الحاج شفاء للداء .

العربي ــ نطقت بالصدق .. هيا .. (يبتعد) .

عزرا ــ حين ترجع فاجعل طريقك من هنا .. (يضحكون) ولا تنس ان تتحفنا ببركاتك .

هارون ــ هكذا ... سلبه متاعه وهو راض . ارأيت ما تفعل الكبرياء ؟ بضع كلمات تنفخ بها رأسه كالزق فيتخلى لك عما تحب .

(موسيقى عسكرية . الفتى يغيب لحظة ثم يعود)

الفتى ــ جاء الرجل العجوز يسأل عنك مرة ثانية ..

هارون ــ (منزعجا) ماذا يريد ؟ الم تقل له اني لست هنا ؟

الفتى ــ قلت له ولكنه اصر ان يراك ..

هارون ــ عجيب وحق يهوه . حين اخرج اليه اكلمه فلا ينطق بشيء . ينظر الي صامتا . لا ادري ما يريد مني !!

الفتى ــ لكنه يبدو شديد الكبرياء . لقد ابى ان يشرب حليبا

قدمته له . وابى ان يجلس او يترجل .

عزرا ـ عجيب وحق يهوه ، امر هذا الفارس ، انه مزعج .. الا تراه مزعجا يا هارون ؟

هارون ـ والذي يشق انه يجد نفسه فتيا مع انه جاوز الاربعة الالاف سنة ، عجوز في مثل سنه ؟! .. كان يجب ان يخجل من نفسه ويدع الاعيب الصبية .

الفتى ـ ان له حصانا رائعا .. لو رأيت غرته . وعليه دروع تلمع في الشمس .

عزرا ـ مهرج في ثياب براقة . كان يجب ان يموت من زمان بعيد.

هارون ـ لن يكف عن لعبه حتى يموت في تلك الدروع السخيفة.

عزرا ـ اخرج اليه واقنعه بأن يحل عنا ..

هارون ـ (خائفا) ولكن .. ماذا .. يريد مني ؟

عزرا ـ لا ادري .. اخرج اليه ..

هارون ـ اذهب انت عني ..

عزرا ـ لا احب ان اراه .. ثم انه لم يسأل عني .. لقد طلبك انت .

هارون ـ هذا العجوز المزعج !!

الفتى ـ ولكني اراه شيخا طيبا .. انه شيخ ويرتدي ثياب الفرسان..

هارون ـ انا اكره الفرسان ، وخاصة اذا كانوا شيوخا ..

(يصرخان)

عزرا ـ اذهب عنا .. حل عنا ..

هارون ـ اوف .. ارحل من هنا .. لا نريدك .

الفتى ـ (ينظر من الباب ويعود) لقد ذهب ولكنه ترك بطاقته.. عليها عنوانه .. (يقدم له البطاقة) .

هارون ـ ابعدها عن وجهي.. لا اريد ان اعرف اسمه ولا عنوانه..

عزرا ـ شيء مزعج وحق يهوه .. دفناه بايدينا واهلنا فوق وجهه التراب ، وقلنا : خلصنا منه . فلا يذوق ويموت بسلام ، ولكن يأتينا فوق حصان وعليه دروع لامعة ايضا .

هارون ـ بعض الناس لا يعرفون كيف يحيون ، وبعضهم لا يعرفون كيف يموتون .

الفتى ـ ولكنه شيخ نبيل رغم كل شيء ..

عزرا ـ دعنا من العجوز .. انظروا هذه قافلة تحمل عبيدا .

هارون ـ لا بد انها آتية من افريقيا محملة بالعاج ..

عزرا ـ والطيب .. والحرير ..

هارون ـ هيا يا بني ارنا كيف تشحذ العاج ..

عزرا ـ لقد حملوه الاف الاميال ، وحرسوه من قطاع الطرق والشرطة وجاؤوا به الينا ..

هارون ـ اتخذ للامر عدته .. احن ظهرك ، واقلب وجهك حتى يكون مثل الكمبيالة المستحقة . ولا تظهر لهم طمعك فيما يحملون ..

عزرا ـ وسوف اعينك عليهم فلا تتردد .

الفتى ـ لن اشحذ شيئا ..

هارون ـ اوف .. دع عنك هذه الكبرياء .. انه عاج افريقيا ونحن اولى الناس به .

عزرا ـ والطيب .. لقد آن لك ان تغير رائحة السمك التي تنبعث من ثيابك .

هارون ـ لقد اقتربوا فأرني ما تصنع .

(يدخل التاجر واتباعه يقودون العبيد بالسلاسل)

عزرا ـ اهلا بشيخ التجار ، وسيد افريقيا ، ومن دانت له ملوك الزنج بالطاعة ..

التاجر ـ ما تريد ؟ ليس عندي لك هذه المرة شيء .

عزرا ـ ومن قال اني اريد منك شيئا ؟ ولكن لدي غلام اريد ان ينشأ على طاعتك وتعلمه الصناعة .

التاجر ـ واين هو ؟

(يدفع الفتى بين يديه)

عزرا ـ اني اهبه لك . اقرنه بالسلاسل اذا شئت ولكن اريده ان يتعلم مهنة يعيش بها .

التاجر ـ يبدو انك عجزت عن طعامه فاردت ان اعلفه لك ؟!

الفتى ـ لدينا ما يكفي من الطعام ولا حاجة لي بطعامك ولا صناعتك .

عزرا ـ ارأيت وقاحته يا سيدي ؟ ..

التاجر ـ وقح والله .. سوف العب السوط بين كتفيه حتى تصبح نفسه كالتراب .

عزرا ـ سلمت يداك . هذا ما اريده . ولكن لماذا تتعب نفسك في ضربه ؟ وكل به احد اتباعك يجلده كل يوم مئة سوط .

هارون ـ وخير من هذا .. اقرنه بسلسلة مع احد عبيدك فينشأ معه ويتعلم طباعه .

التاجر ـ هذا والله الرأي .. يا « عنبس » ! اقرن هذا الفتى باطوع عبيدنا ..

(يصفد الفتى بسلسلة مع احد العبيد وهو يمانع)

هارون ـ ولا تعفه من الخدمة يا سيد التجار ، حمله صندوقا يكسر ظهره ، وضع حول رقبته نابي فيل يلويانها الى الارض .

التاجر ـ يا « عنبس » ! ضع على كاهله صندوق حرير ، وحمله نابي فيل ..

عزرا ـ (يحمل جرة ويعطيها للفتى) وامسك ويلك ، جرة الطيب حتى تعرف كيف تكون الطاعة .

التاجر ـ يا « عنبس » ! ضع على كاهله صندوق حرير ، وحمله

عزرا ـ ما اكثر ما لديك من العبيد !!

التاجر ـ ولكنهم كسالى ، يميلون الى الفناء .. جئت بهم اعلمهم شيئا نافعا .

هارون ـ سلمت يداك . فعلت ما يجب ان يفعل من زمن بعيد . لا اتصورهم الا جالسين في الاكواخ بين نسائهم يدقون الطبول ويضحكون، والقرود تساقط عليهم جوز الهند .. بينما العالم المتمدن يبني الحضارة.

عزرا ـ لم يخطىء الفراعنة حين اجبروهم على بناء الاهرام .

التاجر ـ وهل اخطأت بابل حين اجبرتكم على بناء عجائبها ؟!

هارون ـ لا . وحق يهوه .. بنيناها متطوعين. ولا انكر اننا وجدنا بعض الصعوبة ، لان اجسامنا تعودت الراحة .. لذلك اعطيتك هذا الفتى لينشأ على الجد والطاعة .

التاجر ـ حسنا فعلت .

هارون ـ ولكني خجل منك ..

التاجر ـ خجل ؟ لماذا ؟

هارون ـ شغلناك بامر ولدنا .. وانت رجل تجالس الملوك فاخشى الا تفرغ لتأديبه .

عزرا ـ دعه عندنا نؤدبه ..

هارون ـ ولكن اخاف ان يرق قلبنا عليه .. وكل به هذا العبد يضربه ، ما رأيك ؟

التاجر ـ حسنا .. يا « عنبس » ! افصل هذا العبد عن القافلة.

(عزرا وهارون يدفعان الفتى والعبد بما يحملان الى الداخل)

عزرا ، هارون ـ سلمت يا مولاي .. سلمت .

(تخرج القافلة)

عزرا ـ (يفك الفتى ويقود العبد بسلاسله) ارأيت ما شحذنا هذه المرة ؟ عبد مطيع ، وحمل من العاج والطيب والحرير ..

هارون ـ هل اجدى عليك تكبرك شيئا ؟ ولكنك ولد بليد..

عزرا ـ لا بأس يا هارون .. انها صناعة ورثناها منذ اجيال ولا تنتظر ان يتقنها في ساعة واحدة .

الفتى ـ حين يعود شمعون وصموئيل من الصين فسوف انضم اليهما .

هارون ـ بل تعلم الزراعة .. خير لك ان تتعلم اخلاق الفلاحين فهي شبيهة بك .

الفتى ـ ليكن .. انه عمل .
هارون ـ وهذا الذي نحن فيه ؟ اليس عملا ..
الفتى ـ عمل ؟ هل ستستطيع ان ترفع قامتك بعد كل هذا الانحناء؟
هارون ـ قلت لك ان قامتي ملكي ولا يهمك كيف تكون ..
الفتى ـ حسنا .. سأبقى هنا حتى يعود شمعون وصموئيل .. كان يجب أن انضم اليهما منذ البداية ..
عزرا ـ حين يأتي شمعون فسوف اكلمه .. لقد افسد علينا ابناءنا بسلوكه الاحمق ..
هارون ـ الصيد ؟! الا تحتقر نفسك وانت تجري وراء قطعة لحم لا تزن اوقية ؟! .. تركض طول النهار وعيناك معلقتان في السماء ..
الفتى ـ اليوم يعود شمعون ..
هارون ـ لن يعود شمعون الينا الا وعيناه في أم رأسه ..
عزرا ـ اسمع اصواتا ..
الفتى ـ اظنهما عادا ..
هارون ـ سوف ارى شمعون وصموئيل واعرف ما يريدان بتصرفهما الفاضح هذا ..
عزرا ـ انهم كثيرون .. اوه ، انظر اليهم .. عشرة الاف .. عشرون الفا .. مليون .. مليون ونصف ...
(تدخل جماعة من اربعة اشخاص . يرتدون بذلات سوداء . ويحملون حقائب سفر غريبة الشكل كأنها التوابيت ..) ..
راشد ـ اه .. وصلنا .
سليمان ـ اوه .. هذه الحقائب ثقيلة .
يعقوب ـ اظن ان احد اضلاعي قد انكسر ..
مسعد ـ اننا لم نبتعد كثيرا .. دعونا نذهب حتى نضمن السلامة.
سليمان ـ لن اتحرك خطوة واحدة ..
راشد ـ لا بأس .. لن يكلفوا انفسهم عناء الركض وراءنا . كانوا يريدون الارض وقد اخذوها ، فلا حاجة لهم بنا ..
(يصفون الحقائب على يمين المسرح .. والجماعة الاولى في اقصى اليسار)
سليمان ـ (يتمدد فوق حقيبته) .. اخطأت حين حملت هذه الحقيبة الكبيرة .. كان عندي واحدة اصغر ..
يعقوب ـ (يتمدد ايضا) .. والالعن أن كلها اشياء ضرورية .. لا نعرف ما نترك وما نأخذ ..
مسعد ـ (يلمح الجماعة الاولى) .. اوه . وهل انتم هربتم ايضا؟
هارون ـ نحن دائما نهرب ..
مسعد ـ طردوكم من دياركم ايضا .. السفاحون !!
هارون ـ اخليتم الساحة لغيركم اذن ..
مسعد ـ طردونا منها .. كانوا ضيوفنا ، فما زلنا نكرمهم حتى جلسوا في الصدر وتركوا لنا العتبة ..
(هارون يضحك)
مسعد ـ هل تسخر منا ؟!
هارون ـ لا ولكن تذكرت قصة قديمة .. حسنا .. استأجر غريب حمارا من مكاري ، فلما مشى به قليلا قال الغريب : والله حمارك سريع. فشكره المكاري . وبعد مسافة اخرى قال الغريب : والله حمارنا سريع. فامسك المكاري لجام الحمار وقال : انزل عنه قبل ان تقول : ان حماري سريع .
مسعد ـ تماما .. لم نمسك اللجام في الوقت المناسب .
عزرا ـ لا بأس .. اقنعوا بالعتبة .
مسعد ـ اليوم طردونا من العتبة .. قالوا ان نعالهم كثيرة وهم محتاجون اليها .. وانتم ماذا تفعلون هنا ؟
عزرا ـ نعيش في عتبة العالم .. لا نطمع في الصدر ولا ينافسنا احد على العتبة .
مسعد ـ انتم سعداء .
هارون ـ هل تحسد ؟

مسعد ـ لا ، ابدا .. لكن اقول انكم سعداء .. فقط .
يعقوب ـ لا تثرثر كثيرا .. نريد ان ننام .
مسعد ـ اسمع .. هذا الرجل يبدو انه طيب ..
يعقوب ـ نحن هنا لاننا رأينا كثيرا من الناس الطيبين .
مسعد ـ كيف تعيشون ؟
هارون ـ نجلس على الطريق ونمد يدنا ... ونعيش .
سليمان ـ هل تعني : اذا جلسنا هكذا ومددنا يدنا فاننا نعيش ؟
هارون ـ هكذا عشنا جميعا ..
سليمان ـ ولا تلاقون المتاعب ؟
عزرا ـ لا ننافس احدا فلا نلقى المتاعب .. اخلينا الساحة للمهرجين يتعاقبون عليها .
سليمان ـ شيء لذيذ ..
يعقوب ـ ومريح ايضا ..
عزرا ـ لا تظن الامر بهذه السهولة .. ان احناء الظهر اربعة الاف سنة ليس شيئا سهلا .
راشد ـ انتم سعداء اذن ..
هارون ـ نعم .. لولا ان رجلا هرما يتردد علينا ويزعجنا ..
راشد ـ ماذا يريد منكم .. قلتم انكم في العتبة فهل ينافسكم عليها ؟!
هارون ـ لا .. على العكس يريدنا ان نترك العتبة وننافس الناس على الساحة .
سليمان ـ رجل مجنون والله .
عزرا ـ والالعن انه يرتدي دروعا ويركب حصانا وهو عجوز عمره اربعة الاف سنة .
سليمان ـ كان يجب ان يموت من زمان طويل ..
هارون ـ دفناه بايدينا ولكنه يعود .
سليمان ـ ادفنوه مرة ثانية ...
هارون ـ لا جدوى .. دائما يعود .
سليمان ـ لا بد ان فيكم متآمرين .
عزرا ـ اه ، وحق يهوه ... هذا ما اقوله .
الفتى ـ هل تقصد بهذا احدا ؟
عزرا ـ وانت ، هل حكتك الشوكة التي في جنبك ؟
الفتى ـ حين يعود شمعون نرى ما يكون ..
مسعد ـ ارى ان الحياة ستطيب لنا هنا
هارون ـ ربما .. ولكن احذروا الفارس العجوز .
مسعد ـ نحن لا نعرفه . ولا اظنه يهتم بامر الغرباء .
هارون ـ ان لكل قوم فارسا عجوزا يزعجهم ..
مسعد ـ لا اظن ذلك .. فنحن كان لدينا فرسان شباب ، ولكنهم ماتوا في الساحة .. واستطعنا ـ لحسن الحظ ، ان ننزع ثيابنا من اصابعهم المتشنجة .. وهربنا .
عزرا ـ والفارس العجوز ، هل مات في الحرب ؟
مسعد ـ لا ندري .. كان لدينا عجوز ولكنه لم يكن فارسا ..
هارون ـ هذا ما اقوله لكم .. احذروا ان يحصل على حصان ودروع ثم يعود اليكم .
مسعد ـ شكرا .. سنذكر نصيحتك (للاخرين) انهضوا نبتعد فقد استرحنا قليلا .
راشد ـ دعنا نفكر في امرنا ..
سليمان ـ لن امشي خطوة واحدة ..
يعقوب ـ حقيبتي ثقيلة ولا اقدر على حملها .
مسعد ـ وانا ، والله ، تعب ايضا ..
(يتمددون جميعا فوق حقائبهم ويعقدون سواعدهم على صدورهم .. يدخل شمعون وصموئيل في ملابس الصيد) ..
شمعون ـ ماذا ... هل شحذتم كل هذه التوابيت ايضا ؟!
صموئيل ـ (يضحك) توابيت جاهزة بامواتها ..

شمعون ـ ولكنهم يتحركون ..
هارون ـ لا تهتم بهم انهم لا يؤذون ..
صموئيل ـ متى بدأت تهتم بجمع التوابيت ؟
هارون ـ مساكين .. طردوهم حتى من العتبة .
صموئيل ـ اوه .. مساكين حقا .
شمعون ـ وهل يفعلون شيئا اخر غير ان يتمددوا ؟
هارون ـ لا اظن .. انهم يتمددون وكفى .
الفتى ـ لا اظنهم مساكين .. هناك من هو امسكن منهم .
هارون ـ هل تظن ذلك حقا ؟
الفتى ـ بل اراه كما اراكما ...
عزرا ـ تأدب يا غلام ..
الفتى ـ يجب ان ترفع صوتك .. لقد عملت بجد هذا اليوم .
(يأتي بالعبد يجره من سلسلته)
انظرا ماذا شحذ لنفسه .. عبد تـام ، بسلسلته وعبوديته .
شمعون ـ وما تفعل به يا عزرا ؟!
الفتى ـ سيركبه ويشحذ عليه .. يتكاسل أن يقف ويشحذ ..
هارون ـ هل تسكت او ابطش بك ؟
شمعون ـ دعه يا هارون ..
هارون ـ انت جرأته علينا .. خطفت بصره بقبعتك وبندقيةصيدك وكلابك ..
عزرا ـ انت تفسد الجنس كله يا شمعون ..
شمعون ـ وهل بعد ما وصل اليه جنسنا فساد ؟!
هارون ـ هل يؤذيك ان ترانا خير الناس .. نحن خميرة الارض، اننا الطبقة ..
الفتى ـ .. انهم طبقة السماد التي تمصها الارض . الزرع ينمو ويرفع وجهه للشمس والنور ، والسماد يبقى سمادا الى اخر الابد .
هارون ـ اذا كنت تريد ان تلوث يديك بتراب الارض فارحل عنا، ولوث يديك بأي تراب تشاء . نحن هنا نحيى حياة الملوك ، يأتينا الينا طعامنا بلا عناء .. منذ جيل نتيه في الارض ولا نعرف لنا دارا ، حتى اذا استقر بنا المكان ، وعرفنا الناس وعرفناهم جئتم تنادون : الرحيل .. الرحيل .
عزرا ـ وانت يا شمعون .. ما هذا التعلق الصبياني بالصيد ؟ هل يترك عاقل ما يأتيه من طيب الطعام ويلاحق عصفورا بائسا لا يزن درهما ؟!
شمعون ـ يحق لك ان تلوم . لقد ذقت طعام الملوك ولكنه اختلط في معدتك بطعام الصعاليك . لو كنت اعرف أني مقبل على مثل حياتكم لما خرجت من اورشليم . ان الذل واحد في كل مكان ، فخير لي اذن ان احني ظهري فوق ارض اورشليم .
عزرا ـ ولكنا خرجنا على اي حال ، فيجب ان نتلاءم .. لن تكون الحرباء الدنيئة اذكى منا .
شمعون ـ اخشى ان اتلون حتى تختلط علي الامور فلا اميز جسدي بين الزواحف الاخرى .
الفتى ـ دعنا ننادي بالرحيل فان هؤلاء استطابوا حياة الجحيم.
صموئيل ـ لقد نمى الصغار في التيه ، والكبار ترهلت اجسامهم، فآن لنا ان نعود .. ناد الناس يا شمعون .
هارون ـ حين خرجنا ، حملنا التابوت فيه جسد موسى ولم يكن في نيتنا ان نعود ..
عزرا ـ حملنا اغلى ما نملك فلم يبق لنا شيء نعود من اجله .
شمعون ـ جسد موسى ؟ .. حملناه اربعين سنة لندفنه في الارض التي مات فيها ، هل كنا ننتهك حرمة قبره لولا اننا نريد له السلام الابدي .
عزرا ـ انت اردت ان نحمله فحملناه . واليوم تأتي لتقول احملوه مرة ثانية وارجعوا به .
شمعون ـ اردت ان تحملوه ليكون ثقلا على ظهوركم يذكركم بالارض التي طردتم منها . لقد التأمت في هذه الصحراء جروحنا وآن لجسد موسى ان يستريح الى الابد .
هارون ـ ولكني لا اجد احدا يرغب في حمله . انه ثقيل .. ولا ارى فائدة من نقله اصلا !
عزرا ـ تابوت في مثل حجمه ؟ انه سيعيق حركتنا ويلفت الانظار الينـا .
صموئيل ـ هل تتركونه اذن ؟!
هارون ـ كنت دائما ضد فكرة نقله .. والذي حمل جسد موسى من ارضه يعيده اليها .
شمعون ـ انا اعرف من حمل موسى من اورشليم ، وهو الـذي سيعيده اليها ..
هارون ـ ادعه اذن ، وليحمله عنا .
شمعون ـ (ينادي) يا معشر يهود . يا اهل اورشليم ... (يدخل الناس تباعا صامتين ، يحيطون بالمسرح) اليك هؤلاء .. انهم الخميرة الحقيقية للارض التي تتلوى انت ذليلا عليها . (للشعب) اننا راحلون الى اورشليم ..
هارون ـ ولكنك تغرر بالشعب يا شمعون ..
شمعون ـ الشعب يعرف الذين غرروا به .
عزرا ـ اذا سمعت بكم آشور فسوف تنحاز الـى العدو .لـن يرضيها ان تغيروا الخريطة التي رسمتها للعالم .
هارون ـ والخطة .. هل رسمت الخطة ؟ لا ادري كيف تهاجم بلا خطة !!
شمعون ـ لقد بقينا اربعين سنة نرسم الخطط ، فاتقنا الرسم والهندسة ونسينا كل شيء عن القتال ..
عزرا ـ انهم متحمسون ولكن لا سلاح لهم .
هارون ـ سوف تكون مجزرة انت سببها يا شمعون .
عزرا ـ ارجع الى العقل . اتئد . لا تتسرع ..
شمعون ـ كنا ننتصر في كل معركة حملنا فيها تابوت موسى ..
هارون ـ ولكن اختلف الزمان ..
عزرا ـ وتغير الناس ..
شمعون ـ الشعب واحد لا يتغير .. انه نفس الشعب الذي حمل على كاهله التابوت صابرا ... احملوا التابوت .
(يهرع اربعة رجال لحمل التابوت وحين يرفعونه ينفتح عقبـه وتسقط منه اسلحة ودروع . تستيقظ الجماعة الثانية فوق الحقائب)
هذه بشرى .. الان وجدنا مؤيدا لحماستنا .. احملوا السلاح ، والبسوا الدروع (يتناول البلطة ويكسر بها سلاسل العبد) ولننطلق معنا ايها الانسان الذي قيدته دناءة التجار ونزوات الملوك .
صموئيل ـ كم اتمنى ان يكون الفارس العجوز معنا الان .
الفتى ـ معي عنوانه ، كنت اعلم دائما انا سنحتاج اليه .
(يخرجون جميعا)
راشد ـ لقد ذهبوا جميعا ..
مسعد ـ وتركوا لنا بيتهم ..
يعقوب ـ لا اظنهم ذهبوا الى الابد .. سيعودون .
سليمان ـ لن يعودوا ، الم تر كيف حملوا السلاح .. مقبلون على مجزرة ولن يرجعوا منها .
راشد ـ هل رأيتم ذلك الرجل الهائل ؟ حمل البلطة واهوى على السلاسل بكل قوته .
مسعد ـ هيا ننظر ما تركوا لنا ..
يعقوب ـ لا تلمس شيئا .. ليس من الامانة ان تلمـس اشياء الاخرين .
مسعد ـ لن يعودوا .. وقد ورثنا اشياء الحمقى وديارهم .
سليمان ـ ولكن لنكن حريصين نحن فلا نتركها لاحد بعدنا ..
(يتجولون في الهيكل .. يدخلون من الباب الى النافذة ويحدثون اصواتا ..) ..

يعقوب ـ اوه .. انظروا ماذا وجدت .. علبة سردين سليمة انها من النوع الجيد .

مسعد ـ (يلبس معطفا باليا غريب الشكل) هذا المعطف رائع.. الا تجده رائعا يا يعقوب ؟ يلائمني تماما ..

يعقوب ـ ولكن ينقصه ازرار ..

مسعد ـ فصل هكذا بلا ازرار . لا ريب انها الموضة هنا ان تلبس المعطف بلا ازرار ...

سليمان ـ (يضع على عينه عصابة سوداء) .. الا ابدو لكم قرصانا ؟ وهذه اللحية .. الا ابدو فيها شيخا مهدما .. تناسبني تماما ، ساخدع المارة وابدو لهم شيخا حقيقيا .

مسعد ـ انها الاعيب هؤلاء الناس ، وخاصة هارون .. كانت في جعبته الاف الحيل .

يعقوب ـ لقد شحذ عبدا بسلسلته ومتاعه ..

مسعد ـ يجب ان اشحذ واحدا مثله .. احب ان يكون لي عبد.

راشد ـ (يحمل سيفا صدئا يمسحه بخرقة) كان مدفونا فيارض الغرفة . صدىء ولكنه يصلح للقتال .. ساشحذه فربما احتجنا اليه.

سليمان ـ ارم هذه الحديدة من يدك .. انها لا تصلح لشيء .

مسعد ـ اكسره وسوف نستعمله في المطبخ .

يعقوب ـ لن نستعمله في المطبخ ، لانه لن يكون لدينا مطبخ ، يا عزيزي ..

مسعد ـ هل تريد ان نأكل في المطاعم ؟

يعقوب ـ هذا ما اريده تماما .. اولا : ليس لدينا ادوات ، ثانيا: حتى لو كانت لدينا فلن نستعملها .. هؤلاء الناس عاشوا قبلنا اربعين سنة بلا ادوات مطبخ .

مسعد ـ هذا احسن فانا اجهل الطبخ ، ولا احب غسلالصحون.

راشد ـ (يضرب بالسيف خشبة) انظروا .. قطعتها بضربة واحدة ، يكون رائعا بعد ان اسنه .

يعقوب ـ انه يقلد ذلك المهووس الذي قطع سلاسل العبد بضربة واحدة . (يضحكون)

راشد ـ ولكننا سنحتاج اليه ..

سليمان ـ اسمعوا .. هذه خطوات قادمة .. (يضع اللحية والعصابة) ساجرب شطارتي مع اول عابر سبيل . لا تقولوا شيئا بل انظروا ما افعل .

مسعد ـ البس هذا المعطف لتبدو شيئا رثا يثير الشفقة ..

(يدخل عزرا)

عزرا ـ اوه .. اتقنت الصنعة باسرع مما كنت اتصور ..

سليمان ـ هل رجعتم ؟

عزرا ـ لا . لكن جئت اقول لكم الا تغيروا ترتيب البيت فربما رجعنا ..

سليمان ـ ولكننا افرغنا حقائبنا ، وهيأنا انفسنا للاقامة ..

عزرا ـ انك لا تفهمني .. لم اقل ان عودتنا مؤكدة . ربما دخلنا اورشليم ، وربما اجبرنا على الرجوع .. في هذه الحالة ارى ان تحتفظ لي ولهارون بمكان بينكم .

سليمان ـ .. ولكن انتما الاثنان ولا اكثر . اه ؟

عزرا ـ كما تشاء .. لا اكثر من اثنين .

راشد ـ وجماعتك ، هل تخليت عنها ؟!

عزرا ـ انهم على ابواب اورشليم .

راشد ـ هل تحاصرون اورشليم ؟

عزرا ـ لقد احاطوا بها ، وشمعون يزعم اننا سندخلها .

راشد ـ ولكن لا بد ان تدخلوها .. مع كل هذا السلاح والحماسة لا بد ان تنتصروا ..

عزرا ـ المهم أن نستقر في مكان .. قضينا في هذا البيت اربعين سنة وقلنا ان حياتنا قد استقرت فجاء شمعون والحمقى من اتباعه واقتلعوا شروشنا ، ولا ادري ان كنا نستطيع ان نغرسها في مكان اخر بعد الان .. لقد اخطأنا حين اطعنا شمعون ..

مسعد ـ نعم .. كان يجب الا ترحلوا ..

سليمان ـ ولكن يا عزيزي .. كيف لا يرحلون وقد دعاهم شمعون الى ارض خير من هذه الارض ؟

يعقوب ـ تماما .. أن اي مكان احسن من هذا البيت المتهدم.. وانظر ، ان ستائره من القنب ، وارضه رطبة تسبب الروماتيزم .

سليمان ـ اشكروا الله الذي انقذكم من هذا المكان .. منذ دقيقة قتلت عقربا بهذا الحجم .

عزرا ـ حين كنا لم تكن هناك عقارب ..

يعقوب ـ بعد ذهابكم تغير كل شيء ..

سليمان ـ والبيت رغم ذلك ، ضيق لا يكاد يتسع لحقائبنا ..

عزرا ـ هل هذه حقائب ؟ كنت اظنها توابيت ..

سليمان ـ ماذا أوحى لك بهذه الفكرة ؟ صحيح انها كبيرة ولكنها حقائب .

عزرا ـ ولكن تأكدوا انه ليس بينها تابوت . كل البلاء جاءنا من تابوت واحد .

مسعد ـ انها حقائب .. هذه حقيبتي .

سليمان ـ وتلك حقيبة يعقوب ، وهذه حقيبتي ..

عزرا ـ هل تأكدتم انه ليس فيها شيء مثل جسد موسى مثلا ؟

يعقوب ـ لا يا سيدي ، ليس عندنا هذا الصنف من البضاعة .

راشد ـ كم اتمنى لو يكون لنا تابوت مثل تابوتكم .. انظر ماذا حملنا معنا (يفرغ حقيبته) البسة داخلية ، ستائر ، ملاعق ، فرشاة اسنان ، مفصلات ابواب ... لم نجد شيئا مقدسا نحمله . كل هذه الخردة كانت اعز لدينا من جسد اي واحد من اجدادنا .

سليمان ـ ولكنها اشياء نافعة يا راشد .

مسعد ـ كلها تلزمنا .. في الغربة يلزمك كل شيء .. انا نفسي حملت قدوما وكمشة مسامير ، سنحتاجها لتثبيت الستائر .

يعقوب ـ ومعي هنا مفتاح علب السردين ، وخلاط بيض ، والة كاتبة باربع لغات ..

عزرا ـ باربع لغات دفعة واحدة .. !!

يعقوب ـ انها جهاز رائع يا عزيزي .. (ينصبها) انظر كيف تكتب .. تك ترك تك ترك .. مثل الساعة . ولها مفتاح للتحكم بالسرعة والمسافات .

عزرا ـ انتم على صواب .. حملتم اشياء نافعة . اما نحن فقد اخطأنا من البداية .. حملنا جثة في تابوت وانطلقنا كالحمقى .

راشد ـ ولكن التابوت عاد بكم الى الوطن .. اما نحن فانتوابيتنا المملوءة بقطع التبديل ، والالات الكاتبة ستجعلنا احد رجلين : اما تاجر خردة او عرضحالجي محترف .

عزرا ـ على اي حال ، نحن اصدقاء .. لا تنسوا ذلك .

يعقوب ـ سنحفظ لكما مكانين بيننا ، ولكن كيف نعلم انكم دخلتم اورشليم ..

عزرا ـ اذا دخلناها فلن نرجع اليكم ..

راشد ـ اسمع .. اذا دخلتم ارضكم فاطلق حمامة بيضاء علامة بيننا .

عزرا ـ كما تحب ، ساطلق حمامة من نوع الزاجل حين ندخلها.

(يخرج)

يعقوب ـ امامنا عمل كثير ... ساكتب استدعاء نعرض فيه حالتنا على العالم .. هذه هي الطريقة الوحيدة لاسترداد حقوقنا ..

سليمان ـ يجب ان نعدد المفقودات اولا ..

مسعد ـ تماما .. لقد تركت ارضا مساحتها ١٥٠٠ فدان،ومعمل معكرونة .

سليمان ـ ولكن معمل المعكرونة لم يكن لك ..

مسعد ـ وهل تعرف انت ما هو لي وما ليس لي ؟ معمل المعكرونة ليس اكثر من معمل للمعكرونة وانا صاحبه ..

سليمان ـ الان تذكرت .. هل كان معملك جانب معمل النسيج الذي نصبته ؟

مسعد ـ لقد كان جانبه معمل نسيج ، ولكن لا اعرف ان كان لك او لغيرك ..

سليمان ـ سجل في القائمة .. ارض مساحتها ١٥٠٠ فدان . معمل معكرونة مستورد من ايطاليا . معمل نسيج فيه ٥٠ نول جكار و ٧٠ طن حرير خام .

يعقوب ـ تذكروا جيدا .. سنطالبهم بكل الممتلكات ولن نسامح احدا ..

مسعد ـ كان لدي اسنان صناعية فيها ٤ اسنان ذهبية ، نسيتها على الحوض في عجلتي ..

سليمان ـ سجل : اسنان صناعية من الذهب .

مسعد ـ وانت .. اكتب ممتلكاتك .

يعقوب ـ انتظر لاجمعها .. ٢٢٠ ، كيس ذرة و ٤٤٠ كيس حنطة و ٨٨٠ كيس عدس و ١٧٦٠ كيس قطن .. كم نكون ؟

راشد ـ تساوي ٣٣٣٠ دودة قطن ..

يعقوب ـ هل تسخر ؟

راشد ـ لا ادري .. فقد اصبحت الصعلوك الوحيد بين جماعة الاقطاعيين . (يجلس يشحذ السيف ولا يتكلم) .

يعقوب ـ انت تدقق كثيرا .. يجب ان نبالغ في الارقام لانهم لن يقنعوا بها وسوف يساومون ويعطوننا الربع فلا نرضى ونطالب بالنصف ثم نتراضى على الثلث ..

مسعد ـ اكتب الديباجة ثم اسرد قائمة المفقودات تحتها ..

يعقوب ـ ... الى نصير العدل ، وحامل لواء الحق ، والمستند الى جدار الخير ، وحامي حمى الفقراء والمستضعفين ، ومن ذاع صيته بين الامم ، وعرفت عدله العرب والعجم .. سيادة الصدر الاعظم ، لهيئة الامم المتحدة ، ادامه الله ، آمين . آمين . ما رأيكم ؟ اليست بداية رائعة ؟

سليمان ـ هذه هي البلاغة ..

مسعد ـ اكتبها على نسختين لاحتفظ بواحدة منها في ارشيف القضية ..

يعقوب ـ والان .. استدعاء الى « اليونسيف » . ما رأيكم بهذه البداية : الى السيد الظريف ، والميسري العفيف ، رئيس منظمة اليونسيف . اروم ان ابلغ مقامكم اننا قوم ايتام ، نفذ منهم الطعام ، وانتهى بهم المقام ، الى مأدبة اللئام ..

مسعد ـ سوف يرق قلبه ويرسل اليك الطعام اكداسا ، اكداسا ..

سليمان ـ رائع .. حين اتصور هذا البيت مملوء بالطحين وعلب السردين .

يعقوب ـ وعلى ذكر السردين .. ما رأيكم باستدعاء الى « شركة المعلبات المتحدة » نتوسل اليها فربما ارسلت حمولة باخرة من السردين ؟

مسعد ـ افضل ان ترسل في الاول نداء الى « اتحاد شركات الاحذية » فقد اكتشفت ان اصابعي تلحس الارض ليلة امس .

يعقوب ـ سنكتب .. سنكتب كل شيء . ان امامنا الوقت الكافي لتحرير الاستدعاءات .

سليمان ـ هل تعلمون اننا نسينا الشيء المهم ؟ نسينا ان نرسل الى « اليونسكو » .. يجب ان نبدو بمظهر المتحضرين على اية حال .

مسعد ـ ولا تنس ان ترفق العرائض بالوثائق اللازمة .. انها ستدمغ الغاصبين وتظهرهم امام العالم على حقيقتهم ..

يعقوب ـ هذه الاستدعاءات ستهز الضمير العالمي .. واتوقع ان تحدث انشطارا في المعسكر الغربي ، ولن يتردد المعسكر الشرقي في تأييدها ، اما العالم الثالث فهو معنا لا ريب .. (يعقوب يكتب وهما يمليان عليه بكلام مختلط لا نميز له معنى . ضجتهم صاخبة . فجأة ..

يلمع نور وتسمع موسيقى عسكرية .. طرق على الباب ، راشد يذهب الى الباب)

سليمان ـ اسمع لا تفتح الباب ، ربما كانوا اصحاب البيت .

مسعد ـ وماذا يريدون .. لن نتخلى لهم عنه بعد ان غرسنا شروشنا ..

يعقوب ـ ربما كانا عزرا وهارون .. انظر من الثقب وادعهما للدخول ، هما ولا احد غيرهما .

راشد ـ (ينظر من الباب) .. انه عقيد عجوز في ملابسه العسكرية . .

يعقوب ـ دعه ينصرف .. ليس في سلالتنا احد من العقداء .

سليمان ـ هل يركب حصانا ويضع الدروع ؟

راشد ـ تماما كما تقول ..

يعقوب ـ هل تعرف احدا بهذه الصفة ؟

سليمان ـ في طريق الهرب كنت المح من بعيد عسكريا يركب حصانا ودروعه تلمع في الشمس ، ولكن لم اهتم به . ظننته من جنود الاعداء فلم اشأ ان الفت انظاره الينا .

مسعد ـ انه الفارس العجوز وقد حذركم منه هارون ..

راشد ـ دعوه يدخل لنعرف ما يريد ..

يعقوب ـ لن يدخل الينا احد خاصة اذا كان عجوزا برتبة عقيد..

سليمان ـ ولكن ماذا يريد منا ؟

راشد ـ يبدو انه عجوز طيب ..

مسعد ـ انا لا احب الفرسان وخاصة اذا كانوا شيوخا .

(يصرخان)

يعقوب ـ اذهب عنا .. حل عنا .

مسعد ـ ارحل من هنا .. ليس لك بيننا مكان .

راشد ـ لقد ذهب .. ولكنه اشار بانه سيعود .

يعقوب ـ ساتولى امره حين يعود .. والان اين وصلنا ؟ خذ انت راجع مسودة العريضة الى اليونسيف .. وانت تأكد من صحة ارقام الممتلكات .. ساحرر عريضة الى الشركة ..

(تعود ضجتهم .. بعد قليل)

راشد ـ (يصرخ فرحا) انظروا .. طائر ابيض .. يعبر السماء من الافق الى الافق .. يرف بجناحيه والشمس تلمع فوقهما .. لقد دخلوا اورشليم .. عادوا الى الارض بعد اربعين سنة .. هذه بشرى .. انهضوا فقد دخلوها ، سوف نعود .. سوف نعود . (تبدو حماسته ناشزة بين برودتهم . يحملقون فيه)

سليمان ـ اوف .. اسكت قليلا .. نعرف انه طائر ، وانه يعبر السماء .. ، ٧٥٠ ـ ٧٦٢ ـ ١٩٧٢ ...

راشد ـ لقد وعد بان يطلق طائرا اذا دخلوا ..

يعقوب ـ الا تريد أن تسكت ؟ .. جاءتني فكرة ديباجة رائعة ولكنك لا تكف عن الصراخ (يقرأ بصوت مرتفع) : الى مقام اتحاد شركات الاحذية الموقرة ، نعرض لجنابكم اننا قوم حفاة ، بليت نعالنا سعيا وراء الاغراض النبيلة ، ونرجو ان تنظروا بعين الشفقة الى عريضتنا ، وتأخذوا بعين الاعتبار أن هذا الامر لم ... قد .. وجدنا .. تراكمت .. ، ٤٠٠ اسود .. ، ٣٠٠ بني .. وهل ..

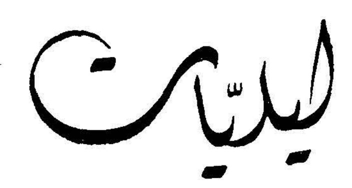
اذن .. عندهم ..

سادتي .. بلا جدال ...

(اصواتهم همهمة .. راشد مستند الى السيف ، وقد ظلل بيده عينيه يتابع حركة الطائر في الافق ..) ..

ستار بطيء

نديم خشفة



ليديات

(القصيدة الاولى من مجموعة خمس قصائد يضمها هذا العنوان)

●

ترقبت الوجوه : الوجه بعد الوجه . قلت :
اراك في الزحمه
فتصرخ نظرتي : اواه هذا وجهها . وامد اشواقي
اليك ، وتشرئب الروح من عيني مثل يد الفريق.
ونبض اعراقي
يجف . ويصبح الانسان في حجارة . وتلفني الظلمه
مدى خطواتك العجلى الي ..
كأن رعدا من عل ينصب في قلبي
ويخفق برقه في المظلمات من الليالي ،
في الطريق المقفر الرحب
وينحسر الضباب .. اراك مقبلة كما تتفتح النجمه.
وتصبح لي عيون في شفاهي .. انني فيها
ارى شفتيك يثمر كرمها ويميد واديها
ندى وشذى .. ويشرق في الدموع البرق كالزهره.

***

لاني من طيور البحر اكثر وحدة واسى ،
ومن امواجه المره
اشد مرارة شفتي بعدك .. جئت اسأل كل عينين
وكل سلالم المترو وابوابه :
اما مرت هنا ؟ في اي مقهى او قطار ؟ اي بوابه
ترى انطبقت واخفتها ؟ وطعم البين
كماء السبخة الطيني في شفتي .. يا قبلا مع الفجر
تهيم على شفاهي كالطيور ..
افيق لا ادري
افي قبر انا .. ام أن كل الناس ماتوا
والمدينة اقفرت من كل اهليها
فما فيها
خلا الارياح والاشباح من احد . وفي صدري
شتاء .. اه لو امطرت يا قلبي
فتفرغ ما تجمع فيك من سحب .

***

وامشي في الشوارع : كل سياره
الى عيني تحمل لهفة ، ويذوب قلبي في الشفاه :
لعلها فيها.
فابحث في الوجوه .. وكل ارصفة المدينة او مقاهيها
تشير الي مرت من هنا ، حتى كأنك في المدينة
كلها ، في كل سياره.

فهل تدرين ان الملح في عيني ، بعدك ، في شفاهي،
اه من قبل
تذوب الروح فيها .. كنت اذ تأتين
على كتفي تلقين
يديك ، وتعصرين ثمار قلبك في شفاهي..ايما عسل.
وكان على الوسادة موج شعرك او على صدري
واثرى من كنوز الارض عندي خصلة من تلكم الخصل.
واسبح في بريقك كالسفينة .. ايما فجر
تموج في سريري .
غير اني الان
افيق فلا عبيرك في الوسادة ، لا قميصك
منزو خجلان
على الكرسي : كومة انجم .. لا موج عينيك
تمادى فيه حبي كالسفينة .. لا ارى زنديك
يشداني اليك .
واي شمس بعد شمس يديك تغسل وحدة الجدران
تذيب الثلج عن قلبي
وتشعل في دمي النيران .
وايامي التي تمتد بعدك كالطريق المقفر الرحب
اقلب فيه وحدي طرفي الغيمان :
الا ينداح من عينيك برق في صحارى الروح
يمسح قلبي العطشان
ويغسل وحدة الجدران
فتزهر وحشتي الربداء بالعشب ..
ويخضل السراب ..
اكلما القت يد الغرب
ستارا من رماد فوق نعش الشمس ، وازدحم
الطريق العام
بمن يسعون ازواجا ، ترقبت الوجوه تشدني الاوهام
الى عينين برقهما توهج ، مرة ، في قلبي المكتظ
بالسحب
وخلفني اقلب طرفي الغيمان
وارتقب الوجوه : الوجه بعد الوجه،منتظرا وحيدا..
ربما التف الذراعان
علي .. كأن رعدا من عل ينصب في قلبي
ويخفق برقه في المظلمات من الليالي ،
في الطريق المقفر الرحب .
فما ابصرت وجهك في ازدحام الباب يأتيني .
وارجع .. ليس غير الشارع المغمور بالطين
طويلا قاحلا يمتد في قلبي .

موسكو — **حسب الشيخ جعفر**

الرومانسية القديمة في أشعار أفتوشنكو الجديدة

بقلم ابراهيم فتحي

كانت الاحجار تصيب انصار الجديد عندما يشيرون الى ما وراء الطرق القديمة . ولكن الشاعر « افجيني افتوشنكو » تقذفه المجلات الاميركية ، بصوره الملونة على اغلفتها ، وقد استطاع وهو في الثلاثين ان ينقش اسمه بانوار النيون الصارخة . ولم يصبه من النقد داخل بلاده الا رذاذ يسير ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة الثورة الجديدة التي ارتبطت باسمه في الشعر السوفياتي . فهو عند انصاره مبرز للعناصر الرومانسية التي خفت صوتها . ويعيد للقلب الانساني مكانته في عالم تخنقه الالة . وتسوده سيطرة الدولة . ويلتقط النجوم التي انزلقت من الاصابع اليابسة يصفها من جديد . في سماء كان الناس قد كفوا عن التطلع اليها . ويتفنن في طلاء اوراق الشجر بضوء القمر الفضي، بعد ان يغرس الشجرة من جديد في الحقل المهجور . وهو فوق ذلك يقدم الاحلام لكل امرأة عاطفية لم يعطها مشروع السنوات الخمس فارساً، ودموعاً نقية للقلوب المحطمة .. بل انه يهب سامعيه ايقاعات راقصة صاخبة على الطريقة الاميركية بعد ان يفرغوا من الاحلام والدموع..

الباب موصد في وجه العاصفة

والامواج العاتية تزحف من المحيط

ترتطم بالسدود ، وترضع اشعة الشمس الخابية

في صخب له طعم الملح .. نامي يا اعز الاحباب

ولا تعودي الى ايلامي

... ولتغرقي دموعك كلها في النسيان

ولا تري الا الابتسامات التي ابتاعها لك

والازهار التي تتطلع الى ان تصبح باقة

واريجها .. وكل حصادي الهزيل الذي نبت في حديقتي

لتقطفيه يا حبيبتي

ولكن .. ما تلك الغمغمة وفيما تتململين ؟

يحسن ان تتشبث جفونك بالنوم يا حبيبتي

فأثناء النوم نستطيع ان نفعل ما يحلو لنا .. وان نحقق كل شيء

وكل ما لا نستطيع الا ان نهمس به في يقظتنا (١)

ولكن ما هو الجديد في أن يطوف الشاعر بتلك البقاع الشعرية القديمة التي داست الاف الاقدام فوق سطحها المجهد وذهبت ببريقه؟ .. وما هي العلاقة بين ذلك الاتجاه وبين التقليد الشعري الذي نشأ عنه ؟! ..

كان « ماياكوفسكي » يعتقد ان الكهرباء قد جعلت ضوء الشمس شيئاً يفتقر الى العصرية . ولكنه كان يؤكد دائماً ان العالم الجديد ، ستزدهر فيه الورود والاحلام لتبهج عيوننا . نحن الاطفال الذين تجاوزنا الحد في النضج . ويتساءل بعد ذلك هل يظل الشاعر يقول دائماً ان ماريا تحب بطرس ، ناسياً حب بقية الناس الذين يعيدون بالعمل خلق واقعهم ؟ وهل يظل الشاعر حملاً وديعاً يغطيه الصوف الابيض ، يثغو بموضوعاته الغنائية المشحونة وجداً دون ان يصبح شعوراً ووعياً وارادة تتجه نحو صحوة العالم والناس ؟ .. اي ان المشكلة التي برزت في الشعر السوفياتي منذ زمن طويل هي : هل تستمر الطبيعة والحلم ودفقات القلب طفيليات شعرية .. تلتهم اهتمام الانسان والشاعر بوافعه الاجتماعي ، وتصبح رفضاً له ومهرباً وهمياً وتشكل موضوعات خالدة للشاعر تحجب رؤيته عن متابعة الجديد في العالم .. عن الحاضر وهو ينجب المستقبل .. عن اقتحام الانسان للاسوار في الكون والمجتمع .. وعن انتقال الفرد من العزلة المجدبة الى المشاركة ؟ .. فالشعر قد انتقل من اللحظة التي يهمس فيها :

يا امي .. ان طفلك مصاب بمرض رائع مجيد

فقلبه قد اشتعل فيه الحريق

قولي لشقيقاتي : ليس امامي مكان اختبىء فيه

الى لحظة اخرى تنطوي على موقف اخر ، فلماذا الاختباء ؟! .. ان حريق قلبه يمكنه من الرؤية ابعد من الاخرين .. ومن الافضاء بالسر الذي يكتشفه ، لا على قيثارة ذات وتر واحد . بل عن طريق انغام تتشابك في تصميم وبناء يستهدف اعادة صياغة الانسان بالعودة التي تتعانق فيها الذات مع الاخر . ولم يكن معنى ذلك ابداً ان تنسف القنبلة الذرية البلبل والوردة والحلم . او ان ترتحل كل الازهار الى مجال فلاحة البساتين ، والاحلام الى علم النفس المرضي ، والدموع الى معامل التحليل الكيماوي ... ولم يكن معنى ذلك ايضاً ان يكف بطرس عن حب ماريا ، ويقع في حب ، او يصعد الى حب ، جرار آلي ممتلىء القوام رشيق الحركة . ولكن كان معناه البحث عن انساق جديد يحل التناقض بين الاشواق القديمة والافاق الجديدة . وهو بحث بدأ منذ زمن طويل ، بعد التحقق الفعلي للاشتراكية مباشرة . وما زال يطرح القضايا الكثيرة . فبعض الشعراء قد صوروا الانسان الجديد باعتباره كائناً اسطورياً هائلاً ، لا يأكل الا بيض النعام ولا يقنع بافل من عشاء الافيال ، ولا يستمرىء الا لحم اضخم الحيتان . ولا تتدفق مضخات قلبه بالانفعال الا امام الاهداف العظمى القاصمة للظهر . وروج بعض النقاد للفكرة الخرقاء القائلة بان الشعر الغنائي لا بد له من تصوير ذلك البطل الغنائي ، او بطل غنائي مماثل ، ما دام الشعر يسعى دائماً الى نقل تجربة نموذجية متحققة في انفعال فردي . وما دامت الواقعية في الادب تتميز بخلق النماذج . ناسين بذلك ان الكائن الخرافي لا علاقة له بالواقع من ناحية ، وان النموذج الروائي يترك مكانه في الشعر للقرابة والتماثل والاشتراك بين كل الناس في كل انفعال فردي عميق يتسم بالصدق . وما اضأل نصيب التهاويل من العمق والصدق . ونسي الكثير من الشعراء وهم يعبرون عن الجديد ، وهم يسمعون الدنيا « الوقع الحافل بالكهرباء لكلمة الانسان » ان ذلك الوقع يتحول الى ضجيج فارغ ما لم تملأه انفاس الفرد والامه واصراره واخفاقه . ونسوا ايضاً ان « ملحمة الانتصار ذات الطابع البطولي » تتحول الى ميلودراما تعسة ما لم تصبح بحيرة تصب فيها الاحزان الصغيرة والافراح الصغيرة .. وينتحل الشاعر فيساريون سيانوف اعذاراً لهؤلاء الشعراء

---

(١) قصيدة ترجمت شعراً الى الانجليزية في مارس ١٩٦٥ بقلم افريل بيمان .

في قصيدته (الجيل الذي انتمي اليه) ..
كانت اغانينا مثلنا .. متدفقة غليظة متأهبة دائما
فهي وحدها تستطيع ان تنطق بمشقة زماننا
وهي وحدها التي تستطيع استمالتنا ، والتقاط النار والاندفاع
كنا نعصف بالابواب ... فطرقها علامة على الخور .

ولا يعنينا ان نقف كثيرا عند الاعذار فرد الفعل هو موضوعنا . فكيف تكون الاغنيات بعد ان ذهبت مشقة زماننا ، واصبحنا لا نقتحم الا ابوابا مفتوحة على مصاريعها الزجاجية ؟ ... هل يعود الشاعر بعد ان يجفف عرقه ، ويتناول مهدئا ، ليبحث عن صلات بين الفرد الانساني ومجتمع خاص ابطاله هم الطفل والقبرة وزهرة الاقحوان والفتى الراعي والكلب المخلص والنجوم والقلوب والعذارى الى اخر قائمة السكان كما فعل الرومانسيون القدامى ؟ .. وهل يعود الشراع ليشق بحور الشعر التي لا تعرف وحوشا مفترسة من البشر والالات . وترسم خطة انتاج الشعر خلق عوالم رمزية تعبر عن توازن واتساق مقابل عالم الحياة اليومية الرمادي الذي هجرته الالهة والكائنات الخرافية التي كان اسمها ((الانسان الجديد)) ؟ .. نحن نجد محاولة وضع الاحلام الرومانسية القديمة فوق الاهداب الصناعية لكائنات افتوشنكو ...

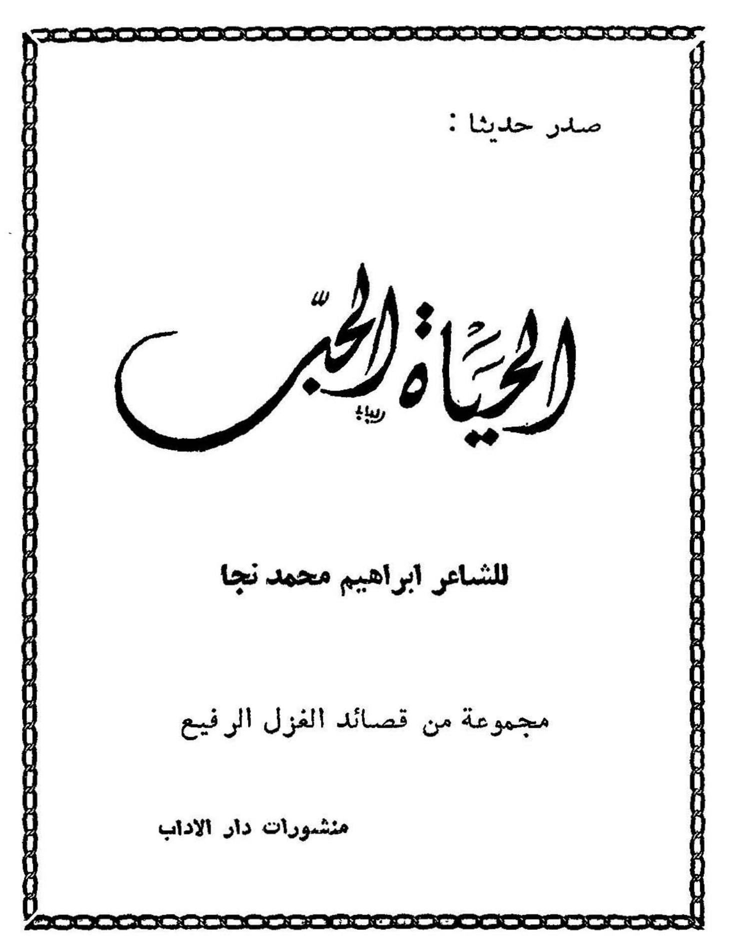
يا اعز الاحباب .. ليغلق النعاس عينيك .. فنحن على الارض : انت وانا
وكوكبنا يجري مرتاعا متعثرا في السماء
ولا بد ان التصق بك متشبثا حتى لا تطيري في الهواء
وحتى نحلق معا ... ليغلق النعاس عينيك
ولتنفضي عنك الاحزان ... ولتنهل عيناك من الرذاذ السحري
فما اصعب ان نجد الراحة هنا على الارض ؟!

ولا جدال في ان الشعر الواقعي يحفل بعناصر من الرومانسية والحلم . فالواقع ليس اسير اللحظة الحاضرة . بل هو يعد بألف امكان . والحلم محاولة لامتلاك الواقع ، ومتابعة براعمه وهي تتفتح ، انه حلم العين اليقظى ذلك الذي تعرفه الواقعية ، وليس اغماض العين عن الحقيقة وبناء اوهام من دخان المخدر . انه ليس رفضا لعالم تملأه الاحزان ، بل هو نهم متجدد لا يقنع بقبول العالم كما هو ، بل يقترح عالما تقترن فيه الرغبة بالتحقق . فاين مكان افتوشنكو في اخر قصائده من الحلم والرومانسية ؟ .. هل يتبع الرومانسيين القدامى فيدع الوهم طليقا يتجول هاربا من عالم تذوب فيه المتعة بمجرد اللمس ... ويذبل الخد حينما نطيل النظر اليه .. وتتحول الشفاه الناضجة الى شيء قديم ، الى عالم الطفولة المليء بالبكارة الدائمة ، الذي لا تفسده الالفة ؟ ام يقدم صيغة جديدة تستمد من موهبته العظيمة فاعليتها ؟.. لناخذ قصيدته الاخيرة المسماة .. (الذاكرة الثالثة) ...

ليس في استطاعة احد ان يفلت من حس خفي غامض
يصطبغ بالم ساحق وحزن مرير
حينما ننفض عن وجه الحياة كل رياء فنجدها كلها نوعا من الجنون
وفي اعماقنا نستشعر برودة الموت
فننهض لاهثين محاولين الامساك بذاكرتنا
كما يستند المريض الى يد الاخت الحنون
فالظلمة تحيط بنا من كل جانب
ووحدتنا كابية موحشة
وذاكرتنا المستقرة في القلب
او تلك الذاكرة المستقرة في العقل
لا تستطيعان تقديم اي عزاء
ويهجر نور الحياة اعيننا ، وتتعثر ايماءتنا وكلماتنا
ولكن اجسامنا تحنو على ذاكرة ثالثة
ان اقدامنا تتذكر توهج الرماد صيفا في طريقنا
وكيف كان العشب المبلل بالندى ، يتسلل هاربا بين اصابع اقدامنا
في المروج ومنعطفات الغابة
ووجوهنا المختنقة الساخنة تذكر لسان الكلب ورطوبته
وهي تقعي علينا انه يقاسمنا العناء ، حينما كنا نفتقد العون بعد معركة
ويستدعي جبيننا الى الذهن ، تلك القبلة الخافتة الممتعة
التي تستقبل بها الانسانية يد الام وهي تمنح بركاتها
وهل ننسى رغشة الفرحة الغامرة حينما تسترخي السيقان
ايام الراحة ، على صدر الارض مطمئنة واثقة . وعيوننا ترمق السماء
وتستشعر الاصابع من جديد رفة قطرات المطر
واختلاج الرعب في طائر يتالم . وارتجافات الشعر فوق رقبة الحصان
والشفاه .. تتذكر شفاها اخرى ، وما فيها من جليد ولهيب
ووثوبها الذي لم يذعن لترويض ، فالعالم عند اطرافها
ومذاقها برتقال وثلج
وتلك الذاكرة تستثير شعورا بالعار
ان تجنب تيار الحياة خيانة سافرة
فلنعد بكل اهتماماتنا الى ذكريات القلب والعقل
ومهما تكن ، تقلبات الحياة ، وصدماتها ومشقتها
فجمال الحياة جدير بامتناننا
وليس هناك من ثمن فادح ، يصل الى قيمة ذلك الجمال (٢)

ولنقارن الان تلك القصيدة بتجربة مماثلة عند شاعر انجليزي رومانسي قديم ، هو وليام وردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) عبر عنها في قصيدتين .. الاولى معنونة (ابيات نظمت على مبعدة اميال من نترن آبي) يتحدث فيها عن الظلمات والاشكال المتعددة التي يأخذها ضوء النهار، وقد نفض عنه كل بهجته ، حينما لا تعود الحركة القلقة ذات جدوى ، وترين حمى ثقيلة فوق نبضات القلب .. ولكن صوره تتنفس في الذهن

(٢) ترجمت شعرا الى الانجليزية في مارس ١٩٦٥ بقلم بيتر تمبست


صدر حديثا :

الحياة والحب

للشاعر ابراهيم محمد نجا

مجموعة من قصائد الغزل الرفيع

منشورات دار الاداب

من جديد ، في ومضات الفكر الذي كاد ان ينطفىء ، وفي الكثير من عمليات التذكر والتعرف الداكنة الخافتة ، وفي حيرة حزينة بعض الشيء . فيقف الشاعر .. لا يغمره احساس المتعة الحاضرة بها فحسب، بل افكار بهيجة تشير الى ان تلك اللحظة تحمل حياة وقوتا للسنوات المقبلة .. حينما جاء اول مرة الى التلال وقفز مثل الظبي على ضفاف الانهار والجداول . وكانت الالوان والاشكال عنده نوعا من الاشتهاء والشعور بالحب . والشاعر ليس في حاجة الى استهواء سحري يأتي من بعيد ، او الى افكار اثيرة او اية دلالة تنبع من الحواس . فما زال عاشقا للمروج والنباتات وكل العالم العاتي ، عالم العين والاذن.عالم الحواس سواء ما خلقته تلك الحواس او ما ادركته . وما اسعده بان يجد في الطبيعة ولغة الحواس مرساة لانقى الخواطر ، ويدا حنونا تأسو الجراح ، ومرشدا وحارسا .. ويخاطب الشاعر رفيقا كان بصاحبه في الماضي . فيلتقط في صوته ما كان ينوء به القلب القديم من لعنة، ويقرأ مباهجه الماضيات في الانوار المتدفقة من عينين لم تدعنا للترويض، كما يناجي اختا حنونا ، وتصبح الذاكرة ملاذا لكل صوت حلو وكل تآلف ، حينما تحل الوحدة او الخوف او الالم او الحزن .

والقصيدة الثانية حول (ايحاءات الخلود النابعة عن الطفولة الباكرة) يستشعر فيها الشاعر حنينا عارما الى ايام بعيدة .. حينما كانت المروج والادغال والجداول والارض تتشح بضوء سماوي .فروعة الحلم ونضرته لم نعد الان كما كانت في الايام التالية . لان ذلك الجلال قد قضى نحبه .. وما الذي فقدناه ؟ .. لقد حملنا منذ الميلاد شيئا من عالم اخر نفتقده تدريجيا ، ولكن شيئا من الذاكرة الالهية يظل فينا. وهذا الشيء اذا ما احسنا الاحتفاظ به يملأ الحياة الوانا . فما اسرع ما تثقل الروح حمولتها الارضية . وكم ترين العادة فوقنا فادحة كالصقيع وعميقة كالحياة . ولكن الانفعالات الاولى .. هذه الذكريات المصنوعة من الظلال هي منابع النور في نهارنا .. وهي النور الهادي لابصارنا ، وعلى الرغم من ان شيئا لا يستطيع ان يرجع النضرة الهائلة الى الحشائش ، ولا التألق للزهرة .. فلن يملأنا الحزن ، وسنجد العون فيما بقي لنا ..

وان قلبنا الانساني الذي يفدق علينا الحياة

بكل رقته وافراحه ومخاوفه

جعلني اعتقد ان زهرة صغيرة تتفتح

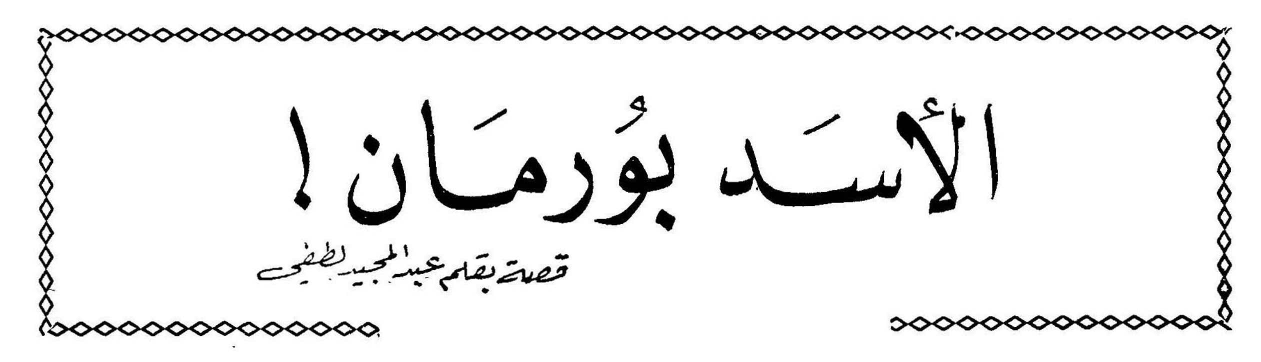
تستطيع ان تستثير خواطر وذكريات

تكمن في اعماق بعيدة ..

لا يمكن ان تصل اليها الدموع

ورغم الاختلافات الضئيلة في هذه التجربة ، فاننا نلاحظ ان ((افتوشنكو)) ينزل ضيفا على وردزورث ، وانه مجرد صدى له . ينقل عنه التجربة بكاملها . ولا اريد ان اصل من ذلك الى القول بعملية نقل عامدة ، فذلك لا يعنيني .. ما دمت اقرأ افتوشنكو مترجما فلا استطيع الحكم . ولكني اريد ان ابرز ان رومانسيته الجديدة في بعض قصائده ، لا تضيف عنصرا جديدا . انها لا تجعلنا نقبل عالمنا الحاضر في صحوته على المستقبل، بل ان ((الحياة)) عنده تتكون من الاشياء ((الخالدة)) .. الجداول والحشائش والكلب المخلص وشفة المحبوبة . وحلاوتها تكمن في بكارتها الاولى وفي ذكريات الطفولة . فهي ((حياة)) لم تضف عشرات السنين اليها شيئا جديدا . وهي لم تنقلنا من احلام الغابة المسحورة في الظلام الى احلام المدينة التي لا تعرف النوم . ولم ترتفع بنا من افق فرد واحد الى افق يحنو على الجميع ، ورغم النبرة العالية التي ترحب بالحياة في اخر قصيدته ، فابياتها كلها تقدم الذكريات الممتعة كاعتذار عن ظلمات ((الحياة الجديدة)) انه يقبل عالما لا يعاصر مشكلات اليوم . وبطبيعة الحال ليس هذا حكما ينطبق على كل اعماله .. بل على اتجاهه الجديد الذي يلتقي فيه مع كل مثالب الرومانسية القديمة .

القاهرة — **ابراهيم فتحي**



لا اعتقد انني كرهت حيوانا في حياتي مثل كراهتي لكلب جارنا!!

انني اعرفه بالضبط منذ نعومة اظفاره عندما جيء به باهتمام بالغ ورعاية خاصة – من المستشفى البيطري ، وقال جاري يومئذ وهو يراني ارمم السياج الخارجي للمنزل

– الان صار لنا حارس حقيقي ، تستطيع ان تترك السياج واطئا ولا تتعب نفسك بتعليته وترميمه . وحتى ان تنام ملء عينيك وابوابك غير موصدة !

قلت – انه لشيء رائع ... ومن هو هذا الحارس ؟!

قال – هوذا في السيارة ، انه في المقعد الخلفي !

تطاولت بعنقي ونظرت من خلال الزجاج وقلت – انني لا ارى شيئا؟

قال – عجبا ، ان لك بصرا حادا ، هو ذاك ، اقترب ، ليس مفترسا بعد ! ..

دنوت من الباب الجانبي الاخير للسيارة وطرحت ما في يدي والقيت نظرة الى قاع المقعد الخلفي وصحت بشيء من الاستهزاء لم استطع كبحه : يا له من جرو مسكين ! ... افهذا هو ؟!

وعندئذ رأيت وجه جاري من جديد . وجها اخر جديدا كل الجدة ، غضوبا عضوضا ومكفهرا وقد امتلأ بالتجاعيد التي لم تكن ظاهرة للعيان من قبل ، وقد جعله الغضب والتوتر شخصا تعسا جديرا بالرثاء .. فقد بدا لي كأنه جثة محنطة تحاول الحركة . والواقع انه تحول في نظري الى رمة بالية فقلت وانا شديد الاسف لما اصابه :

– هل اغضبتك كثيرا ؟! انه مجرد جرو ونحن على جيرة طيبة !.

قال – نعم ، انه جرو .. ولا يعرف الفضل الا ذووه !!

قلت – ان هذا صحيح فارجو المعذرة فلست من ذوي الفضل في فهم الكلاب ! فهل هو من سلالة جيدة ؟ ..

قال – طبعا ، لا اجود من سلالته !!

قلت – هل هو هجين ؟!

قال – نعم ، هجين من سلالتين رائعتي البسالة ! .. فيا له من هجين ، لو تدري كم بذلت في سبيل الحصول عليه ! وفوق ذلك فهو ذكر ، وان حيا عريضا كبيرا وطويلا ومتعدد المداخل والدور ذات الاسيجة الواطئة بحاجة شديدة جدا الى مثل هذا الحارس الامين !.. وشيئا فشيئا سيتعرف على جميع سكنة الحي ويميز بدقة بين الاصيل والدخيل !!

قلت – هل هو من سلالة ذئبية ؟!

قال – انك تهينه حين تقول هذا عنه ! انت على ما يبدو بكل اسف لا تفهم شيئا في انواع وسلالات الكلاب ! .. ولا يشفع لك انك شاعر وتكتب في الصحف ! .. على المرء ان يعرف هذه الاشياء الهامة المرتبطة بحياة الاخرين !

فقلت وانا اشعر بقليل من الحزن :

– المعذرة .. فانا حقيقة اجهل هذه الامور وبما ان معلوماتي تافهة في معرفة السلالات الكلبية ، الهجينة خاصة ، فارجوك ان تعرفني بنوعية وسلالة هذا الجرو ! ..

قال بارتياح من سيتحدث بصلابة ونجاح :

– انه من سلالة الزاسية جبلية وامه من كلابنا المحلية ، من اجودها نوعا وجدارة ، كانت امه كلبة في منطقة ((بشندر)) هل تعرف هـذا النوع من الكلاب ؟ .. يبلغ علو الواحد منها علو جحش بالغ وبحجمه او اكبر ! .

قلت – اذن فسيكون حيوانا مفترسا ضاريا مرعبا !

قال وقد انشرح صدره للثناء :

– هذا صحيح ، ولكنه امر ضروري وعلى جانب من الاهميـة بالنسبة لي ، فلقد اخذ بعض الاطفال من ذوي التربية السيئة يسطون على افنان دجاجي ويسرقون افضلها ... البيوض منها ! وهذا علاجهم ، انتظره شهرا وبعض شهر وسترى كم هو فتاك ... أن الكلاب حيوانات ضرورية اجتماعيا فلا تحمل كلامي على غير محمله ! .

ترضية لجاري العزيز المتهيج دنوت من الجرو واخذت امسح ظهره ، كان جاري يضمه الى صدره بكف حانية وفي عينيه بريق الفرح .. وكان شعر الجرو جعدا ناعما يتموج بكثافة دافئة ويشعر بنعومة الجلد البض الطري يغطي صدر عذراء ! .. كان دافئا يشعر بالصداقة وبشيء غامض يملؤك بالامتنان والاعجاب ! فقلت :

– حقا انه لكلب رائع ! ..

قال – انه بعد جرو ، ولكن له كل سمات مستقبله العريق في هذه الفصيلة ! .. واذا اكتمل قوامه صار تحفة للناظرين !

فقلت اجامله من جديد : – الا ترى يا صديقي ان تتحوط للامر فلا تجعل منه كلبا شديد الضراوة والا سبب لك مشكلات لا تحصى...

قال – اذن ما فائدته اذا لم يكن كذلك ! اذا لم تكن الكلاب من هذا النوع ضارية فلن تكون كلابا بل قردة تافهة تربى لمجرد الاضحاك ! وستـرى .

فازددت اكبارا للجرو فقلت لاحاول انشاء علاقة راسخة موطدة معه:

– انك على حق يا جاري الكريم ، انه على ما يبدو ، سيكـون نافعا للحي برمته . واذا ما صار ضخما ، وبرزت نيوبه ، يا الهي ، الا ترى ، يومئذ سيكون وحشا مفترسا اكثر مما هو كلب ؟!

قال بزهو وخيلاء – بالطبع وسأقرنه في الاصفاد واطلق سراحه في الليل ... الوقت المناسب للصوص والسفلة ! ما رأيك في لونه ؟. صحيح انه سيتغير قليلا ولكنه على العموم سيظل هكذا ، رماديا وقد يتحول الى شيء في شهبة العسل غير المصفى .. وعندئذ ؟ ..

فلما طال سكوته وتربيته بلطف على ظهر الكلب انبريت اقول :

– وماذا عندئذ ؟! .

قال – عندئذ ستموت فيه كل كلاب الحي غراما ! ..

قلت – كلاب الحي ام كلباته ؟! . ان الكلاب عادة ! ..

قال – على حد سواء ... الذكور من الكلاب ستخشاه والاناث ستراوده ولن يقع في غرام الذكر غير الانثى ... تلك هي سنة الحياة!

صاحت زوجه الشماء السمراء الناعمة الصوت التي لا ينقطع لها حوار تقول :

– لم تطيل الوقوف هكذا وقد فتحت الباب للسيارة منذ حين؟!. هيا ادخل ...

ولما مسيتها بالخير ردت بصوت رخو مهذب تسالني – ماذا معه؟..

قلت – انه حارس رائع للحي كله يا ام سرمد .. حارس من نوع رهيب ! .

القت السيدة زوجه نظرة متأملة نحو الكلب ولمست ذيله بعدم اكتراث وقالت ـ انه صغير ، انه لا يملأ العين ، اي عين ، افهذا ما وعدوك به ؟!

ودار بينهما حوار قاس فوجدت من المناسب ان انسحب فليس من الجميل ان اوري زناد الخلاف بوجودي بين زوجين جديدين .

وفي الليل تحدثت قليلا الى الاولاد عن كلب جارنا واضفيت عليه لونا من الابهة والفخار فبات الاولاد ليلهم يحلمون بالنهار ليملأوا اعينهم بمحياه الجميل ! ..

وصار الكلب على مر الايام والاسابيع حديث الازقة والاحياء المجاورة ووصل صيته الى ابهاء المدرسة الثانوية وتلهف استاذ علم الطبيعة الى رؤيته فكتب يطلب ان اجد له فرصة لتحقيق تلك الرغبة!! واعطي الكلب اسما مناسبا فصار ينادى باحترام بليغ ـ الاسد بورمان ـ ولا ادري من الذي اختار له هذا الاسم وكل ما اعرفه ان بورمان كان نازيا شرسا ، استاذا في فن ابادة الجنس البشري في الشعوب المتاخرة! ولكن صفة الاسدية كانت تضفي على بورمان الكلب روعة تبعد عنه ما يحيط ذكرى بورمان الجلاد من كراهية !

والعجيب في الامر انني وانا من القلائل الذين رأوا طفولة الاسد بورمان لم اعد اراه بعد ان شب عن الطوق كما يقولون ، سوى انني كنت اسمع هريره ولا بد انه حين كان يفعل ذلك ، كان يكشر عن نيوب هائلة مليئة بجراثيم الشر والضراوة ! حتى انني بدأت اخافه على ما بيننا من سياج مرتفع متين .. وكان لسوء الحظ مربوطا في مرأب السيارة وكأنه وضع هناك لئلا يجرؤ سارق على جر السيارة ومحاولة سرقتها ، في حين كنت اعرف من الرائحة الكريهة ان اقنان الدجاج تقع في اقصى الناحية الجنوبية من الحديقة !

وصار بورمان كلبا حقيقيا صوته اجش وفي هريره رعب يبثه بعربدة صبي مراهق ! وصار ضيوف جاري يخشون زيارة صديقهم، وحتى لا يجرؤون احيانا على دق جرس الباب فينادونه من وراء السياج وحتى في تلك الحالة كان بورمان ينبح بشدة ويشب ويهدد كل من نادى سيده !

واخذت كراهيتي له تزداد كلما ازدادت محبة الاولاد له،ولعل شيئا من الغيرة الكامنة قد انتابتني من هذا الحيوان الوقح الذي لم يكن يعرف من جيرتي شيئا محمودا حتى ولا يبادلني قليلا من الود عنطريق الشم وانرائحة تلك الصفة التي تتميز بها الكلاب او تنفرد ! .. فاذا هرعت لفتح الحنفية هر بورمان هريرا اشبه بالزئير وسمعت لاظفاره الحادة خشخشة كافرة على السياج ! وبدأت بعد حين احاوره حين امر بجوار السياج لفتح الحنفية ، وانتهيت مع نفسي الى ان بورمان يجب ان يروض ويعرف قيمة من يجاوره كعرفانه بقيمة من يساكنه !. فأخذت كلما ازداد هريره اصرخ به بمثل توتره واقول ـ اخرس يا بورمان ، ان لم تحترس سافعلها . اخرس يا اوقح الكلاب على الارض طرا ! . اني املك فعلا ما استطيع ان اخرسك به . » وكنت على حق فيما اقول ، ولفترة من الزمن انتهيت في تصميمي الى وجوب القضاء على الاسد بورمان .. بطريقة سهلة .. وانسانية ! قطعة طيبة من لحم الضأن ، اه ، وفوقها بعض السم القاتل ، وبعد ربع ساعة يخمد خلف سياج حديقتي هرير « القبيح بورمان » ومضيت اقول كلما صعد له هرير :

ـ اخرس يا بورمان ، أن لم تخرس !.. لا تضطرني الى ان افعلها ! .

وتوطدت الفكرة الشريرة في نفسي ضد الاسد بورمان ، وقد كان الحق الى جانبي فقد صار الاسد بورمان اسدا حقيقيا فيه كل صفات الاسد المفترس ! .. واخذت الدمدمة ترتفع ضده في كل بيت.. وهكذا اخذ النفور طريقه الى الاسد بورمان والى صاحبه. لا سيما بعد ان صار جاري المؤدب الصامت ، اكثر شجاعة وزهوا به وهو يأخذه للرياضة بين مساء واخر ، ممسكا بسلسلته المتينة التي يشد طرفها الى رسغ يده اليمنى زيادة في الحيطة والحذر ! .. وذات مساء قلت له وانا اتجنبه دون ازعاج :

ـ لقد صار كلبا حقيقيا ! ..

قال ـ بل اسدا ، فعلا انه اسد ، لا تنقصه سوى لبدة شقراء!..

قلت ـ نعم يا صديقي ، لقد صار كذلك !

فقال وهو فخور بما يقول ـ اتدري كم سأربح من نزاله بعد ايام؟!

قلت دهشا : ـ من نزاله ؟!

قال ـ نعم ، سانحدر به جنوبا ، هناك يوجد هواة من الاغنياء لا يزالون يربون كلابا للنزال والمعارك ... ويراهنون عليها بالكثير ...

قلت ـ اعرف ذلك وعندما كنت في وظيفة قديمة هناك، تعرفت على رجل اجرد طويل القامة كان مسؤولا عن تربية وحماية كلب من الكلاب الشرسة المعدة للخصام ، وكان يطعمه من حليب جاموسة خاصة به ويزوده كل صباح بوجبة من اللحم والثوم .. وصار بذلك من اشرس الكلاب ! ..

فقال جاري يحاول شد السلسلة : ـ وما قيمة تلك الكلاب بعد اليوم ، فلن يبقى لها الاسد بورمان ذكرا بعد الان . فان تغذية الكلب بلبن الجاموس واللحم المفروم بالثوم لا يجعل من الكلب اسدا في الوقت الذي ترى ، ان بورمان اشبه بالاسد ... يا له من كاسر وسترى!

وذهب جاري بعد اسبوعين الى الجنوب ، بعد ان حصل بمشقة بالغة على اجازة قصيرة لمدة عشرة ايام ، فان وظيفته كانت من الاهمية بمكان ! ورأيت جاري هذا يوم سفره وكان بورمان الاسد يقعي في المقعد الخلفي مشدودا بسلسلته القوية في مؤخرة المقعد بشكل فني لا يرهقه فودعني مبتسما وقال :

ـ وداعا ، ارسل لنا تمنياتك الطيبة !

واطبقت زوجه من خلفه باب الحديقة بغضب وامتعاض ...

ونسيت رحلته السعيدة فقد كانت لي ايضا مشاغلي الى ان رأيته عائداً بعد الاجازة ، وعجبت من امره فقد كان خائر العزيمة وحزينا... وفي الليل سمعت نباح بورمان اشد وقعا من الطبول المحروقة القريبة ، فصار نباحه يدق في ادق مشاعري واعصابي ويزعجني ايما ازعاج .

وعند الصباح وانا على اشد ما اكون من الاشمئزاز التقيت جاري يتلقى الحليب من البائع فقلت بعد التحية اعيد سؤال الامس :

ـ كيف كانت الرحلة ؟ ..

قال ـ ممتعة وحزينة !

قلت ـ وهل خسر بورمان ؟..

قال ـ لقد خاض ست معارك خلال تلك المدة القصيرة جدا وفي اربع جولات مزق ثلاثة كلاب من احسن انواع الكلاب المصارعة ، وبقـــر بطن احدها بشكل مقزز ، مزقه تماما ، ثم في الجولة الخامسة تضعضع قليلا وفي الجولة السادسة خسر تماما اولى معاركه ، فقد واحدة من اذنيه ، وانفتح في اعلى رقبته جرح ، عميق بعض الشيء! وازداد نباحه جفافا وخشونة !

قلت ـ وهل ربحت في هذه الرحلة الى الجنوب ؟ ..

قال ـ من الناحية المادية نعم ... نحوا من مئة وخمسين دينارا وجاموسة ...

فقلت ـ اذن فقد كوفئت مكافأة طيبة ، وعلى العموم ، كيف هي صحته ؟ ..

قال ـ انه في حالة نفسية مؤلمة يشعر بمذلة الهزيمة ، وينسى النصر الذي ناله في الجولات الخمس الرابحة ! . ادع معي ان تكتب له السلامة ونسيان تلك الجولة اللعينة التي خسر فيها واحدة من اذنيه!

ولم اعد اسمع للاسد بورمان هريرا وقحـــا ، فكنت حين احاذي السياج يهر هريرا يشبه الولولة ويئن متوجعا ، فاخذني الاشفاق عليه. حتى خيل الي انه يمر في ساعات مدلهمة من الكرب والالم ، وقلت ان جرحه لا بد في طريقه الى التسمم ، يا لصاحبه الشرس المتوحش! وفي المساء قلت لجاري المكتئب :

ـ ان نباح الاسد بورمان لا يعجبني !..

قال ـ كيف ؟

قلت ـ لم تعد فيه حيوية ، ان روح الافتراس قد انطفأت فيه، هل اخذته الى بيطار ؟ ..

قال ـ طبعا وجرحه يلتئم ولكنه جريح نفسانيا ،

قلت ـ يا للاسف لتأخر الطب النفساني ، والا لوجدنا من يرفع عن بورمان ويحلل مصدر تعاسته ! ...

فقال مغضبيا يحك عثنونه : ـ أتهزأ بي !؟

قلت ـ معاذ الله ، ان قلت الا صدقا .

فقال بحزن واسف : ـ بارك الله فيك ، لقد بدأت تحب هــذا الكلب الشجاع ! ..

وافترقنا وفي قلبي عليه غصة ، وبعد يومين وقد عدت من سفر قريب وجدت الوجوه من حولي مكفهرة مدلهمة فسألت اقرب اولادي الي « ماذا يجري ؟ .. ما المصيبة ؟ » فاجابت زوجي والاولاد سكوت :

ـ استرح قليلا ... كل شيء سيتضح في الوقت المناسب ، الا تأكل ؟ ..

قلت ـ لا ... ما المسألة التي ترسم على وجوهكم كل هــذا الحزن المرير ؟! ..

عندئذ وفي لحظة من الضعف البشري انطلق اصغر اولادي الى القول بصوت يمزقه الحزن : ـ لقد مات بورمان ، الاسد بورمان مات !

بغداد **عبد المجيد لطفي**

من دفتر وعل

لم يبق اله مسلول الشفتين .
هجرت حتى بجعات التبغ مقاهينا .

وكخارطة من خبز مبلول ازرق
تنجر مدينتنا .

لم يبق اله شفاف احمق .
هجرتنا اعياد الملح الوثني ،
والصاعقة المصنوعة من
قضبان اللوز المسروقه ،
وعقاب اخضر يملأ محبرة الصيف
بخيانة كبد مشقوقه .

لا ريشة طاووس
تتسكع في مرحاض البحر .
لا سفر رحيل .. لا عليقي من لهب
في اذن نبي .

هجرتنا الاسماك المقلية ، في
زنار القديس .

كهانك ماتوا .. .
يا حقل الذرة الصفراء !
(ويبيع طفالى الوعل من الضجر
سيف المطر .)

لا كلمة عاشقة فينيقيه
في نطفة خزير بري .
العالم يركض كالدينا صور المجهض
والموت كقطعة امتعة رثه
تستفرغ ،
أو
كرسي محطوم
ابيض .

بيروت **هنري فريد صعب**

النورس المهاجر

١ – يضج شاطىء الخليج بالنوارس العتاق
فنورس يعوم خلف قوت يومه ، ونورسان في عناق
جماعة كسلانة يلوح في عيونها الضجر
وثلة مقيمة ، وثلة على سفر
وبينها انا ، تغرس مستعجل سريع
اعدها ، وارتجي لقاء نورسي الوديع
فتستبد بي نوارس الخليج كلها ، وترتدي
نوارس الخليج اقنعه
فلا اعود اعرف الذي اضاعني وما سأل
وافقد الرجاء والامل
وانثني ، مناي ضائعه !

***

٢ – عشقت فيك قبل ان اراك عنفك الشديد
فقد نزلت منذ ليلتين في مضارب الفجر
اريد .. ربما صفاء ليلة بلا قمر
او .. لم اكن عرفت كنه ما اريد
وما عرفت ذاك قط ..
الا هناك ، اذ رأيت نمرة تمنطقت بسوط
ولوحت بقهقهاتها الجياع لي ، اشتهيتها ، ناديتها
فجئتني
جلدتني بسوطك المزمجر العنيف
جرحتني .. عيناك كانتا بحري غضب
وكنت ترجفين ،
احببت رجفتك
عشقت غضبتك
وضعت في مجاهل العيون !

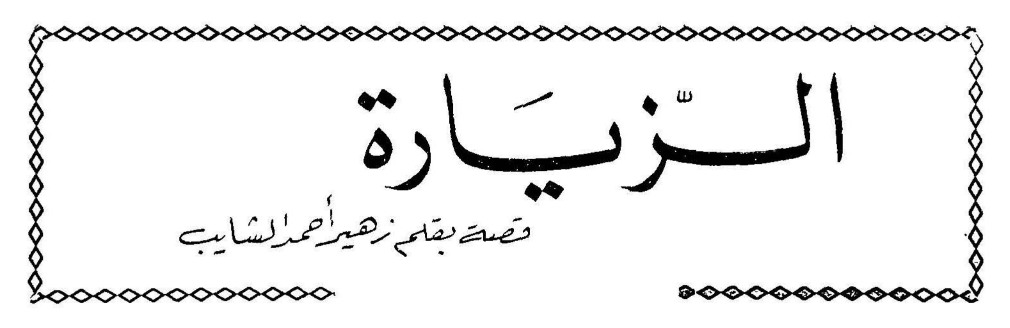
***

٣ – نورسي هاجري يا حبيبي انا
اي بحر ترى يرتمي بيننا
اينها ظلة كنت لي بالجناح الشفيق تمد
اينها نعمة كنت لي دائما ترتجي ، وتعد
ولمن اشتكيه اساي المرير اذا ما اتاني المساء ؟
ولمن ارسل اللحن من فرحتي ان فرحت ، لمن استطيب الغناء؟
للضواري الحسان ترى من بنات الغجر ؟
ام لليلي الطويل الذي لا نجوم تضيء دجاه ولا .. لا قمر ؟
كنت لي انت خير حبيب سمير
ثم ضعت فضعت ويا ... يا لهول المصير !

***

٤ – يضج شاطىء الخليج بالنوارس العتاق والطيور
وطائري انا ، مهاجر ولا يني يطير
وخافقي الكسير لا يني يضج بالاسى المرير !

حكمت العتيلي



مجاهد ، اشهر فقير في قريتنا . اسمه بالكامل مجاهد عبدالسميع راضي . رجل طيب ومستقيم ، خجول كعذراء ، صبور كجمل ، متسامح، يسمع سخرية الاطفال فيعجب لذكائهم ، وقد يدعو لهم بطول العمر ، فالعيال احباب الله ، وزينة الحياة الدنيا ، وله منهم خمسة ، اصغرهم مريض . اشاروا عليه أن يذهب الى المستشفى في شبين الكــوم . المواصلات سهلة ومريحة . ولكن .. الشكوى لغير الله مذلة، والشفاء دائما من عنده . صدق ابوه حين كان يقول ، انه ((هو)) حكيم الفقراء. ولكن .. اف على الانسان . عجول لا يطيق الصبر . كل شيء سيتحسن باذن الله ، وقلبه لا يكذب ابدا . وزوجته هي الاخرى بنت حلال . منامها لا يخيب . رأت المنام نفسه ثلاث ليال متتالية . وسط دارهم مليء بكيزان الذرة الخضراء . كتاكيت لا حصر لها تملأ البيت . اللون الاخضر في المنام خير ، والكتاكيت بركة لا حد لها .

ـ انت يا مجاهد . انت نايم ؟

ـ لا ابدا يا شحات .

سأل شحات عن اللمة وتجمع الناس . اوجز مجاهد في اسلوب يناسب جلال المناسبة ان موكب المحافظ سيعبر القرية .

ـ المحافظ ! معقول ؟ طيب اسمع يا شيخ الخفر ..

كثرت ثرثرة الشحات . ضاق به مجاهد وغضب من سخريته ، فهو جلف لا يعرف الاصول . الحصان الابيض الذي يركبه الصول توفيق قادم نحوه . لا تجوز السخرية والثرثرة في هذه الساعة .

ـ اسكت يا شحات . عيب .

ضحك الشحات عاليا . قال بلسانه السليط يسخر منه :

ـ حاضر يا حضرة الشاويش .

غلى الدم في عروق مجاهد . رفع خيزرانته فجأة وبغضب .

ـ والله العظيم اضربك . انت فاهم ؟ عمى في عينك .

تراجع الشحات واغلق فمه . الناس لا تأتي الا بالشدة . انــت المخطيء يا مجاهد . سكونك جعل الطابور حولك يختل . الاولاد تخطت مكانها ، وثرثرة الفلاحين لا تنقطع . رفع مجاهد خيزرانته مهددا فانتظم الطابور .

ـ خذ بالك يا مجاهد .

ـ حاضر يا حضرة الضابط .

انت سبب البلاوي يا شحات الكلب . اول مرة يأخذ عليه اي واحد من الرؤساء اي مأخذ . لماذا سرحت يا مجاهد ؟ انت يا من تسهر الليالي ولا تنام . نوم الخفير بالليل خيانة . ارواح الناس امانة في رقبته . سيسأل عنها امام الله . ان كان الناس لا يعرفون فضلــك ، فالفضل لن يضيع عنده . اللصوص وحدهم هم الذين يعرفون من هو مجاهد . يخافونه كالموت . لو كان زميله ((خضر)) مكانه تلك الليلة ، لضاعت بقرات الشحات . الشحات نفسه الذي يسخر منه الان. اناس لا خير فيهم .

ـ انت يا ((اخينا)) ، ستقابل المحافظ بالقميص ؟!

ـ وانت مالك ؟

ـ اخرس يا كلب .

الشدة دائما تنفع يا مجاهد . انصرف الشحات وكفاك ثـرثرته وسخريته . وحتى لو عاد ، سيعود متادبا وفي مظهر يليق . حافي ولا يرتدي سوى القميص ؟ لا يليق ان يرى المحافظ هذا . لكن .. الاطفال يا مجاهد . اللعنة على امهاتهم . وجوههم ((مقشفة)) لم يلمسها الماء. الذباب يحط عليهم . الذباب شيء خطير تسبب في مرض محمود ، ابنه . آه ! متى تتنور النساء ؟ ماذا تقول في الجهل يا مجاهد ؟ لكن المحافظ سيزور القرية . سيزورها اليوم . وكل شيء يجب ان يكون في مظهر يليق . بالله لو غسلت الامهات وجوه ابنائهن، ماذا سيتعبهن؟ قدم تقدير للمسئولية بحق . تظن الناس كلها مثلك يا مجاهد ؟ هم ينامون وانت يقظ ، وكل شيء لن يضيع هباء . شيء مفاجيء يثيــر سخطه . لفافة من الاوراق تلقى في وسط الشارع . من قذف بها ؟ ارغى مجاهد وازبد ، وجرى على لسانه كلام كثير ، وبسرعة حمل الورقة ، والقاها بكل قوته . قرية تستحق الحرق . لا نفسل وجوه ابنائها، وندع اجسادهم للذباب . يحرسهم بالليل ويسخرون منه بالنهار . لو كانوا يفهمون، لاغتنموا الفرصة التي لا تلوح للقرية الا مرة في العمر. المحافظ سيزورها ، ولو رضي عنهم لاصابهم الخير ((العميم)) ، ستبنى المدرسة الاعدادية ، سيقام المستشفى الذي تعطل بناؤه عامين . المستشفى يا مجاهد . لو يمكنك ان تغير الناس يا مجاهد ! لو احتذوا حذوك ! كل شيء فيك في الحقيقة لامع يليق . الولد ((عتريس)) ـ عافاه الله ـ احيا حذاءك من الموات . جعله لامعا كالجديد . هذا ما كان يحمل همه مذ علم بالزيارة . مجاهد يتأمل نفسه . لمس بيده كسرة ((المكوى)) في كم جلبابه . الجلباب ناعم مسحت خشونته ((حديدة)) الكواء . كل شيء فيك لامع يا مجاهد . حتى ماسورة البندقية . الزيــت ازال صدأها ، وبقطعة خرقة تلفت لبندقيتك الانظار . حذار يا مجاهد وانت تجلو ماسورة البندقية . فوهتها في بطنك . زميل لك في قرية مجاورة فعل ما تفعل فانطلقت في بطنه رصاصة . ماذا يفعل الاولاد بعدك؟ لكنه يستطيع ان يرى نفسه بحق ((اشيك)) خفير . شاهد ملابس خضر وسلطان وعطا وغيرهم من زملائه ، حتى ملابس شيخ الخفراء نفسه ، فشعر بامتعاض . انت بخلاف الناس جميعا يا مجاهد . حتى انظر الى منطقة خضر وسلطان . الكلام والثرثرة والطابور المعوج . الصول توفيق لا يفارقهما ، ومنذ حادثة الشحات لم يعد اليه . الثقة فيك يا مجاهد كبيرة . يجب ان تكون اهلا لها . لكن .. لو ان الاطفال كانوا نظفا ! يا عالم من تظنونه ؟ انه المحافظ . مجاهد يود ـ لو ان الامر بيده ـ ان يفرش له الارض بالحناء . عربته ستغوص في هذا التراب ؟ وتلوث عجلاتها بهذا الطين ؟ اولاد الكلب ، القوا الماء في الشارع من ايام . لو يعرف من هم ، لسقاهم من الطين .

ـ خذ بالك يا مجاهد . الطابور .

مرة اخرى نسيت نفسك يا مجاهد . الشاويش عبد المجيد على دراجته يكرر التنبيه . لا بد ان موعد قدومه قد ازف

ـ انت يا ولد . انت يا بنت .

الخيزرانة تلسع من يجتاز الطابور . الاولاد يتراجعون . عيونهم تبحلق في الاتجاه الذي سيأتي منه . اللغط يزداد .

ـ هس يا ولد . اخرسي يا بنت .

مجاهد يهدد من يتحدث بان ينهال فوقه . لا بد ان امرأته على غير بعيد منه ترى سطوته . قلبه يدق بعنف . آن الاوان وسيرى المحافظ ، وسيراه المحافظ . سيأتي موكبه من هذا الاتجاه . سيغضب بالتأكيد من اعوجاج الطابور في مناطق خضر وسلطان وعوض . سيقرف من ملابسهم . حتى وضع الانتباه لا يعرفونه ؟ حرام والله ان يكونوا

من رجال الحكومة . سيخجل منهم حضرة الضابط ، وسيشتمهم :
ـ يـ حفر العالب لصعوا . كونوا مثل مجاهد . رجل عارف واجبه.
يصيه الضابط . كبيرا . انت احسن خفير يامجاهد . أستغفر الله . لا يستكر في نفسه الا ابليس . لكن الانسان يفتاظ بحق . هل هؤلاء خفر ؟ رجل الحكومة لا بد ان يظل يقظا . لا ينام في دركه . كل ليلة سرق الدورية بلدية واحد منهم ونضعه في ((سين وجيم)) .. لم نحدث معه مثلا هذه الحكاية والضابط يعرف هذا جيدا . حتـى زوجه الضابط ـ الشبه الحلوة ـ هي الاخرى معجبة به . بلسان زوجها نفسه تقول :
ـ ليس فيهم الا مجاهد .
ولا ينام ويسمع نوما الا اذا كان منزله في دركه . طيبة والاصيل اصيل . ويا رب حكمتك . لا هو بالمن ولا هو بالحسد . اولادها فـي بياض السهد وصحة الحصن . كل شيء بامره يا مجاهد ولا داعـي للكدر . الفرج قريب وحلم زوجتك لا يخيب . سيمر المحافظ وهـو متأفف . وعندما يصل الى مكان منطقتك سيتوقف . رجل النظام يحب النظام . سيشير الضابط اليه : هذا يا حضرة المحافظ احسن خفير لدينا . يحسده اللصوص بالعمى . ساهر لا ينام . زوجتي لا تشعـر بالاطمئنان الا في نوبته . سيستدعيه المحافظ . تعال يا مجاهد . رنين الكلمة جميل . سيعرف المحافظ اسمك . سيعرف اسمك . سيعرفك يا مجاهد . وسينزل من العربة . الضابط يبتسم ابتسامته الجميلة . زادهم الله من فضله .
ـ اسمك ؟
ـ مجاهد عبد السميع راضي يا سعادة البيه .
ـ طلباتك يا مجاهد .
ـ الستر يا فندم نعمة وعطاء .
ـ عندك اولاد ؟
ـ خمسة يا سعادة البيه كلهم ان شاء الله خفر فـي خدمة الحكومة .
ـ خمسة ! ما شاء الله .
ـ لكن ..
ـ هه . قل يا مجاهد . قل يا بطل .
ـ محمود . اصغرهم . مريض يا سعادة البيه .
ـ مريض ؟ يعالج في الحال .
ـ يا حضرة المحافظ هذا الخفير قبض على عشرين حادث سرقةفي اقل من شهر .
ـ صحيح كلام الضابط يا مجاهد ؟
. تكلم يا مجاهد ولا تخجل . هذه فرصتك .
ـ .. والمسك حادثة قتل في غير دركه . ومن قبل ان تقع .
ـ لا يوجد في الدنيا كلها خفير بهذا الشكل . يزاد مرتبه جنيها كـاملا .
امسك قلبك يا مجاهد .
ـ .. ولا بد من مكافأة ضخمة .
كم ستكون المكافأة يا ترى ؟ عشرة جنيهات ؟ خمسة عشر ؟ ربمـا عشرين . المحافظ والضابط يحيطان به . انتباه يا مجاهد . وصورة للحفظ . امرأته تزغرد من الفرحة . ليس هكذا يا امرأة . لا يصح هذا امام المحافظ . المحافظ يبتسم . والجرائد تنشر الصورة ، ويناديه الشيخ مصطفى مسعود في دكان بقالته :
ـ تعال يا مجاهد . صورتك في الجريدة مع المحافظ .
ـ لا احد قدك يا مجاهد . بقيت من الحكومة .
ـ طول عمره من الحكومة يا ((مغفلين)) .
ـ انبسط يا عم . سيعرفونك في ((مصر)) .
القاهرة أيضا ستعرفك يا مجاهد . احلام يا اولاد ؟ كل شيء عند الله ميسور . الجرائد تنشر صورتك . واسمك يا مجاهد سيكتب بالمطبعة . بالمطبعة يامجاهد . يعني كبيرة ؟ صور المجرمين تنشر هـي الاخرى . مجاهد يعجب ان الصحف تنشر صور المجرمين .
ـ والله ، حقهم الاعدام لا الشهر .
الحقد سيأكل قلوب خفر وعطا وشيخ الخفراء ايضا . من يدري؟ قد يرقونك مكانه . او لعل المحافظ يجعلك من حرسه . قلبك يدق يا مجاهد . امسك نفسك . يجب أن يكون مظهرك لائقا . ترى هل ((اللبدة)) في وضعها المرسوم ؟ لو كانت معه مرآة ! لعل التراب قد ذهب بلمعان نحاستها . او يسمح الوقت بدقيقة يطمئن فيها على مظهره !
ـ الخفير مجاهد عبد السميع راضي . شد وسطك . انتباه !
عاد الشحات الملعون الى عبثه مع شلة من زملائه الاجلاف. مجاهد يفت . الغضب اخرجه عن وعيه . فلاحون بحق لا يعرفون الذوق . النظام اخـل يا مجاهد . سيفسد الملاعين كل شيء . ولن يجد المحافظ شيئا يرضيه في البلدة . سيظنه كغيره من الخفراء . حتى الضابط سيغضب : ـ حتى انت يا مجاهد نظام منطقتك مختل ؟
ـ الاولاد يا حضرة الضابط .
ـ الاولاد ؟ يا اخي اضربهم .
وبالعصا يصلح كل معجوج ، والصمت خيم على الشياطين. الطابور في استقامة الشوم . السكون شمل الجميع . لكن اف علـى جيوش الذباب . عينا مجاهد تتحركان في محجريهما . عينا مجاهد في وسط رأسه . عيناه تريان من امام ومن خلف . يمناه تتأكد من وضع لبدته. تلمس نعومة ذقنه الحليقة . شاربه المفتول دليل رجولة . البندقية لامعة وكذلك نحاسة اللبدة . كل شيء على ما يرام . منامك يا ام محمود لا يخيب . سترين الان قيمة زوجك . قلبك يدق يا مجاهد . عيناه عودان لتفرضا على الاولاد الصمت والسكون . عصاه كفيلة بأن تدق رأس اي عابث كالشحات .
ـ استعد يا مجاهد .
ـ حاضر يا شاويش . ((جاهزين)) .
مجاهد يسمع دقات قلبه . اصوات من بعيد تصيح . سحابة غبار تلوح عن بعد . الصياح يزداد . الضجيج يعلو ودقات قلب مجاهد تعلو اكثر . الصياح يقترب وما تحت السحابة يتضح . ست عربات امامها وحولها متوسيكلات . العظمة تضج من محركاتها . عظمة وسلطان وجل صاحب الامر . لكن .. اين المحافظ . وضابط النقطة ؟ في اي عربة . الصياح يمتد الى منطقته كما تمتد السنة النيران في الحطب . الاولاد

ينذفعون نحو الموكب . اختل النظام .

ــ مكانك يا ولد . مكانك يا بنت . يا اولاد الـ ...

لا احد يسمع يا مجاهد . لكن أين المحافظ . في أي عربة. ست عربات . ابعد يا ولد . حافظ على النظام . ماذا تجدي عصاك الان يا مجاهد؛ الموسيكلات كفيلة بابعادهم عن الموكب . حذار يا ولد ان يدوسك احدهم . اين ضابط النقطة ؟ الموكب يقترب جدا . نسيت نفسك يا مجاهد . اقفل فمك المفتوح فهذا لا يليق . بندقيتك ليست في وضع انتباه . الملاعين داسوا حذاءك اللامع . كسرة « المكوى » مسحها جذب الاولاد . انت رجل حكومة . لا تنس نفسك كالاطفال . العربات في مواجهته تماما . اين المحافظ من بين كل هؤلاء ؟ لا اثر لضابط النقطه.

ــ يحيا سيادة المحافظ .

ــ يحيا العدل .

ــ عاش رجال الحكومة .

ــ نريد المدرسة الاعدادية .

ــ نريد المستشفى .

اخرس يا ولد . اخرسوا يا كلاب . ليس هكذا تكلمونه. الاجلاف مستمرون في هتافاتهم . لا احد يستمع لاوامرك . سيغضب من قلة الذوق هذه . لكن . اين هو ؟

ــ من هو المحافظ يا شحات ؟

ــ من فينا يسأل الاخر ؟

دقات قلب مجاهد تزداد عنفا . العرق يرطب وجهه ويبلل جبهته. شعر رأسه يقف . عيناه زائغتان . ضابط النقطة لا اثر له . الموكب يجتاز مجاهد بمسافة كافية . نار الحماسة تنطفىء في منطقته لتشتعل في منطقة عطا حيث الموكب . الاولاد من حوله يصمتون كجمرات نار انطفأت ، ثم يتبعثرون كالرماد . مجاهد يعجب لتفرقهم . نظراته لا تزال تترقب . موكب المحافظ لم يصل بعد . لماذا يتفرقون ؟ ..الضجة من حوله تزداد خفوتا .. الصول توفيق قادم على حصانه الابيض من الاتجاه الذي ينبغي ان يأتي منه المحافظ .

ــ مجاهد . اذهب يا ابني واسترح . انتهت على خير .

ــ وموكب المحافظ ؟

ــ امرك عجيب . هو الذي مر .

السؤال يفلت من لسان مجاهد دون وعي وبصوت هاتف :

ــ والمحافظ كان موجودا ؟

ــ طبعـا .

الكآبة تعلو ملامح مجاهد . نظراته تسبح في الهواء . الصـول يتأمله بتمعن . يهز رأسه في عجب ، ثم يقهقه عاليا . يقول وهـو لا يقصد الا الضحك :

ــ ما لك يا مجاهد ؟ كنت تريد شيئا من المحافظ ؟

مجاهد يفيق في جزع . ينظر الى الصول على حصانه الابيض. قامة الصول في علو مئذنة ، ورأس مجاهد ــ على طوله الفارع ــ ادنى من بطن الحصان . صوته يأتي من بعيد :

ــ انا ؟ .. لا .. ابدا ..

الصول ينصرف قبل سماع الرد . مجاهد يجرجر قدميه . بندقيته تتهدل من فوق كتفه . رأسه مطأطأة . حذاؤه يغوص في وحل حارته ولا يبالي . امرأته تلحق به . تحمل طفلها المريض الذي يئن . تحادثه فلا يشعر بوجودها . نظراته تتأمل جيوش الذباب عن يمين وعن يسار، وهي تهب من سباتها عند مرورهم. طنينها وحركتها يتوازيان مع خطوات الموكب الصامت ، وخلف الموكب تموت الحركة ، ويصمت الطنين،ويحط الذباب ليختفي في اكوام « السباخ » .. مجاهد يضيق بالطنين،ويلعن القذارة والجهل ، والصمت والرطوبة . مجاهد يرفع رأسه الى السماء يلتمس اشعة الشمس . صورة الصول توفيق على حصانه الابيض تلوح كمارد اسطوري ، وسؤال يرد على خاطره فجأة : يا ترى في اي عربة من العربات الست كان المحافظ ؟

القاهرة — **زهير احمد الشايب**

القيم الاجتماعية قبل الاسلام

— تتمه المنشور على الصفحة ١٦ —

◇◇◇◇◇◇◇◇◇

شرفهم الزائد وما يستتبعه من حفاظ شديد على حسبهم ، حتى انهم ليفضلون اعزاز الوطن والتمسك به على ان يهجروه الى مرعى اخصب. وبفخره هذا يدلنا على ان القبائل الرفيعة عندهم بدأت تعرف الصلة بارض الوطن واعزازها على الرغم مما يصيبها في اوقات الضنك .

لكن فخره هذا يكون لا معنى له ، او يكون مجرد حماقة منهم ، لو كانت دارهم ستظل مجدبة الى الابد ، وكانوا سيظلون مقيمين فيها على اجدابها الى الابد ، فان هذا يكون منهم انتحارا . اذن لا بد أن تكون للمعنى بقية يفهمها السامع ، وهي انهم انما يبقون فيها في وقت جدبها لانهم يأملون وينتظرون ان تعود الى سابق خصبها مرة اخرى ، بعودة الامطار اليها. ففخره اذن هو انهم لا يسرع اليهم الخوف والجزع حين تصيبهم سنة ، فيسرعون الى هجران الدار بحثا عن مكان مخصب، بل هم يصبرون فيها ويتجلدون على شدائدها الى ان تتغير الاحوال مرة اخرى . والشرح القديم يستشهد بثلاثة ابيات اخرى في هـذا المجال ، ومنها نستنبط علة اخرى لبقائهم في دارهم وان اجدبت،وهي ان يشتهر عنهم انهم ذوو حفاظ عليها ، وانهم ليسوا ممن يتركونها بسهولة ، فلا يطمع فيها طامع حين ينتهي الجدب ويحل بهـا المطر والخصب . وهذا يجيز لنا ان نضيف معنى اخر لقوله ((دار الحفاظ)) ازيد مما قاله الشراح القدماء . فحفاظهم عليها لا يعني صبرهم على جدبها حين تجدب فحسب ، بل يعني ايضا صبرهم على قتال الطامعين فيها المهاجمين لها حين تكون مخصبة ، الى ان يشتهر عنهم ذلك فلا يعود احد يطمع فيها ، وهو معنى سيزيده الحادرة ايضاحا في بيت قادم له .

ولكن لاحظ بعد هذا كله ان الحادرة لا يفخر بانهم يقيمون فيدارهم الى الابد ، بل يقول ((زمنا)) ، وهو يعني بالطبع زمنا طويلا ، لكن حتى قبيلته لم تعرف بعد الارتباط الدائم بمكان واحد لا يتغير ، فقد كان هذا مستحيلا على معظم قبائلهم في البادية . ونحن نعرف من اخبار التاريخ التنقل الدائم الذي كان يحدث في اماكن القبائل ومدارات هجراتها ، وقد كان هذا من اهم الاسباب في وقوع وقائعهم المشهورة بايام العرب . لكن نعود فنقول ان بعض القبائل ، ومنها فيما يبدو ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، قبيلة الحادرة ، كانت قد بدأت تطيل الاقامة في بعض الديار حتى تشتهر بها . فالبيت يسجل مرحلة تاريخية متوسطة بين البادية المستمرة الترحل والحاضرة الثابتة الاقامة .

بعد هذا يأتي بيتان متقاربا المعنى ، يضطرب القدماء في روايتهما، واولهما من رواية ابن الاعرابي وحده ، والشطر الاول من كليهما يكرر نفس التعبير ((لا يسرح اهله)) . فلسنا ندري اهكذا نظمهما الشاعر وقصدهما معا فالتكرار فيهما مقصود لتأكيد المعنى ، ام احدهما تنقيح قام به الشاعر نفسه ملغيا به الاخر ولكن الرواة احتفظوا بكليهما ، ام هذا التكرار من مجرد اختلال الرواية . وكل هذه الفروض الثلاثة جائز وكلها له نظائر في روايات الشعر الجاهلي . لكننا سندرسهما كما وردا وان كنا نرجح الفرض الثاني ، تاركين للقارىء أن يرجح ما يشاء .وهذا اول البيتين :

ومحـل مجـد لا يسـرح أهلـه   يـوم الاقـامة والحلـول لمرتع

يبدو هذا البيت مكررا للفخر الذي تقدم في سابقه ، لكنه يضيف تفصيلا مفيدا ، وذلك حين يقول ((يوم الاقامة والحلول)) ، ويعني الوقت الذي ينبغي فيه عليهم ان يقيموا بالمكان ويحلوا فيه خيامهم ولا يغادروه ، فما هذا الوقت ؟ يقول الشرح القديم : ((وان كنا في جدب لا نترك احياءنا وعشائرنا ونرحل في طلب الخصب .)) فالجديد هنا اشارته الضمنية الى ما يسميه الشرح ((احياءنا وعشائرنا)) وهذا يعني الاحياء والعشائر الاخرى التي تنتمي الى نفس القبيلة الكبيرة بني ثعلبة . ومن هذا نفهم المعنى الجديد ، وهو انه اذا اصاب الجدب ذلك المحل لم يبادر حي الشاعر الى هجرانه مخلفين وراءهم سائر احياء القبيلة ، بل هم يبقون معها وينتظرون ما تقرره كوحدة متضامنة ، ولا ينتهزون الفرصة ليسبقوا غيرهم الى احتلال مكان اخر خصيب .

فلنتذكر مرة اخرى انه لا وجه للفخر ان لم يكن ما ينفيه عن حيه يحدث من اخرين . ولا غرابة في هذا اذا تذكرنا الفقر العظيم الذييسود الصحراء فيثير في كثيرين خصال الطمع والمبادرة الى اقتناص المنافع مهملين واجباتهم نحو اقاربهم . فان يبد لنا هذا مخالفا للصورة الشائعة عن القبيلة وشدة ترابطها ، فان ما نقوله وما ذكره الشرح القديم وما اشار اليه الشاعر نفسه ضمنا تشهد به حوادث كثيرة نجدها في اخبارهم القديمة ، وتجدها ايضا في اخبار ايامهم اي وقائعهم الحربية المشهورة ، وتجد صداها في نقائض الاخطل والفرزدق وجرير. فقد كانت بعض احياء القبيلة الواحدة تهجر سائر الاحياء لا في وقت الجدب فحسب ، بل في وقت هجوم العدو ، تاركة لسائر الاحياء ان تلقى هذا الهجوم وحدها ، غير عابئة بما ستكسب بهذا من العار فيما بعد .

اما قوله ((ومحل مجد)) فهل يعني به المعنى الاصلي او المعنى المجازي للمجد ؟ اما المعنى المجازي فكلنا يعرفه وهو الان الاستعمال الوحيد الذي نستعمل فيه كلمة المجد . واما المعنى الاصلي الحسيفمن قولهم مجدت الابل وقعت في مرعى كثير ، ونالت من النبات الرطب قريبا من الشبع . ومجدها الراعي اشبعها او علفها ملء بطنها او نصف بطنها. فالمجد كما ترى يدل على الشبع او ما يقاربه . فان قلت انه قد يدل ايضا على نصف الشبع ذكرناك بان هذا ايضا خير وبركة للبدو في صحرائهم ذات العوز الشديد ، فهم قل ان يأملوا فـي الشبع الكامل ، فاذا اصابوا نصفه قنعوا به وسروا . تزداد ادراكا لهـذه الحقيقة اذا عرفت نظام ورودهم للماء ، فما قلناه عن الطعام ينطبق ايضا على الشراب . فهم قل ان استطاعوا ان يردوا الماء بابلهم كل يوم، واكثر ما يطمعون فيه عادة ان يردوه يوما ويظمأوا يوما . وقد يردونه يوما ويظمأون يومين ، او ثلاثة ، او اربعة . ولكل من هذه الانظمة — او الاظماء ، جمع ظمء — اصطلاح لغوي خاص .

ومن هذا المعنى الحسي للمجد جاء المعنى المجازي للمجد بمعنى الشرف او الكرم او كرم الاباء خاصة ، لان القبائل العزيزة النسب هي التي تفوز عادة بتلك المراعي الخصيبة التي تعطي ابلها الشبع او ما يقاربه . كما ان كثيرا من الفاظ العربية ان لم يكن اكثرها لها اصل حسي وان دلت على معان تجريدية (والشرف نفسه اصله المكان المرتفع من الارض) .

والذي نراه هو ان الحادرة قصد الى مزيج من المعنيين الحسي والمجازي . فهو يقول انهم لا يهجرون هذا المكان وان اجدب ، لانه اول ما نزلوا به لم يكن مجدبا بل كان خصيبا يعطيهم الشبع او قريبا منه ، فالان اذ حل به الجدب يؤثرون ان يظلوا به مخلصين له متمسكين به، آملين ان يعود المطر فيغيثه بعد ان ضن عليه ، لانه ارتبط في اذهانهم بمعنى الشرف والكرم فصار مكانا عزيزا على نفوسهم، خصوصا لان بعض احيائهم تقرر البقاء به الى حين فلا يخونهم قوم الشاعر ولا يهجرونهم. فان صح رأينا في ان ((المجد)) في هذا البيت مزيج من المعنيين الحسي والمجازي ، كان هذا البيت شاهدا طريفا على اختلاط المدلولين في ذهن الشاعر القديم . وكأن هذا يحدث في زمان شباب اللغة قبل ان تتحول المجازات الى اكليشيهات محفوظة تنفصل لدى مستعمليها عن اصولها الحسية . ونظيره لا يزال يحدث للاطفال حين يبدأون فـي الانتقال من الفهم الحسي الى الفهم المجازي للتعبيرات اللغوية . ومن هذا نستنبط درسا هاما ، هو اننا في قراءتنا للشعر القديم ، وللنثر القديم ايضا ، يجب علينا دائما أن نتذكر المعنى الاصلي الحسي للكلمة او التعبير ، وان نتمثله تمثلا حاضرا في مخيلتنا ، والا اضعنا علـى انفسنا كثيرا من عناصر الحيوية والجمال في الادب القديم .

بسبيـل ثغـر لا يسرح اهلـه   سقـم يشـار لقـاءه بالاصبع

هذا هو البيت الاخير في فخره بقومه . فان صح ترجيحنا انـه صياغة جديدة يحلها الشاعر محل بيته السابق ((ومحل مجد)) ، كانت الباء في قوله ((بسبيل ثغر)) متعلقة بقوله ((نقيم بيوتنا)) في البيت الاسبق . ونستطيع في ضوء شرحنا الماضي ان نفهم هذا البيت الجديد الذي اضطرب الشراح القدماء في فهمه ، فقالوا ((لا يسرح اهله اي لا

يسرحون مالهم من خوف العدو . » وقالوا اشياء اخرى لا نقل خطأ . والحقيقة هي ان هذا البيت يعطي النتيجة التي تنتج مما ذكره الشاعر من قبل من اصرارهم على الحفاظ على ديارهم وان اجدبت احيانا . اذ يشتهر عنهم انهم قوم يحافظون على وطنهم ولا يتخلون عنه بسهولة، فترهبه القبائل الاخرى ولا تطمع في غزوه حين يعود اليه الخصب . بل هي تتحاشاه اذا مرت به في اسفارها ولا تقترب منه بل تشير اليه باصبعها في خوف شديد .

وتعبيره « يشار لقاءه بالاصبع » تعبير جميل في تصويره للفزع والتحاشي بهذه الحركة الحسية . نكاد نرى رجال القبائل الاخرى يمرون بالمكان عن بعد فيرتعدون خوفا ويمدون ايديهم المرتعشة يشيرون اليه ويقولون « هذه دار بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان فاحذروها ولا تقربوها ! » اما وصفه المكان بانه « سقم » فوصف غاية في الدقة والجمال . فقوله « سقم » معناه مخوف يخشاه الناس . وهنا يقول الاستاذان اللذان لخصا الشرح القديم وطبعاه طبعة حديثة ان هذا المعنى لكلمة « سقم » لا يوجد في المعاجم . وهو حقا لا يوجد في المعاجم ، ولكنه تعبير شخصي مبتكر من هذا الشاعر ، ومن واجبنا ان نفكر ماذا عنى الشاعر بتعبيره المبتكر هذا ؟ هو يصور به ما يشعر به الخائف في احشائه من السقم والغثيان ، وهذا شعور نعرفه جميعا اذا تذكرنا تجربة احسسنا فيها بالخوف الشديد فشعرنا باثره في احشائنا. ومن الطريف ان هذا التعبير الذي استعمله هذا الشاعر العربي الجاهلي يذكرنا بالتعبير الانجليزي الذي يساويه تماما sickening fear أي خوف يؤدي الى المرض والغثيان . وهذا مثل طريف على تشابه التعبيرات الانسانية الناشئة عن تشابه الانفعالات الانسانية على الرغم من الاختلاف السحيق في الجنس والبيئة والزمان .

واما وصفه المكان الذي يقيمون فيه بانه « ثغر » فيعني به فخرا زائدا . فالثغر هو المكان المفتوح ، ومنه سمي الفم ثغرا لانه فتحة في الوجه . والمكان المفتوح هو المكان غير المحصن تحصينا طبيعيا ، فهو عرضة لهجمات الاعداء لانهم يستسهلون غزوه . ومن هذا سميت حدود الوطن القريبة من اراضي الاجانب ثغورا لانها عرضة لغزوهم (واستعمالنا الان للثغر بمعنى المرفأ البحري فقط هو استعمال ناقص لا يعطي كل المدلول الاصلي للكلمة) . ووجه هذا الفخر هو انهم يقيمون بهذا المكان لان لديهم في عددهم وقوتهم وبأسهم وشجاعتهم ما يفي بحمايته دون حاجة منهم الى جبال عالية تحيط به او اراض وعرة تصونه من هجوم الاعداء . فهذه الكلمة الواحدة « ثغر » فيها كما ترى زهو قوي وادلال كبير من الشاعر ببأس قومه . ولم تكن القبيلة تجرؤ على الاقامة بمثل هذا المكان الا اذا كانت واثقة من نفسها حقا ، اما اغلب القبائل فكانت تبذل جهدها في ان تتخير لاقامتها مكانا له بعض التحصين الطبيعي . وبهذا نفهم القوة الكاملة للفخر في سائر البيت ، فبرغم ان هذا المكان ثغر مفتوح غير حصين ، يخشاه الاخرون كل هذه الخشية التي صورها الشاعر ، لمجرد اقامة قبيلته به .

***

بهذا يتم الحادرة فخره القبلي ، وقد رأى القارىء المنهج التاريخي الاجتماعي الذي اصطنعناه في دراسة فخره هذا ، وكيف حاولنا ان نستقري من هذا الفخر ، مضافا اليه ما قاله الشعراء الاخرون في الجاهلية وصدر الاسلام ، عددا من اهم القيم الاجتماعية التي سادت الحياة الجاهلية .

كما رأى القارىء كيف استخدمنا منهجنا هذا في تحقيق حياة الجاهليين بين المثل من ناحية ، وواقع الحال من ناحية اخرى ، وكيف قادنا هذا المنهج الى تعديل طائفة من الاراء الذائعة والمسلمات المقررة، تلك الاراء والمسلمات التي يلوكها ويرددها كثير من الكتاب ومؤلفي الكتب المدرسية في تاريخ الادب ، ويتناقلونها واحدا بعد الاخر، دون ان يعنوا بتمحيصها والتثبت من مدى موافقتها الحقيقة .

ونحن لا ندري هل اقتنع القارىء بكل ما بسطناه او بعضه ، ولا نأمن ان يكون في ارائنا التي عرضناها نصيب من الخطأ كبير او صغير وجل من لا يخطىء ولا يسهو . ولكن الحقيقة الواحدة التي لا نشك فيها ، والتي نعتقد ان بحثنا هذا قد جلاها ، هي حاجتنا الشديدة الى ان نعيد النظر في جميع الاحكام الرائجة في تاريخنا الادبي ، وان نخضعها لمنهج في البحث اكبر دقة . وبهذا نحقق هدفين ربما يبدوان متناقضين ، لكنهما في الحقيقة متكاملان لا يقوم احدهما بدون الاخر . اولهما التحقيق الموضوعي النزيه المجرد من الهوى والتعصب والحلم الرومانسي بالماضي ، وثانيهما انصاف الجاهليين في حدودهم الزمانية والمكانية التي حددت اوضاعهم المعاشية فحددت امكانياتهم الفكرية والاخلاقية .

امـا ان نمضي في تقديس الجاهليين والنظر اليهم من خلال منظار وردي لا يرى فيهم الا جماعا للفضائل كما يفعل البعض ، او في تحقيرهم وتقبيح جميع احوالهم وعاداتهم والنظر اليهم من خلال منظار اسود لا يرى فيهم الا كتلة من الرذائل كما يفعل البعض الاخر ، فسنظل في كلا الحالين عاجزين عن معرفتهم معرفة موضوعية صحيحة ، وعاجزين عن التعاطف الصحيح معهم ، والتعاطف الصحيح لا يقوم علـى الجهل بالحقائق او تجاهلها واعماء البصر عنها ، بل يقوم على فهمها وادراكها ادراكا عاقلا حكيما يربطها باوضاع بيئتها وظروف زمانها .

ومهما يكن من قيمة دراستنا هذه في ذاتها ، فنحن نرجو ان يكون فيها حافز يحفز باحثينا ونقادنا على تجديد نظرتهم الى تاريخنا الادبي واعادة تقويمه ، ولعل فيما بسطناه هنا ما يصلح اساسا لنقاش جاد خصيب يتناوله من يعقبنا من الباحثين والنقد بالتصحيح والاكمال حتى يقود الى معرفة اوفى وفهم اعمق للعرب القدماء . فان الحقيقة المحزنة هي ان تاريخنا الادبي لا يزال غاصا بالاخطاء والاوهام والاكاذيب وانصاف الحقائق ، لا عجب ان نجده لا يصلح البتة كاساس نقيم عليه نهضتنا الجديدة التي نحاول فيها ان نحقق قومتنا العربية بمفاهيمها العلمية الجديدة .

القاهرة — **محمد النويهي**

أجرة الحلاقة

قصة بقلم محمد صالح ابراهيم

ليس في القرية من لا يعرف صالون عطية . فهو الصالون الوحيد فيها يؤمه من اهلها المزارعون وصغار العمال ، والاغنام وهي في طريقها الى المرعى . وبالرغم من ان عطية غريب في القرية فان الناس يحبونه ويستغلون تواضعه وحياءه الجم في تحقيق رغباتهم الخبيثة . فانه قد عودهم بطبعه ان يأخذ منهم اجرة الحلاقة ويدسها في جيبه دون النظر اليها . وهم على كثرة عددهم وضآلة عطائهم لا يحلقون رءوسهم الا مرة واحدة في الشهر . ففي الاسبوع الاول منه تزدحم ارض الصالون بهم وتعلو غوغاؤهم مع غبار الطريق . اما في الايام الاخرى فيكاد يخلو منهم الصالون .

وفي يوم من هذه الايام كان عطية جالسا في الصالون وحده ،ولم يفتح الله عليه بشيء منذ الصباح حتى وقت الظهيرة . ولم يكن يملك ما يسد به الرمق في ذلك اليوم العبوس . فقضى الوقت بالعبث بادوات الحلاقة او الاغفاءة القصيرة على مقعده الخشبي المتآكل او بطرد الاغنام الجريئة التي تقتحم صالونه بغير سبب ، او بالنظر في المرآة العتيقة كلما ضغط عليه الجوع . واثناء ذلك تذكر بائع السمك وهو من احسن رواده . لقد مضى عليه شهر كامل ولم يأت ليقص شعر رأسه . ليته يأتي في تلك اللحظات العجاف فانه رجل سخي كريم تعود ان يعطيه اجرة الحلاقة ومعها قطعتان من السمك الساخن. ولكنه تذكر ان لا امل في مجيئه في منتصف النهار . انه يذهب بالسمك في الصباح الباكر الى العاصمة ليبيعه هناك ولا يعود الا في المساء .

وفيما هو كذلك سابح في التفكير والتامل تختلط في خيشومه رائحة السمك الخيالية برائحة بعر الغنم المتخلف على الطريق ، اذا برجل تبدو عليه سمات الوجاهة والنعمة يدخل عليه فجاة ، فيحيي بايماءة قصيرة عاجلة ، ويتجه نحو المرآة الصدئة فيبدو فيها بردائه الناصع الانيق النظيف كالقمر وسط الغمام .

* * *

وبقدر ما فرح عطية بمقدم هذا الزبون الطارىء ، بقدر ما ارتبك. فانه لم يحدث في تاريخ حياته ان دخل صالونه رجل نظيف .. وارتعش المقص في يده لما وقعت عليه عين الوجيه خلال المرآة . ولكن الوجيه اخذ يسري عنه بالحديث . ان مثله كان ينبغي أن يقص شعر رأسه في صالون من صالونات العاصمة الراقية . ولكنه كما يبدو رجل متواضع. وفي رأيه ان الفقراء اولى بالعطاء من غيرهم . انه من اصحاب المشروعات الكبرى والثراء العظيم . وانه ينفق عن سعة . وقد اختبر الناس واكثرهم جاحد لفضله ، وعرف اساليبهم في النصب والاحتيال.

ويصغي عطية الى محدثه باهتمام زائد، ويؤمن على حديثه بابتسامة ترتعش على شفتيه . ويمني نفسه بمبلغ ضخم اجرا للحلاقة ، فينشرح صدره وتعلو نبضات قلبه ، فيحس كانما اقيم في جوفه حفلة رقص..

اجل ، انه سيأكل اليوم لحما وخضرا وفاكهة . ولكن الوجيه قص شعره ونهض قائما وحيا مودعا وخرج دون ان يدفع اجرة الحلاقة..

* * *

كانت الصدمة عنيفة . احس بصداها يئز في اعصابه . وكانما كان المكان من حوله يغمره ضوء كهربائي قوي ساطع فانقطع التيار فجأة وساد المكان الظلام . فلما افاق من الصدمة تساءل هل كان يعيش في حلم لذيذ فاستيقظ منه على واقعه المرير ؟! هل كان الرجل الذي قص شعره هنا قبل حين حقيقة ام خيالا ؟! وصوب نظره مليا نحو كرسي الحلاقة . كلا . كلا . انه واثق أن الامر كان حقيقة لا حلما . اذن كيف حدث ذلك ؟ هل نسي ؟ لا يمكن لاحد ان ينسى انه قص شعره وان عليه ان يدفع . هل يلحق به وينادي باعلى صوته ؟ انه لا يستطيع . ان شيئا ثقيلا قد حط على صدره وعاصفة هوجاء ثارت في نفسه . ومع ذلك لم يستطع ان يخطو نحو الباب لمجرد ان ينظر .. انه خجول. اجل خجول ولكنه في اشد الحاجة الى النقود ، الى اجرة الحلاقة . انها اصبحت من حقه . لقد شيد الامل عاليا في زبونه الجديد فخاب امله . واحس بأنه وقع في شراك نصاب غمطه حقه فامتلأ صدره غيظا. ثم وضحت له الرؤيا وبدت المظاهر امام عينيه وعلى الضوء جوفاء خادعة . ضرب كفا بكف وهو يقول في حسرة وفي خفوت : « لقد ذهبت اجرة الحلاقة ثمنا باهظا لصورة زائفة .. »

وفي اللحظة التالية رأى نفسه وجها لوجه امام رجل يبتسم . فذاب في ابتسامته كل ما علق بنفسه وفكره . ان الوجيه قد عاد ادراجه .. لا بد انه تذكر وانه من الشرفاء .

– لقد كان ببالي ان ادعوك لقص شعر الاولاد بمنزلي بالعاصمة .

– امرك . امرك يا مولاي .

– كنت اخشى انك لا تستطيع . فالمنزل يبعد من هنا نحوا من اربعة او خمسة كيلومترات .

– كل بعيد قريب ! سأذهب على الفور .

وصف له الوجيه الطريق الى منزله وشكره وانصرف . وعادت الثقة والاطمئنان الى قلب عطية . وادرك انه تسرع فظلم الرجل واساء به الظن . سيذهب توا فلا فائدة من بقائه هنا . يجب ان يذهب الان لان المواصلات بين القرية والعاصمة تتعثر بعد المساء وربما تنقطع . وفي اللحظة التالية كان عطية قد اغلق الصالون وحمل حقيبته الصغيرة وهرع الى محطة الباص .

وهناك في منزل الوجيه قص للاولاد شعورهم وهو فرح مستبشر. ان الاجر كبير كبير . حقا ان الرجل ينفق عن سعة . هذا السكن الرحب ، هذا الاثاث الفاخر ، هذه الحديقة ، هذا اللعب مع الصبية، هذا الامل الكبير .. كل ذلك كان بمثابة « المسكن » لالم الجوع،المبدد لسام الانتظار ، المبرر للسكوت والتغاضي عندما اختطف ابن الوجيه مقص الحلاقة وهرب به داخل الحجرات ..

حل المساء ولما يعد الوجيه الى بيته . فبدأ القلق يدب في نفس عطية وهو يتصور الكيلومترات الممتدة بينه وبين صالونه ، والساعة التي يتوقف فيها باص القرية ويريح ظهره من اعباء يومه . واسترعى انتباهه شيء يحدث بالمنزل . الاثاث الثقيل ينقل قطعة وراء قطعة

الى سيارة في الخارج .
— انتو راحلين من البيت الجميل دا ؟
وجاءه الرد من الاولاد :
— لا . نحن مسافرين للشمال بكره الصبح .

ووجم عطية واحس في راسه يدا تعزف مقطوعة معقدة . واخذ يفكر . هل يرسل احد الاولاد الى امه لتعطيه حقه وينصرف ؟ ولكنه انصرف دون ان يقوى على ذلك ، تتناوح في نفسه اعاصير من قلق واشفاق وغيظ ومرارة وشيء اخر ..

* * *

وفي الصباح الباكر كان عطية يجوس خلال كتل بشرية مضطربة يموج بها فناء محطة السكة الحديد . وانتهت جولته بالقرب من عربة الدرجة الاولى . فمن المؤكد ان الوجيه يسافر عليها . وفف يرسل بصره الى نوافذها المفتوحة يطل منها الركاب برءوسهم الحليقة ... تنبعث من حناجرهم القوية وتتجاوب الصيحات والنداءات . ويبدو على قسمات وجوههم مختلف الاوضاع والمعاني . امراة باكية واخرى ضاحكة، ورجل عابس متجهم يطرق على مضض كمن اصيب بخيبة الامل . واخر باسم الثغر باش الوجه كمن نال وطرا وحقق غاية . واقترب الوقت وعطية ما زال يتصفح الوجوه . ولم يبق على موعد قيام القطار سوى دقائق معدودة . وفجأة ظهر الوجيه يحمل في يده حقيبة سوداء ومن ورائه اولاده وامهم . وهم عطية ان يخطو خطوة الى الامام ليكون في الطريق المستقيم بين الوجيه وباب العربة . ولكنه احس بالخجل يعقل قدميه . ومع ذلك وقعت عين الوجيه على عينه ، فاقبل عليه وهو يتصنع المزيد من العجلة ، وحياه تحية سريعة مقتضبة وهو يقول :
— انا آسف جدا اذ حالت ظروف سفري المفاجيء دون الرجوع الى منزلي في وقت مبكر ليلة البارحة .

وفي سرعة وقبل ان يتفوه عطية بكلمة اردف قائلا :
— عن اذنك دقيقة واحدة .

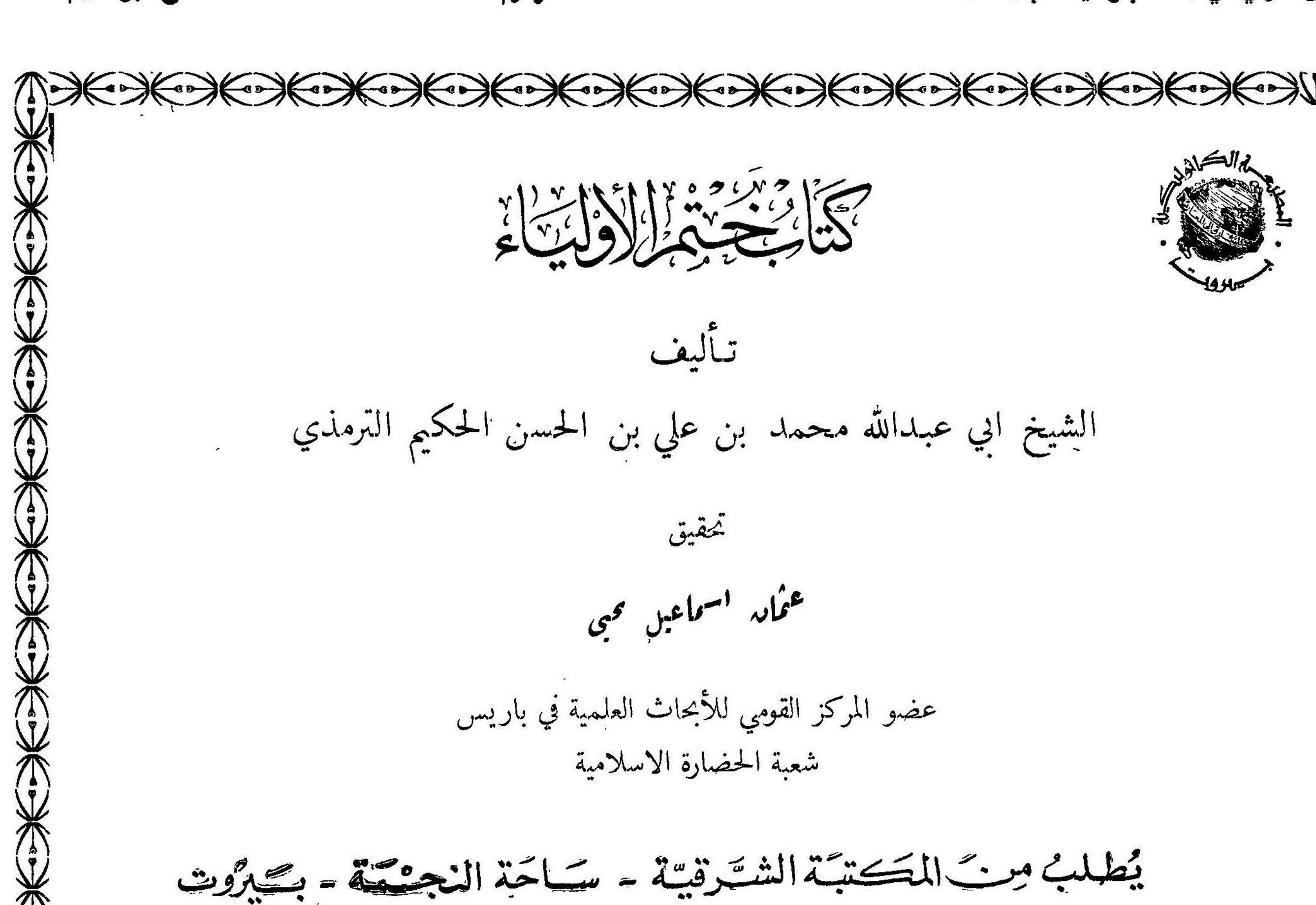
ودفع الاولاد امامه داخل العربة . وظل عطية في مكانه واحس ان حديث الوجيه قد احيا في نفسه الامل بعد ان كاد يموت . لقد عانى مشقة الذهاب الى بيت الوجيه والانتظار هناك والمجيء الى هنا . لا بد ان الوجيه سيدرك ذلك كله ويحسن تقديره فيجزل له العطاء . وهكذا اخذ عطية يعيش مع بقية الامل في اللحظات الاخيرة . ومضت دقيقة واثنتان وثلاث وهو ما فتيء يتطلع بناظره الى نوافذ العربة . واحس بالدقائق وهي تمر كأنها حجارة تتكسر على رأسه . واخذ يتزايد قلقه مع الثواني وينمو نموا جامحا ، حتى اذا انطلق صفير القطار وتحرك اطل الوجيه برأسه الحليق من النافذة ولوح لعطية بالتحية ..

وحينئذ غاص قلب الحلاق في اعماقه واحس كأن نارا في جوفه قد اشتعلت فاكلت كل شيء فيه حتى الخجل .. وبدا له وجه المجتمع على الضوء الكاشف . وعاد أدراجه حانقا مغيظا جائعا ساخطا على الناس وعلى نفسه ، وهو ينفث نفث المصدور :

— لقد ضاع حقي .. لقد عرفت السبب .. انا .. ولكني بعد اليوم .. بعد اليوم ..

وانقطع عن الحديث والفى قدميه تسرعان الخطو في الطريق الى صالونه . وهناك عند باب الصالون وجد بائع السمك في انتظاره على احر من الجمر .

الخرطوم — محمد صالح ابراهيم



الانحراف الجنسي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

تنسل الى يدها ... ومن خلال ملابسها الحريرية الداخلية تلمس تكوبرة جانبها ، وظهرها الاملس المستقيم ونتوءات عمودها الفقري ... ثم راحت اصابعه تتحسس جسدها الدافىء من تحت ردائها ، وتضمه برفق وبطء منتش . انه يعرفها . واحس ان اصابعه يمكنها ان تنحتها تمثالا دافئا متموجا في الظلام . ولم يشتهها ، لان الشهوة كانت ستبطل نشوة السحر . وراح يغوص اعمق فاعمق في غيبوبة السعادة التيكان يحس بها في الظلمة . كانت نائمة بين ذراعيه ، وسرعان ما وجد نفسه يغط في نوم عميق . »

ومن الطريف ان هذا الوصف الغنائي شبه الغيبي للعاطفة الجنسية يخالف المواقف الجنسية المعتادة في كتابات هكسلي . وهناك مثالعلى هذه المواقف جاء في رواية هكسلي المسماة Point couter point ففي رسالة الى والتر تصف « لوسي تانتاماونت » كيف التقطت شابا ايطاليا واخذته بسيارتها الى احد الفنادق :

« ودنا مني وهو يصر على اسنانه كانه يهم بأن يقتلني . اغمضت عيني كشهيد مسيحي يواجه الاسود الجائعة . غريب ان يترك الانسان نفسه عرضة للالم،والاذلال ، لان يصبح ممسحة للارجل . لقد اعجبني ذلك ... كان منظره وحشيا جميلا كهندي احمر . وكان هو وحشيا رائعا كمنظره . ما زالت اثار عضاضه بارزة على عنقي . ولا بد ان استرها بوشاح لعدة ايام . ترى اين شاهدت تمثالا لمارسياس وهم يسلخون جلده ؟ كان وجهه شبيها بذلك ، حتى انني غرزت اظافري في ذراعه ، حتى نفر الدم منها ... »

وهناك في رواية «العبقري والالهة» The Genius and the Goddess منظر اخر افترض فيه على ما يبدو ان يجسد موقفا جنسيا كاملا،لكنه هذه المرة يعبر عن موقف كلامي لا حركي في غالبيته :

« ليلة الثالث والعشرين من نيسان تلك ، كنا في العالم الاخر هي وانا ، في سماء مظلمة خرساء من العري واللمس والانصهار . اية رؤى تلك التي تجلت في سمائنا هذه ، اية اعياد !! كانت ضماتها كملائكة فجائية » . وفي هذه الحالة ، فقد تم الجماع ، لكن الوصف هنا اقل اقناعا من وصف المنظر السابق في روايته Antic Hay حين ينام الحبيبان . وفي الفهرس الملحق بكتاب « ادونيس والابجدية » Adonis and the Alphabet يثير هكسلي سؤالا طريفا يلقي بعض الضوء على المشهد الوارد في Antic Hay يتحدث فيه عن « جون همفري نويس » مؤسس طائفة الاونيدا Oneida في الولايات المتحدة وعن نظريات نويس حول « العفة عند الذكور » .

كانت طائفة اونيدا هذه تجربة اسماها نويس « مشايعة التوراة » وهي تقوم على اساس « المشاركة للجميع » واغرب خصائصها هي المشايعة في الجنس . لان نويس يعتقد ان امتلاك المراة لرجل واحد هو اثم ، فالمراة في المجتمع الاونيدي يجب ان تكون للجميع ، ولئلا يكون ذلك سببا في حالاتمحرجة مثل ان تصبح النساء عرضة للعمل المستمر، فقد قضى نويس باتباع نظام « الكاريتزا » Karezza (وهو عبارة عن « الفكرة القائلة بانه يمكن فصل الوظائف الغرامية للاعضاء التناسلية عن الوظائف التناسلية ») ، وذلك بأن يحجم الرجل عن الوصول الى النشوة الجنسية وبالتالي القذف .

ويدعي نويس أن هذه الطريقة اكثر ارضاء من الجماع العادي الذي يصل ذروته في القذف . والهدف من دعوة نويس هذه ، هو اقامة « المسيحية الكمالية » والترويج لكرة الكاريتزا والزواج الجماعي.وقد دافع مختلف معتنقي فكرة الكاريتزا دفاعا جادا كبيرا عنها ، بل ان كتابا معينين ذهبوا الى ابعد مما ذهب اليه نويس واقترحوا على المتزوجين بان يتركوا لرغباتهم الجنسية ان تصل الى نقطة التوتر الشديد على الا تبلغ مرحلة الجماع . وهم يؤكدون انه حين يقوم الرجل بعد فترة طويلة من التحضير بايلاج عضوه التناسلي في المرأة ... شريطة الا يقوم باية حركة قد تدفعه الى حالة القذف ... فان الرجل والمرأة معا سيمارسان حالة من الانفعال الجنسي العارم تفوق اي احساس ينجم عن الجماع العادي . وهناك من يصف هذه الحالة بأنها تماثل احيانا ، الشعور بالتحليق في الهواء .

ومن الواضح ان هكسلي في روايته Antic Hay كان يصف شيئا شبيها بذلك . ويؤكد بهذا تقبله لفكرة الكاريتزا في ملحق « ادونيس والابجدية » .

قد يبدو ، من الممكن اذن ، أن نويس قد توصل الى طريقة تمكن المركز الجنسي من العمل بطاقته الخاصة. فالتشديد على الارتخاء التام وعلى السيطرة سيطرة كاملة على الرغبة في الوصول الى القذف من شأنهما ان يضمنا عدم تدخل المركز العاطفي او العقلي في عمل المركز الجنسي . فمن المؤكد تقريبا ، ان العملية الجنسية لا بد وان تتداخل فيها عواطف وافكار خارجة على الجنس ، الا في الحالات التي تتم فيها العملية بعد طول انتظار . وفي عملية الكاريتزا فان المدى الزمني الذي تنطوي عليه من شأنه ان يمكن الطاقة الجنسية من ان « تتصفى » وتعزل عنها كل انواع الطاقة الاخرى .

اذن فان جوردييف يناقض جيد ويقترح بانه يوجد هناك بالفعل شيء اسمه « الجنس الطبيعي » وذلك حين يعمل المركز الجنسيبطاقته الخاصة . وهو يلمح الى انه حين يحدث ذلك فان كل رغبة في اللاتمييز سوف تختفي لان الرجل والمرأة يصبحان بالنسبة لبعضهما البعض،عندئذ تجسيما حيا لمبدأ التحام الذكر والانثى . ولا يمكن لاي شريك جنسي اخر ان يقدم اكثر من ذلك .

« اللا اصالة » في الدافع الجنسي :

من الضروري حتى عند هذا الحد المبكر ان نحاول التوصل الى تعميم اوسع حول علاقة الدافع الجنسي « بالطبيعة البشرية » لان اصطلاحات البحث قد اثبتت محدودية كبيرة حتى الان . وبوجه عام فانه يمكن القول ان النشاط الاساسي لكل الكائنات الحية هو تصريف اشكال مختلفة من التوتر ، وان عملية التصريف هذه تؤدي الى «توسيع» الوعي مؤقتا .

ان رجلا جائعا مثلا يحس بتوتر جسدي يتولد عن عملية الاكل ، يصحبه احساس يقيني « بالحياة » . لكنه لن يمارس هذا الاحساس اليقيني بنفس الدرجة اذا اكل على دفعات كل ساعتين لانه بذلك لا يدع للتوتر اية فرصة للتفاعل .

وقد يتم انعتاق التوترات بطرق متنوعة وعلى مستويات مختلفة : جسديا عن طريق الاكل او الشرب او تدخين سيجارة ، عاطفيا عنطريق الاستماع الى الموسيقى او مشاهدة فيلم أو قراءة رواية غرامية ،فكريا عن طريق حل مسألة رياضية او لعبة الكلمات المتقاطعة . وكل الالعاب تهدف الى اعتاق التوتر عن طريق شحذه وتنميتهثم السماح لهبالاستكانة والارتخاء (ولكنه يجب الانتباه الى ان اللعبة التي لا تؤدي الا الىاعتاق التوتر الذي ولدته ونمته ، هي لعبة سيئة ، لان وظيفة اللعبة هي ان تعتق كذلك العواطف التي كانت حبيسة قبل ان تبدأ اللعبة .) وبعض هذه التصريفات تؤدي فقط الى تهدئة الاعصاب في حين يؤدي بعضها الاخر بصورة اكيدة الى تعميق حالة الوعي .

ولقد اشرت في مكان اخر الى انه من السهل نسبيا الوصول الى حالة « تعميق الوعي » من خلال الجسد ... عن طريق الجنس او اشكال اخرى من الانفراج الجسدي . كما انه ليس من الصعب الوصول

(١) يسمونها في اميركا « غدا وغدا وغدا » Tomorrow and tomorrow and tomorrow

اليها عن طريق العواطف . لكن الاكثر صعوبة هو الوصول الى حالة عميق الوعي فكريا .

ان النشوة الجنسية تجرف معظم الرجال ((بعيدا عن انفسهم)) وان نسبة كبيرة منهم قد خبروا الانعتاق عن طريق العواطف العنيفة. وقليلون جدا هم الذين خبروا زخما وعمقا كاللذين تميز بهما اينشتاين او نيوتن .

ومع ذلك فان هذه الحاجة الى الانعتاق ، الى تعميق الوعي ، هي من اولى الفعاليات البشرية الاساسية . يستدل من هذا انه مهما تكن الغايات النهائية لقوة التطور التي تسير الانسان ، فان الوعي المعمق يلعب بلا شك دورا هاما في هذه الغايات . وقد يكتب اليوت بكآبة ان الحياة الانسانية كما تبدو ليس لها معنى اخر غير ((الولادة والاتصال والموت)) لكنه يغفل عاملا اساسيا لا يقل منزلة عنها ، وهو الحاجة الى وعي اكثر شدة يتحكم في كل النشاط الانساني ، والغريب اننا لا ندخل هذه الحاجة التي نحس بها في حسابنا ابدا ، بل نعتبرها نزوة غير هامة في حقل النشاط الانساني . ان الانسان لا يتساءل عندما يستيقظ صباحا : ((هل ساحصل على لحظة من تعمق الوعي اليوم ؟)) انه يفكر فقط فيما يجب عمله وليس في حالة الوعي التي سترافق هذا العمل. فاذا كان هذا الشخص رجلا عاملا مقيدا بوظيفة روتينية تمنحه قـدرا ضئيلا من الرضى ، فانه يشعر احيانا بان الحياة عقيمة ومجدبة تماما. ((انني اعمل لآكل ، وآكل لكي اقدر على العمل .)) انه لا يحلم بـان يضع في حسابه تلك اللحظات العرضية من ((الانشراح)) التي قد يولدها فيه قدح من الجعة او يوم من ايام الربيع او التي قد يحس بها بدون اي سبب بالذات . ان الناس يسلمون جدلا بوعيهم وحالاته المختلفة.

وانا احاول ان ابين أن الاشياء التي يعتبرها الناس عادة((غاياتهم)) هي في الواقع ((سطحية)) ولا يحتاج الامر لفيلسوف ما لكي يكتشف ان معظم هذه الغايات بلا جدوى . لكن كل الالعاب وبالطريقة نفسها ، هي كذلك بلا جدوى لانها تتطلب جهدا عظيما في حين ان نتائجها لا تؤدي الى اي تغيير جذري . وما يعطي هذه الالعاب غاية ومعنى هـي حالات الوعي التي تتواجد اثناءها .

وعلى هذا فان الدافع الجنسي يملك عاملا هاما كما هـو الحال بالنسبة لكل الدوافع الانسانية الاخرى . انه ليس شيئا فريدا تقريبا ينتمي الى نظام اخر للاشياء ، فمع ان تفهم الانسان لدوافعه الجنسية وسيطرته عليها هما افل مثلا من رغبته في جمع المال لتأمين حياته ونفسه، فهذا لا يعني انه دمية او عبد في يد قوة غامضة خفية . ان الرغبة الجنسية تختلف عن باقي الرغبات الانسانية في ناحية هامة واحدة فقط، انها اقصر واسهل السبل الى ((تصريف التوتر)) وتعميق الوعي . فهي ترضي وتلائم غاية الانسان وطبيعته .

وقبل ان ننتقل من هذه النقطة الى غيرها فانه من المفيد ان نعقد مقارنة بين الفقرات المقتبسة التالية :

((واجتاحت حواسي لذة رائعة لكنها منفردة ، منعزلة ، بدون اي ايحاء عن مصدرها . وفي الحال بدأت اشعر باللا اكتراث نحـو صروف الحياة وتقلباتها ، وراحت مآسيها تبدو لي مسالة غير مؤذية وقصرها ضربا من الوهم . هذه اللذة الجديدة ، انها تؤثر في كالحب ، تملؤني بجوهر نفيس . لا بل ان هذا الجوهر ليس في ، انه انا . ولـم اعد منذ تلك اللحظة احس بالعادية، بأنني مجرد انسان فان ، شيء عارض.))

((... وانطلقت في داخلي ضحكة منعشة ، وفجأة عادت الـى ذاكرتي نوتات البيانو المنسية وراحت تعلو في داخلي كفقاعة من الصابون تعكس على صفحتها القزحية صورة مصغرة للدنيا باسرها ثم تنفجـر برقة ... كان الدرب الذهبي متوهجا. انه يذكرني باللانهاية ،بموتسارت، بالنجوم . وصرت لساعة قادرا على ان اتنفس مرة اخرى ، ان احيـا واواجه الوجود.ولم تعد هناك حاجةلان اتعذب واحس بالخوف والعار.))

((... فجأة طرأ على حواسي تغيير غامض . ورحت اعبر حالة من الوجود حيث لا شيء يهم سوى انتشار الفرح المختمر في جسدي. ما كان قد بدأ كامتداد حلو لاعمق جذوري قد تحول الى رعشة مضطرمة راحت تتنامى حتى وصلت الان الى حالة من الشعور بالامان المطلـق والثقة والاعتماد على النفس ليست موجودة في الوجود الواعي . واذ تملكتني هذه العذوبة الدافئة العميقة وبدأت تنسل نحو انتفاضتهـا الاخيرة،احسست بانني استطيع ان اتباطأ لكي اطيل الوهج الذي في.))

الفقرة الاولى من الفقرات الثلاث السابقة مقتبسة من بروست. ان مارسيل يتحدث فيها عن اللحظة الغريبة ، لحظة ((استذكار الاشياء الماضية)) التي اثارها في نفسه مذاق كعكة مغموسة بالشاي .

اما الفقرة الثانية فهي من احد مؤلفات ((هيس)) Hesse المسماة ((شتيبنوولف)) Steppenwolf وهي تصف لحظة من الانعتاق ولدها قدح من النبيذ .

والفقرة الثالثة ماخوذة من رواية ((لوليتا)) لنابوكوف وهي وصف للحظة يمارس فيها ((همبرت)) الاستمناء بحذر شديد وذلك عن طريق حك قضيبه المنتصب بجسد لوليتا ((الغافلة عما يجري)) .

ان اوجه الشبه في اللغة تلفت النظر ، ولتاكيد هذا التشابـه نسوق هذه الفقرة من ((شتيبنوولف)) وهي تصف امتدادا للوعي الناجم عن نشوة شهوانية :

((... وبلمسة سحرية من ايروس (1) انفتح معين الذاكرة وراح يتدفق بغزارة . ولبعض لحظات وقف قلبي ساكنا بين الفرح والاسى ليكتشف كم هـو غني رواق حياتي ، وكم تزخر روح شتيبنوولف البائس بالنجوم والكواكب الابدية السامقة .))

من الصحيح ان تاكيد الدافع الجنسي لا يؤدي بالضرورة الـى مخاطبة العقل ، أو حتى العواطف بهذا الشكل ، وانه قد لا يكون اكثر مـن مجرد شعور بالدفء الجسدي الداخلي وبالارتياح . لكنه ينبغي الاخذ بالاعتبار ان هذه التجارب كالتي وصفت اعلاه يمكن ان تعد مـن بين اسمى انواع التجارب الجنسية .

---

(1) اله الحب في الاساطير الاغريقية .

د.هـ. لورنس واللواط :

تثير الفقرة المقتبسة من لوليتا ، بل وتثير لوليتـــا « باكملها » السؤال الرئيسي مره اخرى عن « الشذوذ » فاذا امكن الوصول الى ارفع انواع الخبرة الجنسية بمثل هذه الاساليب ، الا يصبح من الممكن ان نصف هذه الاساليب « بالا اصالة » ؟ وهذا السؤال يفتح مشكلة « الانحراف الجنسي » على مصراعيها . وهنا نجد ايضا انه من المفيد لنا ان ندرس بعض الحالات .

يعتبر د.هـ. لورنس عادة الكاهن الاعظم لنوع من الجنس«الطبيعي» ومع ذلك فقد اشار البروفسور « ولسون نايت » في مقال ممتاز ان لورنس قد شدد كثيرا في كتاباته على عملية اللواط . ونجد ان معظم الاحداث الجنسية في بداية روايته « عشيق الليدي شاترلي » هـي احداث « طبيعية » . الا انه عند نهاية الفصل السادس عشر نـرى ميلورز يضاجع كونستانس شاترلي «على الطريقة الايطالية» . ولورنس يعمد بحذر الا يكون صريحا جدا ، لكن هناك عدة اشارات اوليه في الكتاب تؤدي في النهاية الى هذه العملية الاخيرة . فكونستانس شاترلي « خائفة قليلا ، لكن لتدعه ينصرف على هواه » والشهوة تضطرم فـي « العورات ، في اعمق واقدم العورات ، في اكثر الاماكن الخصوصيه المستورة » ، وشعلة الرغبة « تنفض على احشائها ونهديها » ، وبهذا لا يترك لورنس مجالا للشك في انه يعتبر هذه العملية نوعا ما اعمق كمالا وبلوغا من الجنس « الطبيعي » (مع انه لا يوجد هناك طبعا اي دليل على انه يعتبرها بديلا للجنس الطبيعي) .

وبالطريقة ذاتها،فان روايته«نساء في الحب» Women in Love تحتوي على مشهد غريب يجري بين ارسولا وبيركين في الفصل المسمى Excurse ، وفيه تبقى التفاصيل المحددة غامضة وكل الذي نعرفـه هو ان ارسولا تركع امام بيركين وتجعله يبلغ ذروة النشوة الجنسية وذلك بأن تتحسس باصابعها الطويلة الرائعة «ما خلف اسفل الخاصرة» الى « قرار سلطان الظلمة » . ولورنس يوضح انه لا يتحدث بذلك عن العضو التناسلي ، أذ انه يكرر كلمة « خلف » عدة مرات . ويعلق قائلا ان ارسولا كانت تظن انه « ليس هناك مصدر للذة اعمق من ذلك المرتبط بذكر الرجل » الى ان مرت بهذه التجربة ، التي يكشف فيها لورنس النقاب عن ان بيركين كان قد ضاجع ارسولا بالفعل « علــى الطريقة الايطالية » ، الا ان ارسولا قد اكتشفت الان كيف تمنح بيركين ابلـغ واعمق متعة . وهو يقول في مكان لاحق ان ارسولا « كانت بواقعيـة اطراف اصابعها الرائعة تلمس مكمن الواقعية فيه . » ويبرز هـذا المعنى في قصيدة للورنس بعنوان « البيان » Manifesto حيث يقول:

« اريدها ان تلمسني في الاخير ، اه ، في جذر وقعر ظلمتي .. »

وفي عملية اللواط التي تتم بين بيركين وارسولا يشير لورنس كذلك الى « جذر ظلمتها » .

ويؤكد البروفسور ولسون نايت بكثير من الوضوح ان لورنس كان يعلق اهمية عظيمة على هذه العملية الاخيرة ، وهو يقدم في مقالتـــه المعنية عددا ضخما من الادلة الكتابية على ذلك (1) .

ومن الصحيح القول انه لا حاجة هناك لان نجد تفسيرات سيكولوجية معقدة لظاهرة قد تكون ذات اساس جسدي محض . فالمناطق الاستية « الشرجية » على كل حال تشارك الاعضاء التناسلية بعض الحساسية الجنسية . وقد فات البروفسور نايت ان يشير الى تلك الفقرة فـي مونولوج مسز بلوم التي تذكر فيها ان عشيقها « جعلني اقضي اللقاء الثاني وهو يدغدغني باصبعه من الخلف » والتي تصف فيها بعد ذلك فرط استمتاعها الجنسي .

ويروي هيرشفيلد قصة مومستين شقيقتين تخصصتا في عملية اثارة زبائنهما عن طريق القضيب والشرج في نفس الوقت . ويضيف هيرشفيلد : « يقول فرويد أن تصريف الامعاء والبول تصاحبه أحاسيس مماثلة من اللذة . » لكنه يشير الى ان بعض الناس لا يمارسون التقبيل وانهم لذلك لا يعتبرون الشفاه من بين «المناطق الحسية الشهوانية».

كما يروي هيرشفيلد قصة مومس كانت تقوم احيانا بلعق العضو التناسلي بينما كانت في الوقت ذاته تولج منديلا حريريا في شرج الزبون ثم تسحب المنديل عند بلوغ ذروة النشوة .

وكانت هذه المومس تدعي ان هذه العملية تؤدي الى تجربة جنسية عميقة اروع من « الجماع الطبيعي » .

وعلى هذا فانه من غير الضروري تقريبا ان نتكهن كيف انجـرفت عملية الجنس الطبيعي عند لورنس الى مبـدأ التهيج الاستي . ان البروفسور نايت يقتبس فوق ذلك فقرات من رواية بوويس « غرام في جلاستونبيري » Glastonbury Romance ليسند حجته بوجود علاقة بين المناطق الاستية والنشوة الغامضة) . وكل من قرأ « نساء في الحب » و « عشيق الليدي شاترلي » بعطف وبعمق فلن يفوته ان يلاحظ « ان المشاهد المرتبطة بالعلاقات الاستية » ليست في الواقع الا تطورا طبيعيا لما سبقها . ولا شك ان الامر كان سيكون منطقيا كذلك لو ان العملية كانت عملية اثارة متبادلة عن طريق الفم . وعلى هذا ينبغي القول انه اما ان تكون الممارسات الجنسية « طبيعية » او ان غيبية لورنس الجنسية خاطئة في الاساس بطريقة ما . ولا يهمنـــي الان ان اناقش ايا من الرأيين ، بل ان ما اريد ان اشير اليه هو ان الحـــد الفاصل بين ما يبدو طبيعيا وما يبدو « غير طبيعي » واه جدا .

ومن ناحية اخرى فان بول دي ريفر يسوق في الفصل السادس من مؤلفه « المجرم الجنسي » The Sexual Criminal حالة مفيدة.

(1) « لورنس ، جويس وبوويس » دراسات نقدية . اكتوبر ٦١
Lawrence, Joyce and Powys

فهو يروي قصة حارس مدرسة أبله قتل ثلاث بنات (ما بين سن السابعة والتاسعة) و ركب مع ثلاثتهن اللواط والجماع «الطبيعي». وكان هذا الحارس متزوجا الا انه تملكه الشعور بأن مهبل طفلة ضيقا، هو الوحيد الذي يستطيع ان يوصله الى اعمق حالات الاستمتاع الجنسي، فبعد ان اغرى الطفلات بالذهاب معه الى مكان منعزل بحجة انه سيريهن بعض الارانب، اعتدى عليهن واحدة واحدة ثم خنقهن. وقد اعتدى على اثنتين منهن اعتداء مزدوجا. وحين تم استجوابه فيما بعد اعترف بأنه خبر اكبر قدر من اللذة مع اكبرهن سنا. وهنا يتضح مدى اضطراب وتشوش رغباته، فقد كان يتصور بأنه لا يستطيع أن يبلغ اكبر قدر من المتعة الا مع بنت صغيرة، لكنه في الواقع فضل البنت الكبرى الاقرب الى الانوثة.

وللوهلة الاولى قد تستخدم هذه الحادثة كحجة لنقض الفكرة القائلة: «ان بلوغ اقصى مدى من الالتقاء الجنسي يجب أن يكون هدفا في حد ذاته» لكن تشوش الرجل الحارس ينسف هذه الحجة ويبرهن على انه لم يكن يدرك ما يريد تماما. وفي الواقع ان هذه الحادثة تؤيد موقف لورنس من ان بعض التطورات التي تتفرغ من عملية الجماع العادي ليست «غير طبيعية». ان «لا طبيعية» الحارس ناشئة عن ارتباكه وتشوشه وعن سوء ادراكه لرغباته، ومثل هذا التشوش غير موجود عند لورنس، بل ان مناوئيه يقرون ان هناك منطقا داخليا قويا في سياق تطور غيبوبته الجنسية.

وهذه المشابهة بين لورنس وحادثة الحارس التي سردها بول دي ريفر، توضح لنا أن نظرية تولستوي في الجنس هي الوحيدة التي تطرح رؤيا متماسكة ثابتة عن الشذوذ. وقد يكون لورنس وحارس المدرسة على طرفي نقيض، لكن الفارق بينهما هو فارق «كمي»، ذلك ان كليهما كان يؤمن بان الجنس «يجب» ان يؤدي في النهاية الى التقاء جنسي عميق ومرض يتجاوز العملية العادية «للجماع الجنسي».

وينبغي ان نلاحظ ان هذه النظرة موجودة ضمنا في تسامحنا المتزايد نحو الكتب التي تدور حول الجنس. فحين تم نشر كتب مثل «يوليس» Ulysses و «بئر الوحدة» The Well of Loneliness و «لوليتا» و «عشيق الليدي شاترلي» بحرية، فمعنى ذلك اننا على استعداد لان نتقبل النظرة القائلة ان العمليات الجنسية الواردة في هذه الكتب ليست «غير طبيعية» كلية.

ان تولستوي كان سيشجبها كلها كما شجب رواية «الصديق الجميل» Bel Ami لموباسان على اعتبار انها كتب داعرة، لانه يؤمن بأن اي نوع من التشديد على المتعة في الجنس هو عمل «شاذ». وبهذا المقياس فان «عشيق الليدي شاترلي» شاذ تماما، كـ «بئر الوحدة» او رواية انجوس ولسون «العلقم وما بعده» Hemlock and After

ومع ذلك فان هناك القليل منا ممن هم على استعداد لان يتقبلوا نظرية تولستوي ككل. فتولستوي يعتقد انه اذا بلغ النوع البشري يوما مرحلة الكمال شبه الالهي، فان الجنس سيختفي الا «كواجب» (لاستمرار النسل) يقضى بين الحين والحين. ومن الصعب الاعتقاد ان تولستوي قد توصل الى رؤيا متزنة للدور الذي يلعبه الجنس في تكوين الانسان الشامل.

هذا واود في الفصول اللاحقة ان احقق في مسألة الدور الذي يلعبه الجنس، وذلك من خلال دراسة دور الجنس في حياة عدد من الرجال والنساء والنظريات الجنسية التي تستبطنها مواقفهم واتجاهاتهم.

ترجمة
يوسف شرورو وسمير كتاب



فرنسا

من خليل احمد خليل – جامعة ليون

١ – الانسان والسينما

يعتبر جودارد احد كبار المخرجين السينمائيين في اوروبا .وهو انسان يحاور الواقع – بعكس المثالي الذي يدعي انه يخترع الواقع او الواقعيين السطحيين الذين يكتفون بالقول : اننا نعيش الواقع ونعاني الازمات الحية . جودارد يختار الواقع يقدمه ، يحلله – وهو لا يقدم حلولا بل يبحث عن الاسباب القادرة على تعقيد الواقع او تبسيطه . فيلمه « مذكرات امرأة متزوجة » هو دليل حقيقي على نضج الفن السينمائي في فرنسا . فهذا الفيلم يحتل مركزا مهما الى جانب الافلام التحليلية المهمة – مثل مذكرات مجنون ومعظم افلام الممثل الراحل جيرارد فيليب . في فيلم جودارد ثورة جديدة : تمرد على الشكل، على اطار الحياة ، والحاح على ديالكتيكية الوعي وحوار الاشياء سلبا او ايجابا . وجودارد لا يحمل احكاما معينة على العالم ، بل يعرضه لنا . وعالمه قطار يسير بطريقة منتظمة متواصلة ولانهائية . هذا الفيلم منقسم الى ثمانية اقسام . يقدم اولا حوارا بين عاشق وعشيقة بطريقة مثيرة جدا : حوار الاصابع والايدي والحركات والظلال . حوار الكلمات والاطراف المائجة . حوار الاحاسيس النائمة مع الشهوة الثائرة. حوار الرجل والمرأة . حوار الاسود والابيض ، المتلىء والفارغ . الضائع والراسخ . حوار الاحساس المتفجر والاحساس المأسور .

في اللوحة الثانية يعود الزوج مع صديقه الى بيته . تستقبله امرأته بفتور فيسألها اذا كانت في حالة حرب ، فتكتفي بالحيرة ، الا انها لا تعانق زوجها الغائب . في السهرة يجلس الجميع في صالة الانتظار – ويبدأ النقاش . الزوج يتحدث عن الذاكرة ، يمجدها، يروي شيئا من حياته الماضية ويؤكد انه لا يستطيع ان ينسى شيئا ما . انه مرتبط بالماضي . وهو انسان له تاريخه وهذا التاريخ حاضر في حياته، لذلك تبدو حياته معقدة ومنطقية، تبدو معقولة لانها متناسقة. الزوجة العاشقة تعيش في الحاضر : الحياة حاضر لا حضور او غياب . الحياة اشباع يومي . وهذا العيش في الحاضر يريح الانسان من مرارة التفكير، فهل تعيش هذه المرأة في طمأنينة ام انها ستعاني اشد انواع القلق . تكتفي بالقول في هذه اللوحة الحياة حاضر . احب الحاضر . لا اريد ان افكر – وربما كانت لا تستطيع ان تفكر . اما الضيف فيتحدث عن العقل : لا اختار العقل لانني طاعن في السن ، بل لان العقل يسمح لي ان افكر في الاشياء ، ان افهمها قبل ان اتخذ موقفا ازاءها . العقل يسمح للانسان ان يؤمن بقوانين ثابتة ، ان يرى الممكن والمستحيل ويستشهد ببيت شعر لابونيير :

« اينها الشمس هوذا فصل العقل الملتهب »

اما الطفولة فهي مرحلة التعلم والتحقيق والتطوير . هي مرحلة الاتصال بالخارج ورؤيته وهي مرحلة خطرة. لان المراحل القادمة ستقوم عليها ويكتفي الطفل بتعداد الاوامر التي يجب تنفيذها . بعد انتهاء السهرة تبدأ مشكلة حساسة هي علاقة الزوج مع زوجته العاشقة . تلجأ هذه الاخيرة الى اسطواناتها لتستمع اليها في نهاية الليل بينما زوجها ينتظرها . فيجري خلفها يوسوس وهي تجري دون ان تعبأ .

ستنيقظ قبل الظهر على صوت عشيقها فيعطيها موعدا في فندق معين ثم تبدأ بتحضير نفسها فتعطي الاوامر للخادمة العاشقة ايضا وتجهز نفسها بطريقة اصطناعية فتقيس صدرها وطولها الخ كما هو وارد في احدى المجلات ثم تخرج وتذهب الى احد الحمامات منتظرة. وهذه المرحلة يسميها جودارد « لاجافا » وهو اسم رقصة معروفة . في المقهى ليس للنساء الشابات سوى حديث واحد : كيف يمكن الاتصال بالرجل لاشباع الشهوة .

في لوحة اللذة والصمت – او اللذة والعلم – تتصل الزوجة بطبيبها ، فيعلن لها انها حامل ، فتوضح له حيرتها لانها لا تعرف ابا الطفل وهي حائرة لانها لا تستطيع أن تكون مخلصة لعشيقها كما يجب. اي انها تخون عشيقها مع زوجها . وتسأل الطبيب عن الفرق بين الحب واللذة الجنسية ، عن الفرق بين الزواج وبين الاشباع الجنسي ، بين المتعة والاخلاص . يتلعثم الطبيب ثم يقول لها : ان الحب مختلف عن المتعة الجسدية . تسأله : بماذا ؟ فيخرس . ثم يتمتم المتعة الجسدية ليست عملا سيئا ، ما من شر في ذلك . فتخرج بعد ان يئست من العلم.

ندخل الى صالة السينما حيث ينتظرها عشيقها الذي تعرفه قبل زواجها ثم يخرجان معا الى الفندق حيث يقضيان وطرهما ثم تسأله عن الفرق بين المسرح والحب – ذاك ان عشيقها ممثل . يجيب : في المسرح يلعب الانسان ادوارا مفروضة عليه ، في الحياة يتصرف بطريقة تلقائية. لكن . ما هو الحب بنظرك ؟ الحب هو الشعور الذي ابديه نحوك .لا. لا تتكلم عني . كيف يمكن ذلك ؟ الحب يحتاج الى اثنين . انتهى.

لماذا الزواج طالما ان المتعة هي المرحلة التي يمر بها كل شاب وشابة تقريبا ؟ ما معنى ان يتزوج رجل او امرأة ؟ ما معنى أن تتزوج امرأة رجلا اخر سوى عشيقها – الذي تستطيع ان تتزوجه – ثم تبقى مخلصة له وتعمل على ان لا تخونه مع زوجها ؟ تلك هي الاسئلة الرئيسية التي يطرحها جودارد . وهو في هذا الفيلم مشبع بالفكر الفلسفي ، فهو يتقدم بفيلمه ، كما في الحياة ، بطرح المشاكل على ضوء البحث لا في حلها . وكذلك الفلسفة .

اما المدرسة الاميركية الجديدة فهي مختلفة تماما عن هذه النظرة. فقد بدأت تلجأ الى تحليل نفسي اجتماعي وتستعمل احدث الوسائل الطبية والنفسية الاجتماعية لتقدم لنا حلولا صحيحة لمشاكل معقولة – مثلا مشكلة التمييز العنصر : فيلم ون بوتانو توبوناتو – او فيلم عن الامراض العقلية – شوك كوريدور – حيث تعالج حالة مرضية واحدة بين حالات عديدة ويشفى المريض بعد تجارب كثيرة .

اما استغلال السينما في الناحية السياسية فمختلف جدا عن الاستعمال الفلسفي والبسيكولوجي الاجتماعي . فان اسرائيل لجأت منذ اغتصابها لفلسطين الى السينما كوسيلة جيدة من وسائل الدعاية فقدمت فيلم «الوصايا العشر» ثم حديثا فيلما كوميديا انتجته الكوميديا الفرنسية وهو عن الحياة في اسرائيل وعن اسباب عودة اليهود الى فلسطين : السبب الرئيسي هو تحقيق ارادة الله كما هو وارد في التوراة لا لجمع الاموال او لتشريد العرب . ويحلو للمخرج ان يقارن بين حياة العربي في القدس العربية وحياة الاسرائيلي في القدس المحتلة . ويبدأ الفيلم بتساؤل : هل نحن في نيويورك ؟ لا اننا في يافا او في تل ابيب . الخ... فنحن كعرب لا نطرح مشكلة وجود الشعب

اليهودي تاريخيا ولا ننفي حقه في الوجود القديم ، لكن ما ننفيه هو المؤامرة الاستعمارية على العرب وعلى جميع الشعوب الاسيوية الافريقية. ما نستنكره هو ان يدعى ان فيلم « Pas question le Samedi » هو عمل فني حقيقي . فهذا الفيلم يعرض حياة اليهودي في جميع المراحل الاجتماعية : فهو يسرق ويكذب ويزور ويتآمر ويزيف الوقائع ، ثم يكف عن ذلك يوم السبت . فنحن لا يمكن ان نقبل الجرائم الصهيونية وان نغفرها بحجة ان السبت هو يوم مقدس . لكل شعب معتقداته وتراثه وتطلعاته : لكن العصابات التي ترتكب الجرائم يجب ان تعاقب حتى ستظم الحياة ولا فالدمار هو نهاية كل شيء .

٢ — كافكا من جديد !

فرانز كافكا هو العلامة الاولى للاعمال الادبية المهمة التي قدمها سارتر وكيلين وكامو وكل الكتاب الذين يضعون الرواية والانسان في وضعيه خاصة . وقد نشرت له دار غاليمار مراسلاته بين عام ١٩٠٢ و ١٩٢٤ ترجمها عن الالمانية مارت روبر . فظهور رسائل غير منشورة لكافكا هو حدث مهم ، لاننا لا نعرف رغم شهرة الكاتب نواياه الحقيقية في كتاباته ، ولا يمكننا ان نفهم ادبه دون فهم حياته . وكافكا يمثل عالما منفردا ، ذلك ان عمله الفني وليد وعي حاد لانفصال القيم الموروثة عن الواقع ، ولان الواقع غير معطى ، ولكنه مكرس للغزو البشري ، لذا فان اول مرحلة من مراحل الغزو هي سلبية وهدامة . وينتاب كافكا شعور حاد بالخطيئة ، وهذا الشعور متجسد في مذكراته . فهو اذ يطلب الى ماكس برود ان يحرق كل اوراقه دون ان يقراها فانما يحاول ان يتبرأ من العالم وينفصل عنه كليا . الا ان كافكا كان يفكر ان يعيش من وراء كتاباته وقد وضح ذلك في رسائله لناشري مؤلفاته . والاشخاص الذين كتب لهم هم : ماكس برود ، فيليكس ويلتش ، اوسكار بوم ، اوسكار بولاك ، وثلاث فتيات احبهن حبا غامضا وناشريه . وكان كافكا يبحث عن الجوهري ، عن الرئيسي ، مما ادى الى صعوبة فهم رسائله وكتاباته. فما هو مصدر كآبة كافكا ؟ ومصدر هذه الحاجة الماسة للعزلة ومقدرته على تحملها ؟ يعتقد ان المصدر الرئيسي هو الادب بحد ذاته والمصدر الاخر هو الصراع الذي نتج عن ذلك في نفس كافكا . فكافكا مفعم بشعور لا مثيل له : شعور بالمسؤولية المطلقة ، بالاثم الذي لا ندري ما هو سببه الحقيقي . وهو يريد ان يجعل من الادب معولا يرفع العالم بواسطته. وفي « الدعوى » نجد صورة الانسان المطالب ، الملاحق : صورة ك. كافكا. وهكذا يبدو البنك المركز السري للعنف لاستغلال الانسان للانسان الخ. فما هي الواقعية في ادب كافكا ؟ ان واقعيته تتخطى المعطيات بطريقة دعيت خطأ رمزية ، اذ ان كافكا يعتمد تسمية الاشياء الحقيقية باسماء اخرى فبدلا من ان يقول « يهودي » يقول « كلب » دون ان يؤكد ان كلمة « كلب » تعني « يهودي » بالمعنى الحقيقي ، فكافكا يقدم لمحة عن الواقع لا الواقع . وهاكم قطعة فنية جيدة ، رسالة الى ماكس برود في ٥ — ٧ — ١٩٢٢ :

« ... بينما كنت ارقا هذه الليلة ، كنت اترك كل هذا يمر ويجري في جبلتي الاليمة ، شعرت من جديد ، نظرا لاني كدت انسى خلال هذه الفترة الاخيرة الصامتة تقريبا ، انني اعيش على ارض خراب كهذه ،غير موجودة في الحقيقة ، فوق ثقب لظل ما حيث تخرج كل القوى الغامضة كما تشتهي لتهدم حياتي دون ان تهتم ببكمي . ان الادب جعلني احيا هذا النوع من الحياة . وهذا لا يعني بالطبع ان حياتي كانت افضل عندما كنت لا اكتب . ففي تلك الحالة ، كانت حياتي بالعكس ، سيئة ولا يمكن تحملها ، لم يكن لها سوى منفذ واحد: الجنون ... لكن ما هي حالة الادب نفسه ؟ ان الخلق هو مكافأة لطيفة ورائعة لكن لماذا ؟ رأيت هذه الليلة بصفاء وبوضوح امثولة عن اشياء الطفولة ، ان الادب هو اجرة لخدمة الشيطان . هذا الهبوط صوب القوى الغامضة ، وتفكك الارواح المترابطة طبيعيا ، وهذا الضغط المبهم وكل ما يمكن حدوثه في الاسفل ولا نعرف عنه شيئا في الاعلى حيث نكتب الروايات تحت ضوء الشمس ... ومن الممكن ان يكون هناك اشكال اخرى للخلق ، اما انا فلا اعرف الا هذه . عندما تمنعني الكآبة ان انام في الليل ، لا اعرف الا هذه الاشكال .

... ان تعريف الكاتب ، هذا الكاتب بالذات — اي كافكا — وشرح نفاذه ، اذا افترضنا ان هذا النفاذ موجود هو : ان الكاتب هو رائد الانسانية الذي يسمح للبشر ان يتمتعوا ببراءة ، ببراءة تقريبا بالخطيئة » .

٣ — روبنز واوزنفان

ان روبنز يضع كل الرسامين في جيبه ، نظرا لطاقته وحيويته ومهارته في العمل . فهو يجتاز الاشياء المقدسة متجها صوب الاشياء المباحة ، وينتقل من الطبيعة الميتة الى الصورة والمشهد في يوم واحد. وان الكهولة لا تؤثر على روبنز ، فان امرأة في عامها السادس عشر تثيره وتدفعه الى رسوم مهمة مثل « انجليك والناسك » — في متحف فيينا — التي تعتبر بدون شك معبرة عن ذروة الشهوة العارمة ، الشهوة التي تحدث عنها بودلير « هذه المخدة من اللحم الطري حيث لا نستطيع ان نحب » . وقد اجتاز اوروبا مرارا ورسم كثيرا واراد ان يكون في نفس الوقت رجل قصر ودبلوماسيا وعاشقا ، فهو يستخدم جسده طالما ان الروح ملتهبة واليد ماهرة . وقد مات روبنز عام ١٦٤٠ ، سقط كسنديانة قوية . في القرن السابع عشر عصر الفنون المهمة حيث بدأ رامبراندت « الزيارة الليلية » وثيلاسكوز الثمل بحب ايطاليا وبوسان رسم « مملكة فلور » .

اما اوزنفان فهو احد ثلاثة رسامين كبار في عصرنا : بيكاسو وماسون ، والفن الجديد مدين بكل شيء لهذا الرسام : فهو انسان الصفاء والوضوح والعقل الديكارتي والثمل في البحث عن الصفاء الاول . ان اميركا مدينة له بمدرستها الجديدة وتاريخ الفن باحسن دليل عن الرسم الحديث ، والرسم مدين له باعظم اللوحات التي ابتكرت . لقد دخل اوزنفان في التاريخ .

ليون — خليل احمد خليل

مناقشات

على هامش ديوان الناصري

بقلم : هلال ناجي

في بواكير تشرين الاول من عام ١٩٦٥ اصدر الاديب السيد كامل خميس الجزء الاول من ديوان الناصري في ٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط ضمت ١٤٥ قصيدة وقطعة وهي تشكل نحو نصف شعر الناصري.

وليس ثمة شك في ان « كاملا » قد اقام الدليل المادي على عمق وفائه لرابطة الصداقة التي شدته الى الشاعر الراحل حين لم يدخر جهدا ولا مالا في سبيل ان ترى هذه الاضمامة النور « لكي لا يهمل الناصري او ينسى بعد مماته » على حد تعبيره .

واضمامته هذه ، يد على ديوان الشعر العربي سيحفظها له تاريخ ادبنا ما بقيت على ظهر الارض امة عربية وادب عربي .

ثم ان هذا الوفاء النادر في زمن قل فيه الاوفياء ، سيظل ابدا موضع تقدير كل الذين اطلعوا على الجزء المنشور والموا بمحتوياته .

لقد عنت لنا - بعد سبرنا غور المجموعة - بضع ملاحظات هي وليدة الحرص على شعر الناصري ، وهي ثمرة الرغبة في ان يعرف القراء بعض ما يصح قوله على هامش الديوان المطبوع .

١ - جرد جامع الديوان وطابعه اغلب القصائد من مناسباتها ونشرها عارية دون اشارة الى جو القصيدة والظرف الذي قيلت فيه ومناسبتها ومثل هذا التجريد وهذه التعرية تبهم الامر على دارس الديوان وناقده ان كان عراقيا ، فكيف به ان كان من غير اهل العراق؟

٢ - اهمل جامع الديوان وطابعه ذكر المصادر التي نقلا عنها قصائد الجزء المنشور ، ومثل هذا الاهمال يجافي الطريقة العلمية التي استقر العمل بها .

٣ - اغفل جامع الديوان وناشره وضع فهارس علمية للجزء المنشور، ونشر القصائد بطريقة عشوائية ، مهملا تبويبها وفقا لاغراضها او ترتيبها وفقا لقوافيها ، بحيث ان القارىء اذا اراد البحث عن قصيدة معينة مثلا لم يعثر على فهرس يرشده الى موضعها في المجموعة وحيث ان القصائد غير مرتبة ترتيبا هجائيا وفقا لقوافيها فسيضطر الى تقليب كل الديوان بحثا عن قصيدة ما .

٤ - ورابعة الاثافي ، ان الناصري اعتاد نشر القصيدة الواحدة في غير موضع واحد . فاذا كان النشر متعاصرا او متقارب الفترات لم تجد تبدلا فيها ، واذا كان متباعد الفترات ابصرت تغييرا وتبديلا ورأيت حذفا وتحويرا . والمفروض ان مرجع ذلك الى تمرسه بالحياة وتطور ثقافته الشعرية . لكننا نجد عند الناصري اسبابا اخرى . هذه الاختلافات في النص الواحد اهمل جامع الديوان المطبوع الوقوف عندها او حتى مجرد الاشارة اليها في الهوامش . ان ذلك يشكل في رأينا نقصا علميا خطيرا سنحاول هنا التدليل على خطورته بتقديم امثلة ثلاثة :

أ - في عام ١٩٥٧ نشر الناصري قصيدته - بغداد تحيي العاهل السعودي - ومطلعها :

بغداد يا وله البيان ... يا مشرق الفتن الحسان

لقد ضمت هذه القصيدة عند اذاعتها من اذاعة بغداد مساء يوم ١٦ - ٥ - ٥٧ ، ونشرها للمرة الاولى في كتاب (ذكرى زيارة الملك سعود الى بغداد) بقلم طه الفياض ص ١٢٥ ، الابيات التالية :

بغداد زارك عاهل ... تندى بطلعته الاماني

متفرد بجلاله ... يعنو اليه الفرقدان

حامي حمى البيت العتيق ... ومن به يزهو بياني

ذاك السعود ابو المكارم ، ... والنهى ، والصولجان

عزت به دنيا العروبة ... حين تاه الشرقان

كما ورد البيت التالي :

وتسابقي نحو التحرر ... كي تفوزي بالرهان

وجاءت في اخرها الابيات الاربعة التالية :

بغداد يا امل العروبة ... والعروبة في رهان

فودي السفينة للامان ... فانت راعية الامان

لا زلت حامية العرين ... ولم نزل اسد الطعان

حتى اطل على رباك ... فكنتما قمري زمان

وقد اعاد الناصري نشر قصيدته هذه في مجلة - الرياض - العدد ٢٢ - ٢ شباط ١٩٦٢ ، تحت عنوان (بغداد الخالدة) مسقطا منها الابيات الستة المذكورة فيما تقدم . كما اكتفى من الخاتمة ببيتين اثنين هما :

بغداد يا امل العروبة ... والعروبة في رهان

لا زلت حامية العرين ... ولم نزل اسد الطعان

مثل هذه الاختلافات المهمة بين النصين المنشورين كان لا بد من الاشارة اليها في المقدمة او في الهامش . لكن جامع الديوان اهمل ذلك ورجح النص الثاني (ص ٢٧) بلا مبرر للترجيح ، والنص الجديد فيه تغيير للعنوان وحذف وتحوير وتزييف للتاريخ وتجريد للقصيدة عن مناسبتها التي قيلت فيها .

ب - في المجموعة المطبوعة قصيدة بعنوان (تحية دمشق) -ص٧٠- وهذه القصيدة بالذات كان قد نشرها الناصري لاول مرة تحت عنوان : (عروس البحر) وذكر انها من وحي زيارته للبصرة وبمقارنة النصين يتضح ما يلي :

كان البيتان السادس والسابع هكذا :

دعتك عروس حالية المواني ... فقم جدد بها الامل المضاعا

سلاما درة الدأماء اني ... سلوت بك المدائن والبقاعا

فاستحالا بعد التحوير الجديد الى ما يلي :

دعتك عروسة الدنيا دمشق ... فقم جدد بها الامل المضاعا

سلاما جنة الاشواق اني ... سلوت بك المدائن والبقاعا

وعندما كانت القصيدة في تحية البصرة المطلة على شط العرب العظيم فقد ورد فيها البيت التالي :

وهل القى الزوارق راقصات ... على الامواج تندفع اندفاعا

فلما نحل الشاعر قصيدته لدمشق حذف البيت المتقدم واستحال البيت التالي :

اجوهرة العباب سلام صب ... تحمل من بعادك ما استطاعا

استحال الى ما يلي :

افردوس الجمال سلام صب ... تحمل من بعادك ما استطاعا

كما استحال البيت التالي :

فديتك هل تعاد لنا ليال ... طويناها على الشط اجتماعا

اقول استحال البيت المتقدم الى ما يلي :

فديتك هل تعاد لنا ليال ... طويناها على (بردى) اجتماعا

كل هذه التعديلات ادخلها الشاعر على قصيدته لان دمشق-الممدوح الجديد - ليست ميناء بحريا فلا بد اذن من تزييف في القصيدة يشمل المناسبة والصفة معا !

ج - في الديوان المطبوع قصيدة عنوانها - مأساة النبوغ - (ص ٩ - ١٠) نشرت مجردة عن ذكر المناسبة التي قيلت فيها كما طبعت ناقصة عن اصلها وقد غير حتى عنوانها . وتفصيل الامر ان عنوان القصيدة كما نشرت لاول مرة - القصيدة السوداء - وقد قالها الشاعر منددا بحكم جلاد الشعب وعميل الاستعمار - صالح جبر - الذيحاول

غن طريق معاهدة بورنسموث ربط العراق الى عجلة الاستعمار الانكليزي وكانت القصيدة عندما نشرت عام ١٩٤٨ تضم الابيات التالية :

عشقت فنائي فلا بلاد عقوقة   يصرفها رهط من الجهلاء
يسومونها عسفا فتعنو ذليلة   الى كل مأفون ربيب رياء
نراهم طبولا قارعات رطانة   وماذا بجوف الطبل غير هواء؟
بلادكم يا قوم نهب مقسم   اكلكم يا قوم اهل ثراء
وكيف وجل الناس غرثى بطونهم   يعيشون انعاما بغير كساء ؟
اتمنعنا حق الحياة عصابة   مؤلفة زورا من الوزراء ؟
يحركهم من جانب الكرخ اصبع   وينطقهم وحي من السفراء
تراهم امام الانكليز اذلة   وهم بيننا يمشون في خيلاء
عجبت لهم لا يستحون ومن يكن   بغير حياء ذل للغرباء

وهذه الابيات كلها لا وجود لها في النص الذي تضمنه الديوان المطبوع .

ان ما تقدم هو مجرد امثلة على النقص الذي لحق ببعض قصائد الديوان المنشور وهو نقص يشكل مطعنا علميا خطيرا كم كنا نتمنى لو خلت المجموعة المطبوعة منه .

وبعد : همسة اخيرة اود ان اسر بها للسيد ـ كامل خميس ـ جامع الديوان وناشره . لقد ورد في المقدمة قوله : ((وقال اكثر من واحد ، انه يفكر بجمع شعره وطبعه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث... وما كنت افكر بطبع شعره لو كان احد قد اقبل على ما اقبلت عليه ، وتحمل العبء الذي تحملته ...)) .

انني اطمئن الاستاذ ((كاملا)) ان بعض من قالوا ذلك جمعوه فعلا ففي الفترة من شباط ١٩٦٤ ـ شباط ١٩٦٥ اكملنا انا والصديق الاستاذ عبد الله الجبوري جمع ضعف الديوان الذي نشره السيد كامل مؤخرا .

ولقد اخرنا نشره لان فكرتنا في الاصل كانت تقوم على نشر كتاب يضم دراسة موسعة عن حياة الناصري وفنون شعره يضاف اليها ديوانه .

ان السبق الذي سجله السيد ـ كامل خميس ـ قد الغى فكرة نشرنا متن الديوان . لكننا نأمل ان نوفق ذات يوم الى دفع دراستنا النثرية الموسعة الى عالم النور .

تونس   هلال ناجي

لمصلحة من .. هذا الاغراب والتقعير ؟!

(تعليق على قصيدة من الشعر الحديث)

بقلم : جليل كمال الدين

في العدد الحادي عشر من مجلة ((الاداب)) ، كانت قصيدة او قل قصيدتان مزدوجتان تحملان اسما واحدا ـ غرناطة ـ للشاعر العراقي الحديث ، والمغترب في الجزائر والمغرب : سعدي يوسف . لقد قرأت هذه القصيدة مرارا . قرأتها كما ارادنا الشاعر نفسه ان نقرأها ، حين كتب هامشا يحمل مثل هذه الكلمات : ((هذه القصيدة ـ وهي تكنيكيا قصيدتان ـ محاولة لدمج انطباعين ، مختلفين ، وان كانا متكاملين . ان ايا من الانطباعين يمكن ان يكون خلفية للانطباع الاخر ، خلفية نتيجتها تشويه متبادل)) . وقرأتها كما اردت انا ـ القارىء ، محاول الفهم ، ومحاول التذوق ، ومحاول النقد ، والمحب للشعر الحديث ، والواقف قلمه في الدفاع عن منجزاته واضافاته واصالته وتطوره ، بل محض وجوده باعتباره حاجة فنية ، سايكولوجية ، فكرية وعاطفية في ذات الوقت لجمهورنا المعاصر ، ومجتمعنا العربي الكبير في القرن العشرين وفي مخاضه وثورته التي يصنع .

اقول قرأتها كما اراد الشاعر الصديق ، وقرأتها كما اردت انا ، وكما اراد اخرون من جمهور الشاعر . ومع الاسف ـ ولا حياء في النقد ـ لم نجد المبرر الكافي لهذه المحاولة في كتابة الشعر الحديث. فاولا ماذا اراد الشاعر بكل هذا ؟ اهي تمارين في رأس القارىء وعلى حسابه ؟ ام هي محاولة لاغناء الشعر الحديث بسلوك تجارب جديدة، وطرق جديدة ؟ ام هي تصريف لعبث ، لا مبرر له ؟ كل هذا ممكن ان يكون . ولكن الذي لا نبيحه للشاعر (والشاعر ممن يعتقدون انه لا يمكن لايما ناقد التقويم الصحيح الشامل للقصيدة والشاعر ، انما ذلك متروك للشاعر ذاته ، كما كتب لي في رسالة ، يوما ما ، من الجزائر) هو هذا اللعب ، وهذا العبث ، في وقت كل شيء فيه جاد . بالطبع لسنا ميكانيكيين ، او تخطيطيين ، او جامدين لنصدر الفرمانات : هكذا يجب ! وهكذا لا يجب !! وهذا مباح وهذا ممنوع ! كلا . المسألة لا يمكن ان تطرح بهذا الشكل . ولكن الذي يهمنا هو مصلحة الشعر الحديث ، وقضية الشعر ، وقضية انساننا العربي المعاصر . وكل ما لدينا يجب ان نخضعه لهاته المعاملات (وليس المعادلات) . اننا لا نستطيع ان نتجرد من العصر ، ونحن نعيش فيه . وهذا ، وانطلاقا من هذا ـ وفي رأيي انه الانطلاق الواجب ان يكون ، باعتبار الجدية والرصانة،ووجوب عيش العصر جوهريا ـ نسأل شاعرنا : ماذا اراد بهذا كله ؟ واي شيء يضيفه هذا الى انجازات الشعر الحديث ؟ واي خير لقضية الشعر بهـذا ؟ ثم لماذا كل هذا الاغراب والتقعير ؟ الكي يجد اعداء الشعر الحديث ، وهم كثيرون (والحمد لله !) ، واليمين الذي يحاول اثبات وجوده بكل صورة ، الحجة على انعدام ضرورة ، وبؤس ، ولا جدوى الشعر الحديث ؟ يا سيدي لماذا كل هذا ؟ واي خير فيه ؟ اي خير في ان يقرأ القارىء الابيات التي طبعتها المجلة بحرف باهت ، مجتازا تلك التي طبعت بحرف غامق ، ثم معيدا قراءة القصيدتين ـ كما هما ـ مجتمعتين ، ليفوز بشيء كان ممكنا ان يكون طبيعيا من الوهلة الاولى ، اقصد كان ممكنا ان يترتب بشكل عضوي : تطور عضوي : فيه النمو النفسي ، والفني ، والفكري ، وفيه وحدة الشكل والمضمون . انا واثق ان الشاعر من الرعيل الاول ، وله طاقات ضخمة كما يقول الاخ الدكتور احمد كمال زكي ، في تعليق له على قصيدة للشاعر ، في عدد مضى من الاداب بعنوان ((تقاسيم على العود المنفرد)) ، ولكننا نشفق ـ والله ـ على هذه الطاقات ان تتبدد ، او ان يغريها ريح التجديد ـ ايما تجديد ـ لكي تتبدد وتضيع . اننا نريد لهذه الطاقات عند شاعرنا وسواه ان

تجتمع ، ان تلتئم وان تتفتح ، وان تتطور ، ان تكون فاعلة ، بناءة ، مجيدة . افلم يكن ممكنا للشاعر ان يضع القصيدتين ، الواحدة بجنب الاخرى ، او الواحدة مكملة للاخرى ؟ ام هي السريالية ، حين يجتمع الوعي واللاوعي ، وحين تتعقد الخلفيات وتتبادل التأثير ، وتتفاعل معا ، ولو كان ذلك بشكل فوضوي ؟ نعم ان ذلك قد يكون مباحا في فن كالرسم ، حين نسجل اللوحة ذروة الصراع ونهايته . ولكن في قصيدة ، تحمل محتوى فكريا تقدميا ، ولها بناؤها النفسي والحدثي والفكري ، لا يمكن ان يكون مثل هذا التكنيك ، او في احسن الاحوال لا يمكن أن يتبرر ، واذا نبرر فبأشق الجهد ، ومرة اخرى لماذا كل هذا؟

ان قارئنا ليس من عمق الثقافة ، وضخامة الصبر – بالرغم من ضخامة طيبته وثوريته وحبه لقضية الشعر ، والشعر الحديث بخاصة – لكي يهضم مثل هذا . واذا هضمه ، فكما قلنا بجهد جهيد ، وبهامش من الشاعر وسواه ، وباصابع ربما كانت غريبة على قضية الشعر الحديث ، التي يفترض فيها رفع القارىء الى افاق جديدة ، الى افاق العصر الذي نعيش ، وتخطيها ، لا بارادة نيتشوية ، ولا بحلم ميتافيزيقي منهافت – بل بشكل واقعي ، يجد كل نبريره ومفهوميته ومعقوليته .
نعم ان التجارب الجديدة تصدم القارىء حتما لاول وهلة . فلقد كتب ماياكوفسكي الشعر بشكل اثار عليه نقمة النقاد ، في اكثرهم ، بل ونقمة القارىء او عدم تقبله او حتى احتجاجه . ولكن الشكل الذي كتب به ماياكوفسكي الشعر وجد امتداده في شعراء اخرين . ومع ذلك فان ماياكوفسكي نفسه لم يصر عليه ، في كل قصائده . الشيء الذي اريد ان اقول هو ان التجديد ليس موضة او مجرد نزوة ، والا لعمت الفوضى ، واختلط الحابل بالنابل . التجديد هو الذي يفرضه منطق العصر ، ومصلحة الانسان المعاصر ، ومصلحة وقضية الفن ذاته. الشكل ، ملتحما بالمضمون ، لا يمكن ان ينعزل ، او يعزل بمحض ارادة الفنان . وهنا ، فاننا قد لا نجد السبب الملح ، والدافع المبرر ، لهذا الخلط السريالي في تكنيك الشعر الحديث ، في حين كان ممكنا تماما ان يكون الامر بشكل اخر ، كان سينتفع القارىء وانساننا وقضية الشعر كما وكيفا بدرجة لا تقارن مع هذا الذي تعطيه القصيدة مصبوبة بهذا الشكل القسري الاعتباطي ، دونما حاجة لقسر واعتباط .

ان « الاداب » ، وهي مع الشعر الحديث ، واحد اكبر حماته ومنطلقاته ، تحمل قصائد جيدة – فيما تتسرب بعض الاحيان (ولا مناص في الظاهر من هذا) قصائد غثة – من الشعر الحديث . خذ مثلا قصيدة « خيبة الانسان » – من دون كلمة « القديم » التي لم تجد لنفسها داعيا وضرورة – للشاعر المجيد بلند الحيدري (في ذات العدد : ١١ نوفمبر). انها قصيدة رائعة ، طيبة ، لا بعطائها المضموني فحسب ، بل – وهذا اهم – بوحدتها العضوية كشكل ومضمون ، بكامل كيانها ، بعصريتها وجدتها واصالتها وصدقها المضموني والفني ، بافاقها وبتطورها في كل ابعاده وقطاعاته . انها مقنعة ، تقنع القارىء والجمهور ، ولا تفرض صلاحيتها بمرسوم او بامر او بمحض هرجلة ميتافيزيقية (تتعذر فيها اوجه التأويل ، كما لو انها سحر او شعوذة – وهذا لا يعني ان قصيدة سعدي كانت تحمل كل هذا . الشاعر ، والذي هو الانسان ، صلى ، وصام ، وفعل كل ما فعل : ناضل ، وضحى ، وضاع ، ووجد نفسه : نما ، وكبر ، ونطور ، ولكنه ، في النهاية يخيب (وهذا لا يعني انه سيخيب كل عمره) . انما هو يخيب في تلك اللحظة ، ويضيع (وليس في ذلك بأس ، فهذا ممكن الحدوث ، بل هو يحدث) . وقد اراد الشاعر ان يتطور بهذا الانسان الى فوز والى نصر ، ولكنه لم يستطع، لان الحياة ذاتها ، في ذلك الظرف والزمان والمكان ، وبذلك الاطار التاريخي الذي يتحد مع المطلق ، لا متخطيا له ، بل متفاعلا معه – لم تستطع الا ان تفرض هذا ، اعني الخيبة : انه يقنع القارىء ، ولا يعميه او يذهله بما لا يفهم .

« صليت يا اختاه – صليت حتى صارت الذنوب في مجاهلي صلاه – وصمت حتى جفت الشفاه – وقلت : في الشفاه – في الخشب المعد للشتاء لي اله – وانني سحابة جادت بها يداه – وانني من يبسي افجر الحياه »

اذن اراد الشاعر ان يفجر الحياة ، واراد ان يستمر بها ، اراد لنفسه السعادة والفرح . وهو ليس قد اراد ، وانما قد فعل من اجل هذا . ولكن ماذا يفعل وصلب الانسان لا نهاية له :

« وكانت الحياه – تسمر الصليب في الجباه – وتصلب المسيح
كل ساعه – تصلب هذا الميت كل لحظه – فينتشي من المي
هداه – وفي عيوني المائتات ترتمي سماه – حكاية عن تائه
تخنقه خطاه – وكنت يا اختاه – احمل في اعماقي المناه »

ان صلب الانسان مستمر . تفعل ذلك قوى مرئية وقوى لا مرئية (بالنسبة للبعض) . ولكن الشاعر – الانسان يعي كل هذا . ان لديه الطيبة ، والبساطة ، والاصالة ، والارادة الواعية الفاعلة بمدى واقعي ، وبجوهر ثوري (دون ان نجد ايما كلمة تعبر عن المزاج الثوري الناري الذي يهلوس به البعض) . ولكنه مع ذلك يخيب . ان الخيبة هنا واقعية ، ومصير لا مناص منه . ومع ذلك فهي لا تفرض اليأس المطلق ، فان خنجر سبارتاكوس يأخذه ابنه ، وتظل البشرية تعمل من اجل السعادة . ان الخيبة خطوة مفروسة من اجل افق جديد :

« صليت – صمت – صرت في متاهتي اله – وصارت الذنوب في مجاهلي صلاه – وجفت الشفاه – وها انا اموت يا اختاه – كما يموت الرب في منفاه – ولست غير خطوة غرستها في الرمل كي نحلم بالمياه » .

وهكذا ، وبهذا المفهوم ، والشكل الذي فهمنا به القصيدة ، بابعادها الحاضرة ، يكون الشاعر قد قال شيئا ، انجز انجازا : اضاف وعمق شيئا من رؤيانا الحديثة .

ولكي لا نتهم بالتعميم والاعتساف ، دعنا نعود الى سعدينا ، ونسوق امثلة . ونبادر فنقول اننا لا نحتج على محتوى القصيدة (القصيدتين ، في واقع الامر) ، فالمضمون هنا واقعي وصادق ، ولكننا نحتج على ما رأيناه اخلالا بالوحدة العضوية للشكل والمضمون في القصيدة ، على ما وجدناه اعتسافا واعتباطا وعبثا لا داعي له . انها « غرناطة » لوركا . والقصيدة بكلا جزأيها (الملتحمين عند الشاعر ، بشكل فوضوي ، كما يخيل لنا) تتحدث عن لوركا والشعب الاسباني في حاضر وماض ، رابطة ذلك بالانسان المعاصر ، والانسان المطلق ، ومتحدثة عن « الخيبة » – خيبة الانسان المعاصر ، ولكن من زاوية اخرى، وبشكل اخر . انها في المحتوى تضيف ، ولكنها باخلالها في وحدة الشكل والمضمون تأخذ ما اضافته ، اي انها تعطي بيد ، ما تأخذه اليد الاخرى . القصيدة الاولى نرتبت هكذا : « منتصف الليل – لقد اطفئت الحمراء – في الساحة – عيناه – في الساحة – خطوته – في اخر الساحة – قميصها يستر بالزرقة مصباحه » ، « منتصف الليل ، كخصر امرأة يطوى – وفي الشارع قيثارة – ينهمر النارنج منها ، والندى يفرس ازهاره – في الليل – في منتصف الليل – هنا فارق عبد الله اسواره – جواده النجمة ، واغنيته شاره – نائمة انت ، وفي شعرك نواره » .

انها قصيدة لوركا الاندلسي وعبد الله العربي الاندلسي اخر ملوك العرب هناك ، وهي تجمع بينهما ، في نمو حدثي ، وفني ، ونفسي رائع . الجو هنا لوركاوي ، ولكنه جو غرناطة ، وجو الفجر ، فجر لوركا والشعب الاسباني . انه القتل في منتصف الليل : قتل لوركا ، وقتل الانسان ، وقتل السعادة . اما القصيدة الثانية فهي تحمل احساس الشاعر ، مصبوبا بشكل اخر ، متفاعلا بشكل اخر مع الحدث ذاته ، ولكنها ترتبط بذات الشاعر ، في انطباعه وخلفيته الفكرية العاطفية والنفسية ، اكثر مما ترتبط بلوركا ذاته ، او بعبد الله :

« في البائسين » اراك تبحث في الظهيرة – ووراء بهرجة المدينة *والمخازن ، عن حكاياك الصغيرة – عن منشد اعمى ، وزاوية تدور بها القصائد – سرية ، عن ذلك السفح الذي قتلوا به لوركا ،* وعن بقيا قصائد – لما تزل مطوية الاهداب ترقد بانتظارك » ، « طوفت ، حتى في الازقة ، حيث تتعبك الكلاب – متسائلا عن شاعر قتلوه، وانفجر الجواب:

– « لوركا ؟ اجل .. لوركا ؟ درسناه ... » « .. وتتبعك الكلاب – متعثر الخطوات ، تسألك الازقة عن جواب – عد ، فالفتاة الان في المقهى، وقد يأتي سواك – كي يطلب الثقاب منها – تلك اغنية اليتامى – تمت ومنشدها تململ .. ثم قاما » .

هنا نرى الشاعر نفسه، مطوفا كالتروبادور، كلوركا ذاته، باحثا عن لوركا وعن جوهر الانسان مطلقا ومحددا في لوركا وشعبه الاسباني ، وسائر امتداداته واختلاطاته وتفاعلاته مع الحضارة العربية الاندلسية في ماض وحاضر . المعاني كبيرة ، معطية ، تحمل شحنة من الحزن ، والتراجيديا عموما ، كاكثر قصائد سعدي في (اه قصيدة – ديوانه الثاني بعد « القرصان ») . انها تذكرك بقصائد سعدي عن البصرة ، والمهربين ، والاهوار ، والفلاحين الذين يقتلهم الاقطاع في رابعة النهار، وبالخليج والمهاجرين الذين يتعللون باللقمة والقرش والذين يعيشون ابدا كالفجر تلفهم دوامة الغربة ، متفاعلة مع شبح الامل بالعودة (انه هنا يكمل السياب في تجاربه الكبيرة ، وتصويره الخلاق لتلك التجارب الانسانية العظيمة) . وهنا ريشة سعدي هي ذات ريشته ، مفتنية بالغربة الاضطرارية بعد الستينات . وكل هذا شيء رائع وكبير وواعد ومعط في ذات الوقت . ولكن ، مرة اخرى ، لا نجد ذلك التبرير لهذا الشكل الذي وجدناه – او حسبناه – فوضويا ، ربما تبرر في لوحة سريالية انسانية عميقة المحتوى والعطاء ، ولكنه قد لا يتبرر في قصيدة جمعت بين المعاصرة والجدية – لا على مستوى الامل ، ولكن على مستوى البدء بالعطاء . فهنا يتبدد انتباه القارىء ، ويضيع الشيء الذي نريد ان نعطيه . ربما اجتهد الشاعر كثيرا لكي تكون القصيدة (بجزأيها) « محاولة لدمج انطباعين ، مختلفين ، وان كانا متكاملين » كما قال هو في هامشه . ولكن لم كل هذا ، والشاعر ذاته كان يستطيع – وهو القوي المتمكن من عدة الشعر الحديث – ان يعطينا العطاء ذاتـه واخصب ، بشكل اخر ، بشكل اكثر اقناعا ، واكثر تجاوبا مع العصر ، او مع مستوى القارئة عندنا ، مع ما تمليه مصلحة الشعر الحديث وقضية انساننا في اللحظة المعينة .

ربما اراد الشاعر ان يضرب بنفسه المثل في الريادة لمثل هـذا الشكل من الشعر الحديث . حسنا ، اننا لا نعترض . ان الاشكال مباحة ، والشاعر هو اكثر الناس حقا في الحرية ، لانه عن طريق انطباعه الذاتي ، وتجربته التي لا يمكن ان تنفصل عن عاطفته ونفسه وكل خلفياته الفكرية والنفسية والحياتية ، يريد ان يقول لنا ، باكثر الاشكال الفنية انضغاطا وتكثيفا ، ما تقوله الحياة ، في جوهرها ، على مستوى الامل ومستوى التنفيذ ، والافق ما وراءه . ولكن قارئنا في مثل هذا المستوى ، وفي هذه المرحلة ، لا يمكن ان يهضم كل هذا . ربما هضمت ذلك فئة قليلة ، لا يمكن ان نحسب مثلا او رصيدا لقضية الشعر الحديث ، في اطارها التاريخي المحدد بزماننا هذا . ولكن الكثرة تصدف عن هذا . واذا كان الشاعر محتاجا لهامش او مقدمة نثرية او حتى شرح نثري – كما يفعل البعض ، فليس ذلك دليل عافية للشعر الحديث. انه بذلك ينعزل . وباختصار اننا نعد ذلك سبقا للاوان ، وتخطيا لوعي القارىء ، وعدم دقة في الواقعية. وفي رأينا ان سعدي لم يفكر بالقارىء طيلة الوقت الذي كتب به هذه القصيدة الرائعة بجزأيها ، والمعطية بمحتواها الانساني النبيل (رغم تهشم وحدتها الداخلية) ، كما فكر بلند . اننا نخشى ان غربة الشاعر قد ادت به الى ان ينسى واقعه العربي ، وبالدقة الاطار التاريخي الذي يعيشه الانسان العربي . وان اوروبا قد فتنته من ناحية البدع والابتداعات التي لا تجد لنفسها نهاية ولا حدا . ان التجديد يا عزيزي سعدي ، ليس موضة ، وليس مجرد فكر يخطر في ذهن الشاعر والفنان . ان له تاريخيته، وله مضمونه ، وله واقعيته ، ومثل هذا لا يخفى عليك انت ، يا شاعرنا الواقعي الخصب . ان تجاربك وعطاياك مع عطايا بلند والبياتي وادونيس وحاوي والصبور وحجازي والعديد العديد من شعرائنا الحديثين ، تغنينا وتعمق رؤيانا ، وتدفعنا الى امام ، ولكن لنكن واقعيين ، ولتكن لنا البساطة مع العمق ، والابهام مع الايحاء ، والارادة مع الواقعية. لنحترم الزمان والحياة !

موسكو جليل كمال الدين

تصحيح

بدأ الاستاذ طاهر التركماني وختم تعليقه حول قصيدتي « سنابك البعاد » منبها الى وجود بعض الاخطاء العروضية والنحوية ، اي ان محور اهتمامه كان منصبا حول هذه الناحية .

وقد فات الاستاذ التركماني أن الارتباك الموسيقي الحاصل في « فالناس يخطرون كاشباح حولي .. كالظلال » ليس الا نتيجة خطأ مطبعي ممكن حدوثه ، فلماذا لا تجيء كلمة « اشباح » معرفة بأل تماشيا مع كلمة « الظلال » المعرفة على الاقل ، واظن ان ذلك كان واضحا من سياق البيت الشعري نفسه .

اما « غريبة هنا .. متعبة هناك . رشق الصدى ، منه الزهور » فهي لم تفقد موسيقاها كثيرا رغم سقوط وتد في التفعيلة الثانية لتكون « غريبة انا هنا » .

واعتقد انه من الجائز في « نحطها .. الرحال » أن تكون بدلا عن المفعول ولو انها قليلة الاستعمال .

هذه هي بعض الملاحظات التي اردت ايضاحها ، ولو انها ليست النقاط الاساسية ..

آمال الزهاوي



لبنان

جوائز اصدقاء الكتاب ١٩٦٦

***

تعلن جمعية اصدقاء الكتاب في لبنان ان جوائزها لعام ١٩٦٦ ستمنح على النحو التالي :

اولا – جائزة فخامة رئيس الجمهورية : وقيمتها خمسة الاف ليرة لبنانية تقدمها وزارة التربية الوطنية وتمنح لمجموعة اثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت باللغة العربية .

ثانيا – جائزة لبنان في العالم : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية، تمنح لمجموعة اثار مؤلف لبناني تميزت بالجودة وصدرت باللغةالفرنسية.

ثالثا – جائزة الدراسات اللبنانية : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، تقدمها وزارة الانباء والارشاد والسياحة ، تمنح لافضل كتاب يدرس قضايا المجتمع اللبناني الفه لبناني ونشر في لبنان .

رابعا – جائزة مدينة بيروت : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية يقدمها مجلس بيروت البلدي وتمنح لافضل كتاب ، يؤلف حول التصميم (التخطيط) الانمائي في الاقتصاد الفه مؤلف من اي بلد عربي ونشر في لبنان .

خامسا – جائزة مدينة صيدا : وقيمتها اربعة الاف ليرة لبنانية، يقدمها مجلس صيدا البلدي ، وتمنح لافضل كتاب في تاريخ صيدا منذ القدم الى الان يبرز النواحي الحضارية والاجتماعية في كل عصر من عصور صيدا التاريخية ، وخاصة في العصر العربي ، الفه مؤلف لبناني ونشر في لبنان .

سادسا – جائزة الكويت : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ،تقدمها وزارة الارشاد والانباء في الكويت ، وتمنح لافضل كتاب في العلوم البيولوجية او الكيميائية او الفيزيائية او الرياضية ، اله مؤلف من البلاد العربية ونشر في اي بلد عربي .

سابعا – جائزة المملكة العربية السعودية : وقيمتها ثلاثة الافليرة لبنانية ، تمنح لافضل كتاب في التخطيط التربوي ، الفه مؤلف من البلاد العربية ونشر في اي بلد عربي .

ثامنا – جائزة فلسطين : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، تمنح لافضل كتاب حول ناحية من نواحي القضية الفلسطينية ، الفه مؤلف من البلاد العربية دون تحديد للغة او لمكان النشر .

تاسعا – جائزة القانون : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية تقدمها وزارة العدل في لبنان لافضل كتاب في ناحية من نواحي القانون اللبناني الفه لبناني ونشر في لبنان .

عاشرا – جائزة القصة : وقيمتها ثلاثة الاف ليرة لبنانية ، وتمنح لافضل رواية كتبها لبناني ونشرت في لبنان .

احد عشر – جائزة الشعر : وتمنح لافضل مجموعة شعرية نظمها لبناني ونشرت في لبنان .

شروط الجوائز :

١ – يجب ان تكون الكتب المرشحة للجوائز مؤلفة باللغة العربية الفصحى ومنشورة خلال عامي ١٩٦٥ – ١٩٦٦ . (ماعدا الجوائز التي نص عليها خلاف ذلك) .

٢ – يجب ان تكون الكتب المرشحة مطبوعة لا مخطوطة ، ومنشورة للمرة الاولى .

٣ – يرسل الراغبون في ترشيح مؤلفاتهم لاحدى الجوائز (ما عدا الجائزة الاولى والثانية اللتين تمنحان تقديرا) خمس نسخ من الكتاب الى مركز الجمعية – كورنيش المزرعة ، مفرق المدينة الرياضية – بيروت .

٤ – يجب ان تسلم النسخ الخمس في موعد لا يتجاوز اخر ايلول ١٩٦٦ لقاء وصل مؤرخ بالاستلام .

٥ – لا يحق لاعضاء جمعية اصدقاء الكتاب ان يرشحوا مؤلفاتهم لاحدى الجوائز .

٦ – يحق لجمعية اصدقاء الكتاب ، بناء على توصية لجنة احدى الجوائز ان تجزىء الجائزة . كما يحق لها ان تحجب الجائزة اذا لم تقدم لها مؤلفات في المستوى المنشود .

٧ – لا يجوز ترشيح كتاب سبق ان اشترك بجوائز اصدقاء الكتاب من قبل .

كانون الاول ١٩٦٥ **جمعية اصدقاء الكتاب**

الجمهورية العربية المتحدة

رسالة القاهرة من : سامي خشبة

المثقفون الثوريون والوحدة الفكرية

***

طرحت مجلة « الاشتراكي » التي تصدرها امانة الدعوة والفكر للاتحاد الاشتراكي العربي ، مشروعا لميثاق ثقافي لمناقشته والاتفاق عليه باعتباره الاساس الاولي لوحدة المثقفين المصريين الفكرية . ويعد هذا المشروع التمهيد لعقد مؤتمر عام للمثقفين المصريين بهدفارساء القواعد العامة التي يتجمعون حولها في مرحلة البناء العظيم القادمة .

في نهاية المشروع يطرح هذا السؤال : من هم جمهورنا الحقيقي؟ ويجيب المشروع في وضوح وحسم : « ان الغالبية العظمى من شعبنا تتألف من عمال وفلاحين وجنود ... ، والمشكلة ان هذا الجمهور اغلبه امي اولا ، وغير مثقف بالتالي ... » . من هذه الزاوية التي توجه انظار المثقف الى الشعب منذ البداية والتي تضع اصابع هذا المثقف على حقيقة مؤلمة جارحة ، ولكنها دافعة وخلاقة في آن معا ، حقيقة ان شعبنا اصبح في معظمه ونتيجة لعصور متتالية من الافقار والتجهيل والارغام على التخلف ، شعبا فقيرا واميا ومتخلفا ، ولكنه ايضا ظل – بقدرة الانسان المبدعة على المقاومة والتجدد – قادرا على الاحتفاظ بملكاته وجوانب الاصالة فيه وموروثه الحضاري العظيم . وعلى هذا فلقد اصبح الفنان والكاتب ملزمين بالا « ينظرا الى الشعب مثلما ينظر اليه اعداء الشعب ... » انهما لا يتعاليان عليه ولا يقدسانه في غرور صبياني او في سذاجة بلهاء ، وانما يتعلمان منه ويعلمانه ، يمحوان اميته ويثقفانه ويتثقفان بموروثه في وقت واحد ، يؤكدان عظمته حينما يكون عظيما ، ويبرزان جوانب قصوره في غير رغبة في التشهير بـه

وبغير استسلام لمفهوم طوباوي ساذج عنه .

وعلى الرغم من اقتصار المشروع ـ تقريبا ـ على مناقشة قضايا الادب والفن دون قضايا فروع العلوم الانسانية المتعددة ، الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والصحافة والتاريخ والقانون وغيرها رغم سيادة تيارات متخلفة او معوقة للتقدم الفكري لشعبنا او لا انسانية فيمفهومها العام الذي تقدمه عن الانسان وعلاقته بالتاريخ والمجتمع والوجود ككل، اقول انه على الرغم من هذا القصور الا ان المشروع استطاع أن يقدم اساسا لنظرة انسانية وعلمية تصلح لمناقشة حتى تلك الفروع التي لم يتعرض لها . وقد لا يكفي ان نقدم ملخصا سريعا لنقاط المشروع ،ذلك ان هذه النقاط قد جاءت ملخصة هي نفسها او سريعة مباشرة دونمحاولة « لتنظيرها » او اقامة قاعدة نظرية او تاريخية لها . ولكن نظرة«تفطية» واحدة قد تكفي لتلمس الخط الواحد الذي يربطها ويحكم تلاحمها .

يبدأ المشروع بتأكيد ضرورة الادب والفن باعتبارهما الغذاء الروحي للشعب والذي بغيره لا يمكن ان تنتقل الثورة الى « داخل » الانسان بعد ان تكاملت عناصرها خارجه ، ثم اكد المشروع صفة الثقافة باعتبارها خدمة تقدمها الدولة وليس سلعة تهدف من ورائها للربح . وجاءت بعد هذا مجموعة من القضايا التي طرحتها منذ سنوات حركة التقدمالفكري في بلادنا واستطاعت ان تحقق لها اوضاعا يقينية في اذهان الاجيال الشابة من مثقفينا ، قضايا نبوع الفن من الواقع ثم عودته اليه،والفصل الكامل بين الدعاية والفن ، وبين الفن والاعلام ، رغم ان الفن في جوهره انمـــا هـو دعوة لفكرة او قضية ما وان تحولت في الفن الى حياة انسانية مجسدة . وتحدث عن احتياجنا الى تراث البشرية الفكريوالفن العظيم وارتباطنا الانساني بهذا التراث ، والوصول باعمالنا الفنية الى مستوى التلقي العالمي الشامل عن طريق اكتشاف قسماتنا الانسانية الخاصة وتقديمها الى ذلك التراث الفكري للبشرية اضافة اليه واثراء له . واكد ضرورة ارتباط المثقفين الثوريين باسلوب التقدمالاشتراكي الذي اختاره شعبنا وارتباطهم بالتالي بكل الاتجاهات الفنية التي .. « تناصر الانسان وتعطف عليه وعلى مشاكله ونهتم اهتماما اصيلا بتقدمه » ، وابرز من بين هذه الاتجاهات الواقعية والرمزية التقدمية والتعليمية الخلاقة ... «وكل الاطاراتالاخرى ذات المضمون التقدمي». وبعد ان اشار الى جمهورنا الحقيقي ، غالبية شعبنا ، العمالوالفلاحين والجنود ، طرح اسئلة تعني اجابتها الوصول الى غالبية هذا الجمهور العريض .. « كيف ننطلق الى الريف ؟ » ، « كيف نربـــي الكوادر الفنية ؟ » . واخيرا اكد على ضرورة القيادة الجماعيةللاجهزةوالمؤسسات الفنية ، المسارح ودور الكتب والسينما والاذاعة والتليفيزيون ومؤسسات النشر والصحافة .

***

ان الاحساس الغالب الذي يخرج به اي مثقف ثوري بعد قراءة هذا المشروع ، لهو الاحساس بان بلادنا تنغمس انغماسا شاملا وبالتدريج في معركة التقدم التي فرضها علينا العصر ودفعنا اليها التاريخ . والمشروع يأتي في الحقيقة ثمرة لبداية انغماسنا « العقلي » في هــذه المعركة ، بعد انغماسنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي فيها . لـم يكن من الطبيعي ان تحقق مصر استقلالها السياسي والاقتصادي كاملا عن دائرة نفوذ رأس المال الاستعماري العالمي ثم نختار طريقا رأسماليا للنمو ، هو طريق مغلق ومدمر بطبيعته . لذلك كان النمو الاشتراكـي هو الطريق . ولم يكن حينئذ مفر من الصدام بين قوى الشعبالمقهورة وبين « بثور » الاستقلال السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ودارت المعركة على الارض وفي المصانع والبنوك وشركات التاميـــن ، معاقل الاستغلال الاقتصادي ، حتى استولى عليها المقهورون ليشرعوا في بناء مجتمع جديد . وبينما انهارت كل هذه الاسس التحتية لبناء مجتمعنا القديم ، ظلت ابنية ذلك المجتمع الفكرية والاخلاقية قائمة ، لا فيعقول الناس فقط ـ فهذا معقلها الاخير الذي تقاتل عنه في استماتة وحذق ـ وانما في « الواقع » ، وفي قلب هذا الواقع الاشتراكي ، فيالاجهزة التي تملكها الدولة التي تبني الاشتراكية ، والتي توجه منها معركتها الايديولوجية والفكرية والاخلاقية .

ولقد كان من الممكن للدولة في المجال الاقتصادي مثلا ان تؤمم مؤسسة صناعية او مالية ، وان تجري بعض التعديلات او التغييرات في المناصب الرئيسية ، لكي يجري العمل فـــي اطار خطة التنمية الاشتراكية العامة دونما تخلف كبير ، بل وفي كفاءة جديرة بالاعجاب في كثير من الاحيان . ولكن اجهزة وزارة « المعارف العمومية » القديمة، التي تولدت منها عشرات من الاجهزة والهيئات والمؤسسات المسؤولة عن حياتنا الثقافية كانت عاجزة عن احداث اي نوع من التغيير الكيفي او الحقيقي في تركيب انتاجنا العقلي في مجالاته المتعددة . لم يحدث ان جاء مشروع تطوير الازهر من داخل الازهر نفسه او مـــن اجهزة « المعارف العمومية » ، وانما جاء من قيادة الثورة مباشرة في حساسية مبدعة وغير عادية تجاه مراكز التخلف وامكانية تحويلها الى مراكـــز للتقدم لا تضارع في حيويتها . كذلك لم تخرج مجلات « الطليعة » ، « الكاتب » من بين اصابع اجهزة « المعارف العمومية » تلك وانمـا خرجت كل منها وليدا لتفاعل حي وخلاق لمجموعات من المثقفين الثوريين الذين شاركوا في صنع الثورة او ارتبط وجودهم الاجتماعي والفكري بنمو الثورة وتطورها . اما اجهزة « المعارف العمومية » فقد نبشت حفريات احقاب بائدة ، فاخرجت اصابع هذه الاوابد المنقرضة في العقد الثاني من النصف الثاني من القرن العشرين ، مجلات مثل « الرسالة » او « الثقافة » اللتين حكم عليهما منطق التطور الثـوري بالانقراض ايضا ، وسلاسل مثل « روايات عالمية » وما تقدمه من نوع « طرزان الرجل الفرد » او تشويهات ممسوخة لاعمال متوسطة ، ومسلسلات اذاعية من نوع « سمارة ! » ، « المعلمة سمارة » ، « عودة سمارة » ، حتى اذا شعروا ـ ولات حين هذا الشعور ـ بأن اسم سمارة قد اصبح شائها مبتذلا ، طوروها فجعلوها « المعلمة توحـة ! » او مسلسلات تليفيزيونية من نوع « هارب من الايام » وما ننتظره من « عودة هارب من الايام » او من « الذكريات » على سبيل التطوير ، ربما او بالتاكيد !.

وليس هذا ، او لم يكن هذا ، جريرة اجهزة « المعارف العمومية » وحدها ، ولجانها المخصصة للشعر أو للنثر ومراقباتها المتخصصة في « التمثيليات » او « البرامج » التي لا ندري ماذا يطلق عليها مـــن الاسماء . وانما كان كل هذا نتيجة لظاهرة تاريخية ، هي نفس الظاهرة التي ولدت « نوع » ثورتنا الخاص والجديد . كان لا بد وان تخرج الطليعة الثورية للاستيلاء على السلطة ، ثم كان لا بد لها وان تقـود صراعا ثوريا يهدف الى استخلاص الوطن من السيطرة الاستعمارية السياسية والاقتصادية ، ثم كان لا بد من معركة اجتماعية تستخلصفيها مراكز الانتاج الاقتصادي الرئيسية من قبضة طبقات مستغلة لكي تضعها في ايدي الشعب . تم كل هذا دونما تنظيم قيادي متكامل يتيحالفرصة لايجاد نوع من تقسيم العمل والتخصص فيه بين كوادره حتى تسيـر العملية الثورية دون اهمال لجانب معين من جوانب البناء في الوقت الذي يتم فيه التركيز الشديد على جوانب اخرى . فاذا كانت معركـة العدوان الثلاثي هي « السويس الوطنية » ، وكانت تأميمات يوليوسنة ١٩٦١ هي السويس الاجتماعية ـ على حد التعبير المشهور ـ فقــد اصبحنا بحاجة فعلية الى «سويس ثقافية» ، معركة تستهدف استخلاص مراكز الانتاج الفكري والفني من ايدي مخلفات الجوانيين والسلفيين وأولئك الذين يتوهمون « قبائل » فكرية تعيش في مصر تتصارع حول ايهما « احسن » الآمدي ام الجرجاني ، وبقايا المفاهيم السطحية عن فلسفات معاصرة لخصها « مراهقوها » في كلمات السأم والمللوالقرف، والاخرين الذين يستشهدون بالحديث القدسي : « فكروا في كل شيء الا في ذاتي لئلا تضلوا » ، ويكادون يدخلون في ذات الله ـ تعالى الله وحاشاه ـ يكادون يدخلون في ذاته عمود الشعر والكتابة بفصحى نجد في القرن السابق للهجرة ، ويستصدرون قرارات بالحرمان ـ فـي خيالهم وحدهم ـ ضد كل من يجسر على القول بأنه لا شيء متعلـق بالانسان محرم على تفكير الانسان نفسه ، محرم على ابداعه الفني ان يلجه وان يتفحصه وان يطمح الى تغييره .

هذه السويس الثقافية ، هذه المعركة المحتدمة بالفعل ، بين قوى التقدم وقوى التخلف في الميدان الفكري والثقافي ، والتي يمثل مشروع « الاشتراكي » الثقافي التمهيد الموضوعي لصدام كبير الاثر فيها ، لا بد وان تنتج نوعا من التجمع – على اي درجة من درجاته – بين المثقفين الثوريين بوجه عام، وايا كان انتماؤهم الفكري او الاجتماعي. بصراحة، المثقفون الثوريون في مصر مفككون ومتباعدون في الوقت الذي يعملون فيه جميعا من اجل اكتشاف وتأكيد قيم البنـــاء الفكري والوجداني والاخلاقي الجديد الذي لا بد وان ينعكس عـــن اوضاعنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الثورية الجديدة . وليس بوسع « الدولة » ان تقدم لهم في ذلك عونا بحكم طبيعة ثورية هذه الدولة ، التي هي – بكلمة واحدة صريحة وقاطعة – دولة غير « ستالينية » ولا يمكن ان تكون كذلك . لا يمكن ان تستصدر الدولة قرارات مضادة بالحرمان، والشيء الطبيعي ان المثقفين الثوريين لا يطمحون الى صدور مثل هذه القرارات.

***

لقد ثارت مناقشات عديدة حول المشروع الثقافي المطروح ، وبرزت قضايا على جانب كبير من الاهمية ، كانت قضية التزام الفنان وحريته هي اهمها بحكم ما يثيره شعار « الوحدة الفكرية » بين المثقفين مـن مخاوف الكبت والتحديد وسيطرة الدولة على الانتاج الفني. ومن الطبيعي ان ينقسم من يثيرون هذه المخاوف الى قسمين اولهما هم من مارسوا طويلا – وما زالوا يمارسون – نفس السيطرة والكبت ، ابطال قرارات التحريم واصحاب المناطق المحرمة على الفنان ان يناقشها او يقترب منها، السلفيون والذين اكلهم الملل ثم ودعوه ، حاملي ختم « الازمة » يضعونه امام كلمات « الضمير » او الفكر او اي شيء اخر ، يخافون الان ان تمارس ضدهم نفس السيطرة او الا يكونوا هم المسيطرين ! وهؤلاء لا خوف عليهم ، فالتاريخ ومضي الزمن و « عناصر الطبيعة » كفيلة بهم وبنوع الكلام الذي يقدمونه ، فان « الزمن والزمن يخترق اسوأ الايام » كما يقول ماكبث ! . وثاني هذين القسمين يتكون في غالبه من عناصر « ليبرالية » التفكير ان صحت هذه التسمية ، صادقين بالفعل فيما يبدونه من احساس بالخوف على حرية الفنان الفرد .

ان التكوين التاريخي لعقلية شعبنا ، العقلية التي تكونت في خضم نماذج العديد من الروافد الثقافية والحضارية ، والعقلية التـي لـم تمارس في تاريخها نوعا من الاضطهاد الفكري لتيار بعينه لمجرد اختلافه معها عندما نتبين « حقيقة » هذا الاختلاف وحقيقة ذلك التيار ، هذه العقلية هي التي تحكم موقفنا – في التاريخ وعلى الدوام – بازاء كل التيارات الفكرية ذات الطابع الانساني العام ، التيارات التي تشبهنا في تفتحها وفي قدرتها على العطاء والتلقي بقدرة متساوية . التيارات التي ترفض العنصرية والقهر ومحو انسانية الانسان . عقليتنا الحديثة نتاج تاريخي وطبيعي لتلك العقلية الحضارية الموروثة ، وهي لهـــذا السبب نفسه لم يكن لها ان تتقيد بنصوص نظرية لا بد من الرجوع اليها في كل مشكل متعلق بالانسان . عقليتنا الحديثة اكثـــر ايمانا بحيوية الواقع الانساني وقدرته على التجدد والاثمار والتجاوب . وفي نفس الوقت فلا بد لتجربتنا من الاستفادة بتجارب سبقتنا ، فلسنا في حاجة الى كميات لا نفع يرجى منها ، من الاعمال الفنية التي تتمتع بقدر لا بأس به من الضحالة والسطحية وسذاجة الاحساس ، كما اننا بغير حاجة ايضا – وبنفس الدرجة – الى شاعر عظيم كماياكوفسكي لا يجد ملجأ الا الانتحار . من هذين الجانبين ، جانب تكويننا العقلي والنفسي الذي تعود على التعايش بين كل الافكار الانسانية والتمازج بينها ، وجانب الاستفادة المؤكدة من تجارب سبقتنا يمكننا ان نطمئن اولئـك الخائفين في صدق وفي اخلاص على حريتنا جميعا ، حرية الفنان، مبدعا كان او ناقدا وحقه في التعبير . من غير الممكن في عصرنا ، وفي مجتمع يتمتع بالخصائص الذاتية لمجتمعنا وبفرص الاستفادة من تجارب تاريخية معاصرة لنا ، اقول انه من غير الممكن ان نطالب الفنان بالتقيد بالنقـاط البرنامجية لحزب سياسي بعينه ، والا كنا كمن نطلب اعمالا فنية تنتهي وظيفتها بالانتهاء من مشروع السنوات الخمس الذي صدرت مجموعة هذه الاعمال الفنية خصيصا له او بمناسبته . كما ان علينا ان نتبين الحقيقة المؤكدة القائلة بأن تقييد الحرية ، وحرية الفنان بالذات ، لم يكن ابدا الا في صالح قوى التخلف ، تلك التي لا يمكنها التنفس الا اذا كانت هي وحدها من يحتكر « الهواء » ، ولا يمكنها مواصلة الحياة اذا تركت عارية في ميدان مكشوف مع قوى التقدم الحرة هي الاخرى في التعبير عن نفسها .

ليتجمع المثقفون الثوريون اذن ، وليبذلوا كل طاقتهم حتى تكون لهم منابرهم ، وحتى تتحقق « السويس الثقافية » التي نريدها ، وحينمـا يتغير المناخ الفكري الذي يتنفسه الفنان المبدع والناقد لن نكون بحاجة الى رقابة اكثر من رقابة النقد الفني ورقابة التلقي الفني ايضا ، اذ لا بد ان نخضع الرقابة على الفن لنفس المقاييس الفنية الخاصة التي يخضع لها الابداع الفني ذاته . اننا لا نجد التزاما للفنان اروع واصدق من انسانيته ، التزامه بالانسان هو كل ما نطلبه منه . الانسان منتصرا ومهزوما ، محبا وممتلئا بالكراهية ، متسامحا او يعصف به الحقد، تعبا او مسترخيا يطلب الراحة ، لاهيا او كادحا يتصبب منه العرق، يرقص مع الفرح او يتقبضه الحزن ، يحرقه الشبق او يتخمه الارتواء !

يوسف ادريس ، الوجه ام القناع ؟!

كدت ابدأ هذا الحديث بمحاولة للتعريف بيوسف ادريس. وخطر ببالي انه لا بد وان اسجل الصورة التي ارتسمت في ذهني عنه عندما قرأته للمرة الاولى في مجموعته القصصية « البطل » وعندما رحت مع صديق لي ابحث عن كل كتاباته او نتتبع معا كل ما يكتبه . لقد اتخذ يوسف ادريس في وجداننا وضع الفنان الذي التحم كيانه كله ، وبكل ما يقدمه من انتاج فني ، بمصير الناس في بلدنا وفي العالم ، وكانت نقطة لقاء جيلنا معه هي قدرته على ان يمنحنا الثقة ، او ان يؤكد ثقتنا في الاشياء الطيبة . وعندما سمعت ان مجلة « حوار » البيروتية قد منحته جائزة ادبية تساوي الفين من الجنيهات تقريبا ، امسكت عندها انفاسي ... ما الذي سيفعله يوسف ادريس ؟ وكيف حدث هذا ؟ وثارت في القاهرة مناقشات عديدة، كان السؤالان يلحان في كل مناقشة، ماذا سيفعله يوسف ادريس ، وكيف حدث هذا ؟ مجلة « حوار » التي تمولها منظمة حرية الثقافة – او حريتهم في تسميمنا بالثقافة التي يريدونها ويريدون منا ان نفهم العالم ، ونقدسهم – من خلالها – هذه المنظمة التـي تحمل اسم الحرية لتصنيف المزيـد من الزيف والتشويه الى كل ما تحتويه كلمة الحرية من النبل ، هذه المجلة تمنح جائـزة ليوسف ادريس ؟ .

ومضى زملاء ينصحون يوسف ادريس برفض الجائزة ، ومضـى اخرون يقترحون على الدولة أن تمنح يوسف ادريس الفين من الجنيهات ليرفض الجائزة ، وكأنما كان يوسف باحثا عن الفين من الجنيهات او معروضا للبيع بهذا الثمن ! وشرع اخرون في الهجوم على يوسف ادريس والتشكيك في المسألة من بدايتها . ولم يكتب يوسف ادريس حرفا، كان في بيروت ، ومنها الى لندن ثم عاد الى القاهرة ، وفي نفس يوم عودته، وقبل ان يلتقي باحد الناصحين او المهاجمين او المقترحين ، رفـض الجائزة . في هدوء وبغير ضجيج تصرف يوسف ادريس – الطبيب وابن الفلاح المصري العريق – بنفس الطريقة التي يتصرف بها الطبيب اذا رأى ورما خبيثا ، يقطعه ، او بنفس الطريقة التي يتصرف بها الفلاح المصري ازاء كل ما يشعر انه يمس حريته او معتقداتـه او احترامه لنفسه ، انه يرفضه ، بنفس الهدوء ، ولكن بنفس الثبات والقدرة على الاستمرار وعلى المواجهة .

بهذا الموقف قدم لنا يوسف ادريس المثال العملي على الحقيقة القائلة بان حرية الفنان والتزامه وجهان لشيء واحد ، ذلك هو انسانيته. حريته في احتضان الانسان ، التزامه بالانسان ، هو ما حقق له الحرية في رفضه كل ما يقف ضد هذا الانسان . يوسف ادريس الذي كـان

واحدا من ابناء الجيل الذي حمل مسؤولية تحقيق الثورة ، هذا الفنان الذي خاض تجربة « العسكري الاسود » هذا « العسكري » ، الحواري القديم ، الذي حاول ذات مرة ان يحطم الانسان في جسد يوسف ادريس ، والذي ابدع لنا « قصة حب » وخلق لنا «جمهورية فرحات» هذا الفنان كان ، وما يزال ، يقف الى جانب الانسان فيه ، والى جانب الانسان في خارجه . كان وما يزال ، يستمد ايمانه وعقيدته وفنه من هذا النبع ، ثقته بالانسان بكل ما يحتويه من متناقضات . لذلك لم يكن يوسف ادريس بحاجة الى من ينصحه ، ولم يكن بحاجة الى من يعوضه ، ولم يكن ليخشى من يهاجمه . كل ما فعله يوسف ادريس ان نظر الى صفحة ينبوعه ، الناس ، ورفض .

كانت مجلة « حوار » بحاجة الى قناع يخفي وجهها القبيح حتى تسهل عملية خداع جمهور المثقفين العرب والقراء العرب ايضا.واعتقدت ان وجه يوسف ادريس يصلح لتأدية هذا الدور . ولكن وجه الفنان والمناضل ، وجه الانسان الحر والملتزم ، لا يصلح قناعا . انه لا يصلح الا ان يكون وجها بشريا ، ووجها لفنان ولمناضل ولانسان حر وملتزم بانسانيته جميعا ، وجها ليوسف ادريس . عفوا ، فانني لا اتحدث عن يوسف ادريس الفرد ، ولكنني اتحدث عن يوسف ادريس الموقف والقضية والمصير . فحينما تتحول العقيدة من مكتسب فكري الى سلوك تلقائي، حينما تمتزج الفكرة بالانسان ويتحقق وجودها المادي من خلال وجوده يتجدد خلق الفكرة في كل مرة يلامس فيها الانسان واقعه الخارجي . والانسان يلامس واقعه دوما ، وهكذا تتحول الفكرة الى خلق متجدد يحقق الانسان الحي . وحينما تنبع هذه الفكرة من قلب المستقبل ، وحينما يكون هذا الانسان فنانا ، نكون حينئذ في مواجهة اروع كائن يمكن ان نراه ، الانسان الذي يكون ابداعا متجددا ، موقفا وقضية ومصيرا . لسنا نراه قديسا أو معصوما ، ولكننا نراه انسانا فحسب، يبهجنا في كل مرة يقف فيها الى جانب انسانيتنا ـ رغم اننا لا نتوقع منه سوى ان يقف في هذا المكان ، انسانيتنا ، التي هي قضيتنا ومصيرنا في وقت واحد ، يشد ازرها ويحميها من اي منظمة تحمل اسم الحرية كذبا ، وتمول مجلات من نوع هذه المجلة .

انور المعداوي

المعول الثائر .. والانسان الصامد

بقلم : وجيه سمعان

***

ظل يحمل معوله الثائر هادما ومحطما كل ما يعتقد انه يخنق الحياة في الفن ويحيله الى زيف وخداع . فالهب حماسه واغنى وجدانه ودفعه الى العنف والقسوة والصراحة والشجاعة . ظل يحمل معوله يجوب افاق الفن : الشعر والقصة والرواية والمسرحية حتى افرغ كل طاقته واستنفد كل قواه . وارتد اليه المعول الذي استخدمه في «الهدم والتطهير» ليحرمه الحياة ويخمد انفاسه التي انبعثت من ضمير حي متوقد ومن قلب انسان اخلص للفن والحياة حتى كتمت الحياة خلجات نفسه واحالته الى ذكرى والى ماض . ظل هذا المعول الثائر منذ ان بدأ في اواخر العقد الرابع ، وهو شاب مثقف يانع الحماسة تلوح عليه سيماء النبوغ وترهص كتاباته بالذكاء والفطنة ، يواصل رحلة النقد ويواكب مسيرة الادب والفن بنفس التوهج والحس الانساني الرهيف، جاعلا من الاخلاص هدفا ومن النقد تخصصا ، عاملا على اضاءة المصابيح الضخمة المتوهجة التي يغمر شعاعها كل حنية وكل ركن وكل تعريجة في منحنى الطريق ، مكرسا نفسه من اجل هدم القيم البالية المتداعية لكي يقام البناء على ركام الانقاض ومن اجل اخماد الاضواء الضئيلة الهزيلة لكي يشع على اثرها كل نور وهاج . .

توهج انور المعداوي في سماء الحياة الادبية المصرية في وقت « غلب فيه على النقد الادبي طابع الغفلة والمجاملة والبلادة والانحلال بعد أن اصبح الادب ادب المحاكاة الناقلة لا ادب الاصالة الخالقة، ادب الترديد والتقليد لا ادب الابداع والتجديد » .. توهج المعداوي فوق خلفية تراث ـ لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه ضخم ـ من نظريات النقد الادبي ملأت سطح الحياة الادبية . وتمثلت تلك النظريات في الاتجاه الجمالي التأثري والاتجاه الواقعي ثم في الاتجاه الذاتي واخيرا الاتجاه الذي اعطى الدراسة النفسية الاعتبار الاول في العملية النقدية .وكان تأثر المعداوي بهذين الاتجاهين الاخيرين اوضح ما يكون وان ارتبط ذلك بثقافة عريضة وشعور بالمسئولية ووعي باهمية عمله الذي كرس له حياته فوفر له ما اسماه « بالضمير الادبي » . وبدأ حياته النقدية محددا الاطار الذي يتحرك فيه النقد الادبي مشيرا الى عوامل النقص التي حددها في اربع موليا الاهمية الكبرى « للضيمر الادبي » . «فماذا تجدي الثقافة وماذا تجدي التجربة وماذا يجدي التذوق ـ وكلها من دعائم النقد ـ اذا كان الضمير الادبي لا وجود له ـ لا شيء يجدي على الاطلاق لان الضمير يوجه الثقافة فلا تنحدر ويهدي التجربة فلا تضل ويرشد الذوق فلا ينحرف . ورحم الله استاذنا العظيم الدكتور مندور .. الذي كان يملأ اسماعنا دائما بالعبارة الشهيرة « علم بلا ضمير خراب للنفس » .

وجهد المعداوي منذ بدايته النقدية ان يحدد لنفسه وافرانه نظرته الجمالية في الفن والادب . فالفن ما هو الا صدق التعبير عن الحياة ورسالته هي التصوير الامين والعرض الصادق للواقع كما هو . والفن والواقعية مرتبطان لان الواقعية هي الدقة في تصوير انعكاس الحياة على حواس الفنان . وهي ايضا الصدق في التعبير بحيث لا يطغى الخيال على الواقع ولا يجور الفن على الطبيعة . ويجب على الفن الا يهز فينا عاطفة الاعجاب فحسب بل عليه ان يهز مكامن الشعور . فمقياس الفن هو مقدار الاثر الذي يتركه في النفس ومدى صلته بعنف الوجيب في القلب الانساني . وبمقدار القوة والضعف في دفقة الحياة وخفقة القلب يفترق العمل الفني عن مثيله في كل فن من الفنون .

وبعد هذا التحديد سلك الناقد طريقه الى تقويم الاعمال الفنية والادبية ، بل تعدى هذا الى تقديم دراسات عن الادباء والفنانين ذاتهم. وتمكن بحسه النقدي المرهف ان ينفذ الى اعماق الاعمال الفنية وان يدرك لمحاتها الشاردة وينظمها في عقد فريد ، فحسه النقدي ، وخاصة في المجال الشعري ـ كان بالغ القوة مما هيأ له المقدرة على استكناه مفهوماتها وبلورة اغراضها في وضوح بالغ . وان سبقه الحماس في بعض الاحيان فاستعجل اصدار الاحكام واندفع وراء غايات ابعدته عن المجال الفني في نقده وان حكمه في ذلك الاخلاص والصدق . وفي كتابه « نماذج فنية من الادب والنقد » تتنوع الدراسات التي يقدمها وتتعدد الاعمال الفنية التي ينقدها . ونظرة واحدة الى بعض موضوعاته توضح طموحه في معالجة ادق المشاكل النقدية واعوصها ، كما تبين مقدرته على التحليل والتدقيق في فهم النص الادبي .

وبرز تأثره بالاتجاه النفسي في دراساته الشعرية . وحاول ان يضع مقياسا عاما يحكم به على الشعر وسماه « الاداء النفسي » الذي يعتمد على « الصدق الشعوري » وهو ذلك التجاوب بين الوجود الخارجي المثير للانفعال وبين الوجود الداخلي الذي ينصهر فيه هذا الانفعال او هو ذلك التوافق بين التجربة الشعورية وبين مصدر الاثارة العلقية في مجال الرصد الامين للحركة الجائشة في ثنايا الفكر والوجدان كما يعتمد الاداء النفسي ايضا على الصدق الفني الذي هو التعبير عن واقع الاحساس تعبيرا خاصا يبرزه في صورته التي تهز منافذ النفس قبل ان تهز منافذ السمع . فالصدق الشعوري ميدانه الاحساس والصدق الفني ميدانه التعبير . ويرتكز هذا الاداء النفسي على اللفظ ذي الدلالة النفسية لا المادية،اللفظ ذي الظلال الموحية لا الظلال الجامدة ويستند الى الجو وهو ذلك الافق الشعري الذي ينقلك الى مكان الفن وزمانه . ويبقى بعد ذلك عنصر التنغيم في مشكلة الاداء وهو عنصر له خطره البعيد في تكوين الانفعالات الذاتية في التعبير . وطبقا لهذه النظرة اصبح الشعر العربي القديم يعيش خارج « الحدود النفسية » ويشعرك بفراغ « الوجود الداخلي » فهو شعر « السطوح الخارجية »

في اغلب الاحيان . ولم يتجدد الشعر العربي الا على يد شوقي وحافظ ثم خطا مرحلة اخرى على يد من جاء بعدهما من الشعراء مثل علي محمود طه وايليا ابو ماضي ومحمود حسن اسماعيل . وعلى الرغم من تلك النظرة فان نقده لديوان « اين المفر » لمحمود حسن اسماعيل يمتاز بالدقة المستقصية والبراعة في الفهم ويحلل الرمز عنده قائلا «وديوانه يحفل بالصور الرمزية التي تنبع من التأمل العميق المنعكس من الحياة على النفس وهو ما يعبر عنه بالاستبطان النفسي والمنبع الثاني لرمزيته هو الفيض الشعوري المنبعث من قوة الشخصية الشعرية او رحابة الحقل الشعري ومن هنا تطغى التهويمات الروحية التي تصبغ الشعر بصبغة الرمزية الاصيلة لا الرمزية المتكلفة » .

ويتابع المعداوي دراساته النقدية التي يغلب عليها الاتجاه النفسي فيتعرض لمشكلة طال حولها الجدل واختلف من حولها النقاد . فيرى ان مفتاح شخصية ابي العلاء هو القلق الذي يرجع الى فراغ الحياة : فراغ النفس والقلب والجسد ويمكن ردها جميعا الى الحرمان من العطف والعاطفة والمراة . فهذا الجدب العاطفي في القلب الانساني وهذا الكبت الطويل العنيف للغريزة الجنسية هما مركبا النقص الخطيران في شخصية المعري ، كما يرى المعداوي .

ومهما يكن من شيء فالخصيصة التي امتاز بها المعداوي ـ وصانها طوال حياته القصيرة ـ هي اتخاذه من النقد مهنة يحترمها الاحترام كله ويجلها الاجلال كله ، فيخلص لها ما وسعته الحيلة ويدافع عنها بكل ما امتلك من مقدرة ليطرد الصيارفة والمزيفين والادعياء من هياكل النقد. وتسلح في ذلك بثقافة واسعة وذوق مرهف بالاضافة الى انسانية عميقة نبعت من احساسه بالواقع ومقتضياته فتوفر له « الضمير الادبي » الذي قوم طريقه ودفعه الى رفع معوله الثائر لاخماد الاضواء الضئيلة الهزيلة ، وجعله يعلن احتجاجه دائما بصوت مرتفع يبعد عن الادب والنقد عداوى الزمن والتزييف والخداع .

هذا هو المعداوي في رحلته القصيرة ، رحل عنا ـ بعد ان ترك الحقل النقدي وما زالت تنبت به الاعشاب السامة رغم نموه وازدهاره ـ ذلك النمو والازدهار الذي ساهم فيه مساهمة مخلصة شريفة كلفته الكثير من حياته ـ ولكنه صمد ... وصمد حتى النهاية . فما اروع ذلك المعول الثائر وذلك الانسان الصامد وذلك الناقد المخلص .تحية له في مرقده الاخير ، وسلاما ، وعهدا بان شعلته التي اوقدها في بداية حياته سيزداد لهيبها وتعلو نيرانها ولن يخبو اوارها . لان في مصر وفي العالم العربي نقادا كلفوا انفسهم وكرسوها من اجل قضية الادب والفن ومن اجل قضية النقد الجاد المخلص الذي يعمل على بناء حياة افضل واجمل واعظم من اجل امتنا العربية .

القاهرة — **وجيه سمعان**



ملامح الفكر الراهن في العراق

***

في العراق اليوم قابليات ادبية فذة لا جدال فيها ويكفي كبرهان قائم على قوة هذه الحركة وتصاعدها مطالعة هذه المجلة التي بين يدي القارىء الكريم ، فقد زاملت الاقلام العراقية مجلة (الاداب) منذ صدورها حتى الان ورفدتها بالشعر الحي والبحث الخصب والرأي الجريء ، ومع الاداب نذكر الاديب المحترمة والرسالة والاجيال والمجلة والمعارف والحكمة وغيرها من المجلات الادبية الراقية التي صدرت في بيروت في الاعوام الاخيرة . وهذه القابليات والقدرات لم تستثمر على الوجه الصحيح ولم تفجر تفجيرا طبيعيا لتاتي بثمارها الناضجة على صفحات الكتب وانهر الصحف ومتن الاثير ووجه التلفزيون، وتتفاعل مع المستقبلين من النقاد والقراء وتكون رايا عاما للادب والفكر كما هو الحال في بلاد الناس من هذه المسكونة . بل ان النتيجة كانت معكوسة او شبه معكوسة فجمدت الحركة الفكرية والادبية في العراق ولم تتحرك في الجو الا اشباح هزيلة تتشدق باسم الادب والفكر والفن ، ومن اولى هذه الملامح عدم وجود (مجلة) ادبية اهلية في طول العراق وعرضه وعدم وجود جمعية ادبية غير حكومية ، وجمعية الكتاب والمؤلفين قد اغلقت ابوابها لان حارسها لم يقبض راتبه منذ اشهر ولدى مراجعته المحاسب قال له : لا وجود للاعضاء ، والى متى وانا ادفع راتبك من جيبي ؟ فذهب الرجل وترك لافتة الجمعية مرفوعة على بيت صغير في شارع عمر بن عبد العزيز في الصليخ (الاعظمية) ! فلا وجود معنوي لهذه الجمعية ولا وجود مادي لها بعد ذكر هذه الواقعة !! والصحف العراقية تحتفي بالادب العراقي وتعد له صفحات خاصة في كل اسبوع تقريبا ، واهمها جريدة البلد ، وجريدة المنار وجريدة الفجر الجديد . وصفحات هذه الجرائد لا تساوي صفحة او صفحتين من هذه المجلة المحترمة . حيث تطغى الاعلانات الرسمية والتجارية على هذه (الصفحة) من الجريدة اليومية السياسية ، كما ولا يوجد ناشر عراقي واحد يستعد لطبع ونشر النتاج العراقي ، هذا بالاضافة الى ذلك فالكتاب العراقي لم يطرق بعد السوق العربية بل بقي مطروحا في اسواق بغداد ينتظر القارىء البسيط الذي يبحث عن كتاب يبدد سأمه وضجره ! وفي تلفزيون بغداد نصف ساعة من الوقت اعدت لما يسمى (الندوة الثقافية) وفيها يحضر اساتذة ودكاترة يتكلمون عن حوادث في التاريخ العربي الاسلامي او اصل كلمة عامية او عربية ولم يستفد منه المشاهد الا في القليل النادر كما هو الحال في الندوة الخاصة بذكرى الكاتب العراقي فهمي المدرس او النقاش بين انصار الشعر الحر والشعر العمودي وقليل غيرها . وقد اخذت وزارة الثقافة والارشاد في تشجيع الفكر العراقي عن طريق مجلتها (الاقلام) التي انهت سنتها الاولى قبل ايام، وهي مجلة اكاديمية لا تتفق وطبيعة الفكر المتحرك في العراق، كما اصدرت عددا من المطبوعات منها الجيد ومنها الرديء، وجيدها لا يعكس صورة صحيحة للفكر الجديد في العراق الجديد . وهنا ظاهرة جديدة هي اصدار اوامر في منع كتب كثيرة منها في اللغة العربية او في اللغات الاجنبية تصدرها وزارة الارشاد بدون ان تذكر سببا للمنع او الاحتجاز والتجميد ، وفي الوقت الذي تصدر فيه في بغداد مجلة لشؤون الاقتصاد والزراعة والاسواق التجارية والعمل والعمال والسياحة والالعاب الرياضية ، في هذا الوقت لا توجد في العراق مجلة خاصة للادب والفكر والفن !

انها ملامح ظاهرة ، قائمة نذكرها كواقع مشاهد يطلب الحل السريع والعلاج الناجح والتسديد في الحركة .

بغداد ـ كرخ — المحامي **محمود العبطة**



قرأت العدد الماضي من الآداب

الأبحاث

بقلم : صبري حافظ

***

لا ينتظم ابحاث هذا العدد خط اتجاهي واحد .. اللهم سوى اشتراكها جميعا بدرجات متفاوتة في اثارة العديد من القضايا الفكرية والسياسية والجمالية .. كما اننا نتلمس في اهتمام عدد كبير من دراسات هذا العدد بالشعر اصداء لعدد الشعر المرتقب .. فقد استأثر الشعر وحده بستة من ابحاث هذا العدد ودراساته بينما لم تظفر القصة باكثر من دراستين وكذلك النقد ، اما المسرح فلم يظفر بغير واحدة .. وقبل ان نتقصى ملامح ذلك الاهتمام المتزايد بالشعر، علينا ان نبدأ – كالعادة – بالدراسات السياسية .

ودراسة العدد السياسية (الثورة والانموذج الجديد) للاستاذ غالب هلسا جزء من دراسة جادة طويلة قرأنا في العدد الثامن بدايتها وننتظر في العدد القادم تكملتها .. وغالب هلسا من اكثر الكتاب اهتماما بهذا النوع من الدراسات الفكرية السياسية ومن اكثرهم ذكاء في تناول هذه الموضوعات .. ذلك لانه لا يكتفي بالاستقصاءات النظرية ولكنه يستخلص فكرته من خلال معايشته للجزئيات الواقعية ورصده للظواهر المؤيدة لهذه الفكرة .. وليس ثمة شك في ان الطريق الحقيقي للاستفادة من خبرات الثورة المصرية ولتجنب عثراتها على الصعيدين العربي والعالمي لن يكون بغير الدراسة الموضوعية الواعية لخطوات هذه الثورة ولابعادها .. وغالب هلسا يحاول في هذه الدراسة ان يتعمق بعض ملامح هذه الثورة .. والحقيقة انه كان شديد التوفيق في مقاله الاول (الثورة والانموذج) فقد استطاع ان يستخلص بحق الابعاد الحقيقية للنموذج الانتهازي الذي تربى في احضان هذه الثورة وترعرع في فيئها ، تروده في كافة خطاه مصالحه الخاصة وذاتيته الفردية المتضخمة .. الا ان محاولته لتلمس ملامح الانموذج الجديد في هذا المقال قد تخلى التوفيق عن بعض خطواتها .. فبعد ان حدد بوضوح الظواهر الخطيرة الثلاث التي تولدت عن غياب التنظيم السياسي .. وعالج بنجاح اول هذه الظواهر المتبلورة في امتصاص الطاقات الجماهيرية خلال العديد من المسارب الضارة ككرة القدم وام كلثوم .. اخفق في معالجة الظاهرة الثانية او غابت عنه بعض ملامحها ، اقصد ظاهرة تفشي الفكر اليميني والرجعي، وتمكن سدنته من الاستيلاء على اغلب الاجهزة الثقافية والاعلامية ومن تفسير نصوص الميثاق بالطريقة التي تتفق مع مصالحهم . ولم ينطلق من البداية الضرورية لهذه الظاهرة فيحدد لنا مواقع هذا الفكر ويلمس ملامحه في كل موقع على حدة ويتعرف على اخطاره .. خاصة وان الفكر اليميني متمركز في اجهزة الدولة الرسمية ومتحصن في قلاعها يمارس من خلالها سلطاته وينفث عبر منابرها سمومه ، متعارضا بذلك مع خطوات الثورة على الصعيد الاقتصادي ومعوقا لها .

ووعي الكاتب بواقع الفكر اليميني في مصر وبمواقعه في حاجة الى كثير من التوضيح . فهو يخلط بين اتجاهات الفكر اليميني باعتباره احد الابنية الفوقية للطبقات الرجعية – البرجوازية وبقايا الاقطاع – وبين انفصال الرأي عن الاتجاه السلوكي لدى سواد الشعب من محدودي الثقافة .. وانطلاقا من هذا الخلط يطالب مرة باستعمال العنف ضد هذا الفكر اليميني ، ثم يعود فيرى ان نتلمس العذر مع آثار هذا الفكر في ابناء شعبنا .. ومن هنا اقول باستحالة الفصل بين مواقع الفكر اليميني ، وبين اثاره الضارة في جماهير الشعب ، واستناده على بصمات عهود القهر والاستغلال والوحشية في عقول الجماهير ... فمعالجة الجانب التطبيقي والارهابي من الفكر اليميني بالعنف ، لن تبلغ غايتها الا اذا ما عالجنا كافة اثار هذا الفكر الضارة .. ولن يتم هذا الا بميلاد تيار فكري ثوري قوي ، يتدعم بشتى الامكانيات ليتمكن – مع توفير الحرية والجو الصحي لممارسة الصراع الفكري – من طرد فلول هذا الفكر المتخلف . فمن المستحيل ان تعيش الجماهير في فراغ ايديولوجي .. فاذا لم تسد الايديولوجية المتقدمة فلا مناص من سيادة الايديولوجيات المتخلفة .

واذا استثنينا هذه الجزئية فانه يبدو من خلال الدراسة ان العلاقة بين الجماهير والسلطة السياسية علاقة ودية خاضعة للشد والجذب .. وليست علاقة علمية تحددها في النهاية طبيعة واتجاه الاجراءات التي تتخذها السلطة وكذلك محتوى هذه الاجراءات الطبقي . صحيح ان العلاقة بين الشعب والسلطة علاقة جدلية في نهاية الامر ، تنهل من عدد كبير من الروافد ، الا انها تخضع في النهاية للقياس العلمي وليس لذلك الحدس الودي او العاطفي .. وبعد ان لمس الكاتب اهم جوانب الظاهرة الثالثة وهي نشوء فوضى فكرية تضيع في وسطها معالم النظرية الثورية ويتميع تفسير نصوصها ، تسرب جزء كبير من جهوده في التدليل على صحة عمومية يدعي استخلاصها من العديد من التجارب العالمية تقول ((انه عندما يتحول الحزب الثوري الى حكومة ثورية فان الاثنين يسيران في اتجاه فقدان ثوريتهما)) .. وهي ليست عمومية غريبة فحسب ولكنها بعيدة عن واقع الثورة المصرية التي لم تنطلق من حزب ثوري ولكنها تشكو بالدرجة الاولى من غياب هذا الحزب ، بل لقد ارتوت اغلب مشاكلها من افتقاده . هذا بالاضافة الى ان هذه العمومية ذاتها تحتاج الى الكثير من المراجعة والتمحيص . ووضع ضرورة وجوده علاقة عضوية وجدلية بين التنظيم السياسي والاجهزة التنفيذية في الاعتبار ، علاقة تسمح بان يستفيد كل منهما من الاخر وان يؤثر فيه .. ثم وصل غالب بعد ذلك الى نقطة هامة وهي الصعوبات الناجمة عن محاولة دولة في السلطة تكوين تنظيمها السياسي وعن غول الانتهازية والمباحثية الذي يهدد بالتهام هذا التنظيم والاستيلاء عليه .. ولكنه يؤجل الحديث عن هذا الموضوع الهام الى عدد قادم فلنؤجل نحن ايضا استطرادنا مع هذه الدراسة العميقة الرائعة التي تناولت بحب واخلاص عددا كبيرا من اهم قضايا الثورة المصرية وهمومها .

بعد هذه الدراسة السياسية الممتعة ، علينا ان نتناول هذا العدد الكبير من ابحاث الشعر وان نقدم الجانب التراثي على غيره من الجوانب الاخرى . وبرغم انني لا احب البدايات التي تتغنى بعجائب الصدف وبتوافق الخواطر ، لانني ارى ان للبحث الادبي بناء تكنيكيا كأي جنس فني اخر يضره اي تزيد او استطراف .. فانني سابدأ بهذا المقال ربما لان التحرير قد اعطاه اهمية اكثر من اللازم فوضعه في صدر العدد ، وربما لانني سبق ان قرأت عددا من ابحاث الدكتور النويهي في شرح كنوز تراثنا الشعري واعجبني بعضها ، وربما لانه استدعى في خاطري واحدة من اهم قضايا الدراسات الادبية .. اعني بها قضية التوازي والتداخل في العملية النقدية .. ومن البداية اقول انني اعتبر مقال الدكتور النويهي المعنون (المنهج التاريخي الاجتماعي في دراسة الادب) عملا نقديا وليس دراسة ادبية وفرق كبير بين الاثنين .. ولا بد لاي عمل نقدي جدير بهذا الاسم ، من ان يتبنى احد المفهومين في تناوله

النقدي للعمل الفني .. التوازي او التداخل .. والواقع ان اسلوب التوازي في التناول النقدي هو الاسلوب المنهجي الخاطىء بالرغم من شيوعه وتناميه . ذلك لانه يعتمد على تناول جزئيات العمل الفني في خطوط متوازية دون النظر اليها باعتبارها وحـدة عضوية متماسكة ومتفاعلة الجزئيات ولا يمكن الفصل بين جزئياتها وعزل احدها عن الاخرى دون ان يصيبها التشوه .. فيتناول مثلا الجانب الاجتماعي او الجمالي او الفني او الفلسفي من العمل الفني على حدة ، وكأن النقد نوع من الدراسات المدرسية الشارحة للنصوص الصعبة وليس رؤية فنية متكاملة تعيد خلق العمل الفني من جديد كما يقول كروتشه .. خاصة وان المضمون الاجتماعي او الفلسفي يلوح خلال جزئيات العملية الابداعية او التذوقية مصبوبا في الشكل الفني ومتشحا بالرداء الجمالي في آن ومقدما عبرهما .. اما التداخل كاسلوب للتناول النقدي فانه يتناول كافة جزئيات العمل الفني وروافده في تداخلها الحيوي المتفاعل الذي يرتفع بالنقد الى مستوى الابداع الفني .

وتثير هذه الدراسة في مقدمتها النظرية قضية خطيرة اخرى باقامتها جـدارا جامدا بين الذاتية الفـردية والوجدان الاجتماعي . وبافتعالها لتعارض لا وجود له بين ذات الفنان ومتطلبات الواقع الذي يعيش فيه والذي لا بد وقد ساهم بشكل او باخر في صوغ هذه الذات وبلورة ملامحها .. وذلك لانها تنطلق اساسا من الفرضية القائلة بتسامي الذات المبدعة عن مواضعات الواقع الذي تعيش فيه . فهي « تنتج في المحل الاول لتنفس عن حاجاتها العاطفية والجمالية » كما يقول الدكتور .. بـل انه يذهب الى ابعد مـن هذا فيفصل من الناحية التذوقية الخالصة « التعبير الشخصي عن عواطف الشخص الذاتية عن التعبير الجماعي عن قضايا الجماعة ومثلها » .. يفصل هذا بعدما اقام الجدار الجامد الذي اشرنا اليه .

والغريب ان الدكتور النويهي بعدما يتجاوز هذه المقدمات النظرية المغلوطة الى التناول النقدي لابيات الحادرة السبعة في الفخر بقبيلته .. يتخطى بعض هذه المقولات ويضطر الى تقصي الروافد الجماعية في اعماق الفنان وعمله ، ومدى اندماج القبيلة فـي اعماقه وتوحدهـا بوجدانه . عبر دراسته النقدية الحساسة لهذه الابيات ـ ربمـا لان حسه النقدي تغلب على معتنقاته النظرية ـ بكل ما تسفر عنه هـذه الدراسة من اتصال عميق بالتراث الشعري العربي ومن تذوق مرهف له ، كنا نتمنى لو انه التقى بهذه الدراسة التطبيقية الجيدة دون التعثر في سراديب هذه المقدمات النظرية المغلوطة .

اما الدراسة الثانية عن تراثنا الشعري فقد كتبها من الرياض الدكتور علي جواد الطاهر عن (الشعر المفتعل الموضوع عند ابن سلام) .. ومن الوهلة الاولى نلمس تشتتا في الدراسة كبيرا ، فلا نعرف ان كان هدفه الاول دراسة الشعر المفتعل الموضوع عند ابن سلام كما يـؤكد العنوان ؟ والبحث ـ بالمقاييس والانجازات العلمية المعاصرة ، والا فما لزوم اعادة بحث مثل هذا الموضوع القديم ـ عن الاسس التي بنى عليها ابن سلام الجمحي نظريته في الانتحال الشعري ، والمنهج الذي اتبعه في التفريق بين الاصيل والمدسوس من الشعر ، ومدى سلامة هذا المنهج وصحته .. ام ان هدف دراسته هو تصيد (افتراءات) طه حسين في كتابه الشهير عن الشعر الجاهلي على ابن سلام .. ليست (افتراءات) جديدة ولكنها مجرد ترديد مكرور لتلك المآخذ السابقة التي اشار اليها الرافعي والغمراوي ووجدي وغيرهم ... والحقيقة ان هذه الدراسة برغم توفر الكثير من مصادرها ومعلوماتها للباحث تثير قضية هامـة لمست دراسة الدكتور النويهي جانبها الايجابي في التطبيق .. هـذه القضية هي طبيعة النظرة التي ينطلق عبرها تناولنا للاعمال التراثية سواء اكانت هذه الاعمال فنية ام نقدية . والتي يجب ان يرودها البحث المستفيد من كافة انجازات العلوم الانسانية عن الجوانب المعاصرة في هذا التراث وعن القيم الحية والايجابية فيه واستخلاصها من وسط ركام الجزئيات الفثة ومن تحت رغام النسيان والاهمال والركود .. واخيرا فاننا لا نملك في النهاية غير الاشادة بمجهود الدكتور في تجميع شتى جزئيات دراسته ، وفي تقصي روافد موضوعه .. ولو رافق هذا المجهود بناء فني محكم للدراسة ورؤية معاصرة وراءها ، لاستمتعنـا ببحث شيق في واحدة من قضايا تراثنا الشعري الهامة .

بعد هذه الدراسات التراثية علينا ان ننتقل الى الدراسات المعاصرة في الشعر .. وهي اربع دراسات تتناول اولها لهنري فريد صعب عالم الشاعر الارجنتيني العجوز خورخي لويس بورخس « كبيـر ادباء الارجنتين كما يقول عنوانها .. واذا استثنينا مقدمة هذه الدراسة او جزأها الاول حيث تدور الكلمات على محاورها كهياكل عظمية جوفاء بلا طائل .. تلك الكلمات الراغبة في الاتشاح باطياف الشعر ولكن دون ان يتوفر لها ذلك التوازن الذي يطلبه كامو في هذه الحالة بين الوضوح والغنائية ، فيكون الغثاء والغموض ـ اذا استثنينا هـذه المقدمة التهويمية المكتظة بالاشارات المبتسرة للمصطلحات الوجودية ولجزة ياسون الذهبية والمقتطفات من كافكا .. وغيرها ، سنجد ان الدراسة بعد ذلك صرخة تمجيد زاعق للعزلة والفردية واللاانتماء دون البحث عن اي مبررات حضارية لهذه العزلة او تلك الفردية ، ومحاولة لاعلاء شأن الجانب السلبي وحده من قصائد بورخس دون اعطاء جـانبها الايجابي حقه ، ولاسقاط فهم الكاتب الخاص على اعمـال الشاعر وقسرها على الافضاء به ، وتركيز على الموت وعلى الوجه الراعب للحياة دون اعارة النظر لاي من جوانب هذه الحياة الحية او المشرقة . ولو استطاع كاتبنا ان يكبح جماح استرسالاته اللفظية وقفزاته اللغوية التي كانت تندس بين السطور كقطع لحم نيئة فجة ، وان يعكف بتـواضع واخلاص على اعمال بورخس وحياته لقدم لنا بدلا من هذه القفزات دراسة تفيد القارىء العربي في التعرف الجاد على واحد مـن الكتاب الذين لم يسمع عنهم من قبل .

ثم تطل علينا بعد هذه الدراسة مقالة خليل احمد خليل عـن (اربعة شعراء وتجديد) فتطرح العديد مـن قضايا الشعر العربي الحديث ، دون ان تتمكن من استنفاد اي من هـذه القضايا التي طرحتها .. الا ان اهم هذه القضايا تنطلق من المنهج النقدي الذي يعتنقه الكاتب ويصر عبره على تناول كل ديوان شعري من داخله وبمعزل عن كافة العوامل الاخرى التي لو ادخلها في اعتباره لامكنه ان يضيف الكثير الى فهمه لهذه الدواوين الشعرية .. فبالاضافة الى ان تناول اربـع دواوين في خمس صفحات من (الاداب) دون ان يكون الهدف من ذلك دراسة مقارنة لجزئية او قضية مشتركة تتناولها هذه الدواوين الاربعة ، والبحث عن وجوه الاختلاف او التشابه في تناول الشعراء لها ، فيه كثير من الظلم لهذه الدواوين وقليل من الاحترام لها .. فان تناول الكاتب لها لم يسفر عن منهج نقدي متبلور يطل واضحا من خلال هذا التناول التطبيقي . فجاءت المقالة مجموعة من الملاحظات التي رافـق التوفيق بعض خطواتها وتعلق الاخفاق بالبعض الاخر . ومجموعة مـن الاحكام العمومية المتسرعة التي لم يتمكن الكاتب من تقصي روافدها . فنجد انه جنح في تناوله لديوان البياتي الى تلك العموميات الشهية التي التصقت غالبا بالحديث عن اشعار البياتـي دون ان يحاول

استخلاص ملامح هذه المرحلة الجديدة والتي تبدأ من ديوانه السابق (النار والكلمات) ثم تسفر عن وجهها بوضوح في هذا الديوان الاخير (سفر الفقر والثورة).. كما دفعه القفز وراء العموميات والتسليم بالاراء الشائعة الى تجاهل اهم قصيدتين في هذا الديوان (محنة ابي العلاء) و (عذاب الحلاج) .. صحيح انه لمس بفلافية سريعة بعض جزئيات الثانية ، الا انه تجاهل الاولى تماما . ولم يستطع حتى الغوص الى اغوار عذاب الحلاج او التعرف على الوجه المعاصر لالام هذا التصوف الكبير .. كما نجد انه وبرغم وجوده في باريس لم يتمكن من تقصي الجذور الفرنسية لقصيدة النثر او يحاول التعرف على المناهل التي يرتوي منها انسي الحاج مثل هنري ميشو او غيره من شعراء النثر الفرنسيين . ولم يعقد اي مقارنة بين ما يفعله انسي وما قدمه التراث العالمي لهذا الجنس الفني والظروف الحضارية التي ولد فيها. ولا حاول ان يبحث عن الاضافات التجديدية التي قدمها انسي في هذا الميدان .. ان كانت ثمة اضافات اصلا !! .. بالرغم من ان التجديد هو عنوان دراسته . اما تناوله لديوان معين بسيسو (فلسطين في القلب) فقد اخفق في التعرف على ابعاد رؤيته للماساة الفلسطينية او فهمه المبتسر لجزئياتها ، او تلمس اصابع الاخرين في شعره ، ولا تمكن حتى من النفاذ الى ابعاد عالمه على الصعيدين الشعري والاجتماعي .. ولم يحالفه التوفيق الا في تلمسه لبعض استقصاءات فؤاد رفقه وبعض ملامح عالمه الحضاري لا الشعري ... لان قصائد فؤاد رفقه تثير الكثير من القضايا الشعرية بدءاً من اسلوب الوزن والموسيقى العروضية عنده حتى اختياره للالفاظ واستكشافه لمعانيها. واخيرا قدم تعريفا مدرسيا للتجديد جاء شاهدا واضحا على تفكك الدراسة وعلى افتقادها الخيط الواحد ، فليس التجديد تعريفا مدرسيا ولكنه تناول فني ونقدي في آن.

تبقى بعد هذا دراسة عبد الجبار عباس عن ديوان محمد علي الخفاجي (شباب وسراب) وهي دراسة تضاف الى رصيد الدراسات الجادة التي قراتها لعبد الجبار وتعد معها باستعداده لان يكون ناقد شعر طيبا لو واصل استكمال عدته في هذا المضمار وتركز جهوده على بناء نفسه نقديا وتذوقيا لهذا الميدان . ثم عرض سريع لكتاب (شعراء نجد المعاصرون) لانور الجندي لم تتحاوز باي حال حدود العرض الصحفي السريع الذى نفشل في العثور فيه على جهد الكاتب او اضافاته كمعظم كتابات هذا الكاتب وتعليقاته .

وبعد هذه الرحلة الطويلة مع الشعر علينا ان ننتقل الى البحثين النقديين .. اولهما عن (النقد والواقعية عند مندور) لشوقي خميس.. وبرغم ان هذا البحث هو اول دراسة اقراها لهذا الكاتب، فقد ادهشني تواضعها وجديتها واستنفادها لاغلب القضايا التي تثيرها المرحلة الاولى من اعمال الدكتور مندور النقدية – موضوع الدراسة .. فقد تسربت نظرته لاعمال الدكتور مندور النقدية الاولى – وهي اعظم اعماله في اعتقادي واهم اضافاته للنقد العربي – عبر حدقتين تفيضان بالحب لهذا الرائد الكبير وبالاخلاص لاعماله والرغبة الصادقة في تفهمها والغوص الى اغوارها .. الا انه لا يستخلص رؤية مندور النقدية من تقصيه لمعالم منهجه النقدي ولكن من رصده لموقفه من النماذج البشرية التي درسها .. من مساندته لالسست موليير وعطفه على كيشوت سرفانتس واعجابه بسخرية فيجارو بومارشيه وموافقته لسوريل ستندال في تحديه للمجتمع الذي هضم حقه .. صحيح ان استخلاص رؤية الناقد من موقفه من النماذج البشرية التي يتناولها ، منهج سليم ، الا ان الاستفادة من كافة الروافد الاخرى يمكنها ان تلقي دفقات اكبر من الضوء على الابعاد الاتجاهية لرؤية مندور النقدية .. وعموما فهذه بداية الدراسات الجادة لتراث مندور النقدي بعد ان تكاثر ذرف العبرات وخلق الزمن مسافة كافية لا يصلح معها الاكتفاء بالتوهج العاطفي في الحديث عن هذا الناقد العظيم .

اما الدراسة النقدية الثانية في هذا العدد فهي عن كتاب واحد من رواد الواقعية الاشتراكية في النقد العربي الحديث، هو الناقد اللبناني الاستاذ حسين مروة . وبرغم أن كتابه المنقود (دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي) لم يصل القاهرة ولم تتح لي قراءته بعد برغم تشوقي لرؤيته ، فان هذه الدراسة الاحتفائية التي قدمها رضوان الشهال تشي باهميته المتزايدة في هذه المرحلة من الاجداب الفكري والركود النقدي . وحتى تتاح لنا قراءة هذا الكتاب الهام علينا ان نكتفي بهذه السطور القليلة برغم اهمية القضايا التي يثيرها المقال والكتاب معا .. حتى نسارع بالانتقال الى البحثين القصصيين في هذا العدد .

اولهما عن رواية الكاتب اليوناني الكبير نيكوس كازنتزاكيس (زوربا) تحت عنوان (زوربا .. صراع الحسي والتجريدي) لفاضل تامر ، لن استطيع الحديث عنها لانى لم اكمل قراءة الرواية بعد برغم فراغي اخيرا من قراءة مسرحيته الرائعة (عطيل يعود) وروايته التالية لزوربا (الاخوة الاعداء) .. اما (زوربا) فلم اجهز على صفحاتها الطويلة بعد ، ونقد الابحاث لا يستطيع الانتظار .. لذلك سأؤجل حديثي عن زوربا وعن كازانتزاكيس الى مجال اخر ، لانتقل الى دراسة احمد محمد عطية عن (نجيب محفوظ بين الواقع الاجتماعى والحرب الاستعمارية) .. وهى دراسة تثير العديد من القضايا باطلاقها الكثير من الاحكام المبتسرة وتسرعها بالقفز فوق الاحداث للوصول الى النتائج التى اعدتها سلفا ، وتحويلها الشخصيات الانسانية الى معادلات تجريدية برغم ارتوائها من النظرة المحترمة للعمل الفني والمتعاطفة معه .. فنجد ان الكاتب بضم الثلاثية الى روايات نجيب محفوظ التاريخية الاولى، متصورا أنه يحكم على هذا العمل الكبير العظيم بالاعدام فى سطر واحد. كما لا يوافق نجيب محفوظ على تغيير عنوان (القاهرة الجديدة) الى (فضيحة في القاهرة) برغم انه من المعروف أن نجيبا لم يفعل هذا ولكنه يوسف السباعي، عند اعادة طبع هذه الرواية فى سلسلة (الكتاب الذهبي) وقد طبعت (القاهرة الجديدة) قبل طبعة (الكتاب الذهبى) وبعدها اكثر من مرة باسمها الاصلي .. ويحكم بتعال كبير على اقاصيص همس الجنون بالاصلاحية واللا اشتراكية دون أن يضع وجهة النظر التي تعتنقها هذه المجموعة داخل الاطار الحضارى الذى صدرت عنه ثم يقيمها بعد ذلك .. فليست المطالب الاصلاحية شيئا متخلفا باستمرار ولكنها تكون في بعض الظروف الحلول الثورية الممكنة.. اقول هذا برغم ادانتي، الحل الذى انهيت به ماساة العامل في قصة (الجوع).. ثم يجرد لنا الكاتب ماساة محجوب عبدالدائم في (القاهرة الجديدة) ويرجعها الى لاصالاته الفكرية بينما ترتوي هذه الماساة في الواقع من ظروف مصر الحضارية وقتها ومن تكوينه الطبقي كواحد من ابناء تلك الشريحة الدامية من البرجوازية ، اقصد البرجوازية الصغيرة – ومن العثرات والمهاوي الاقتصادية التي اعترضت طريقه .. كما ان هناك الى

جانب هذه الجزئيات الصغيرة مأخذا اساسيا على بناء هذه الدراسة.. فارتواؤها من الموقف التعريفي بجزئيات الشريحة التي يتناولها من عالم نجيب محفوظ ، هذا الموقف الذي لم يعد يتناسب مع تنامي الدراسات عن عالم هذا الفنان وعن اعماله بشكل واسع .. ارتواء الدراسة من هذا الموقف اوقعها في ذلك البناء التلخيصي الذي نفر الكاتب منه في بدايتها .. فالدراسة الجادة لاي جزيئة من عالم نجيب محفوظ لا يمكن أن تتحقق عبر العرض التلخيصي لهذه الجزيئة من اعماله ، ولكن من خلال الدراسة الموضوعية المتأنية والباحثة عن شتى روافد هذه الجزيئة في عالمه وعن كافة مساربها فيه . خاصة وان الكاتب لم يتناول جزيئة صغيرة من عالم نجيب محفوظ المترامي الاطراف كقضية المرأة او الجنس او التسلط الابوي او عياب الطفولة او غيرها من الجزيئات البسيطة، ولكنه تناول قماش هذه اللوحة الفنية الكبيرة التي خلقها نجيب محفوظ .. الواقع الاجتماعي والحرب الاستعمارية .. ولكننا لا نستطيع اخيرا ان نغمطه جديته ، ولا يفوتنا ان نتمنى له مزيدا من العمق والتواضع والتوفيق في دراساته القادمة .. وقد يلوح للنظرة المتسرعة انني قسوت على الكاتب كثيرا ، الا أن ما دفعني لهذا هو انني لاحظت تكرار هذا الاتجاه عنده في دراساته التي سبق أن قرأتها له على صفحات (الاداب) .

واخيرا تلك الدراسة عن (أبعاد مسرح اللامعقول) لقاسم حول التي تكتفي برصد الابعاد المعروفة لهذا المسرح دون الاهتما م بتعليلها او تقصي روافدها وأسبابها .. فظواهر مسرح اللامعقول المختلفة بدءا من ميلاده نفسه حتى أدق خصائصه الفنية ليست سوى مظاهر لاسباب جذرية كامنة في طبيعة الظروف الحضارية التي ولد فيها وعبر عنها.. كما أنها برغم اكتفائها بهذا التسجيل الغلافي لا ترصد هذه الظواهر بدقة ترصد شتى ملامحها المتناهية الصغر ، بل تهمل الكثير من هذه الظواهر وتبتسر بعضها .. فعند حديثها عن تفكك الحوار في مسرح اللامعقول لم ترده لمفهوم اللغة في هذا المسرح ولا لطبيعة بناء الشخصية الانسانية فيه وتصوره لها ، بل اكتفت برصد مظاهره .. والغريب ان المسرحيتين اللتين استشهد بهما الكاتب من أقل مسرحيات هذا المسرح تفككا .. وهما (في انتظار جودو) و (الملك يموت) .. فلو استشهد الكاتب بمسرحيات (الايام السعيدة) او (شريط كراب الاخير) لبكيت او (المغنية الصلعاء) او (الكراسي) او (الساكن الجديد) لاونسكو او (البنج بنج) لاداموف او (من يخاف فرجينيا وولف) او (في حديقة الحيوان) لاولبي لكان اكثر توفيقا واقناعا في تناوله لهذه الجزيئة مثلا .. الا ان الدراسة لم تستمر في تعثراتها تلك حتى النهاية ، بل حاولت ان تضيف شيئا جديدا بمناقشتها لاسلوب التمثيل في مسرح اللامعقول .. وكان باستطاعة هذا الجزء من الدراسة أن يكون اكثر اقناعا لو تجاوز الكاتب مفهوم ستانسلافسكي في التمثيل والذي ظل قابعا في خلفية رؤيته دون أن يفصح عنه ، واستعان بمدرسة بريخت او بمدرسة جان لوي بارو واضرابهما .. وعموما فان دراسة مثل هذه الاشكال الفنية الجديدة تحتاج الى كثير من التمرس بكافة حرفيات المسرح والمعرفة العميقة بتطور فنونه . ولهذا فاني اعذر قصور كلمات قاسم في هذا الميدان واحمد له طموحها .

صبري حافظ

القاهرة

القصائد

بقلم : شوقي خميس

***

اذا كان لكل عصر من العصور نموذجه من الادب والفن،ذلك النموذج الذي يعبر عن احتياجاته الروحية وعن مستوى من الاشباع لتلك الاحتياجات ، بحيث يمكننا الحديث عن النموذج الاغريقي القديم، او النموذج النهضي ، او النموذج الرومانسي ، مسترشدين في ذلك بمقاييس عامة فلسفية وفنية تتمثل فيها الاسس المصطلح عليها في هذا العصر او ذاك ، وان عصرنا الحاضر يفتقد وجود مثل هذا النموذج نظرا لما ادى اليه عامل السرعة التي تتسم بها عمليات التغير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في عصرنا من الاطاحة بكل النماذج التي حاول خالقوها عبثا ايجاد قدر من الاستقرار في الذوق المعاصر ، ذوق الانسان المطحون بين الثقة والشك ، بين الفزع من الموت والفزع من اللامبالاة ، بين آلام التفسخ الحضاري وآلام الولادة . وبقدر وحدة الانسان في عالم سقطت فيه كافة الوسائط الميتافيزيقية المقامة بينه وبين الواقع ، وبقدر اغترابه امام التعقد المتزايد في أبنية الحياة المادية ، يولد القلق والانفصام واللامبالاة والالية . وتنتشر هذه الامراض على سطح القشرة المخية في رأس الانسان . وتؤثر على درجات متفاوتة في غرائزه الحيوية وتوهجه الحسي . كما تؤثر على الذاكرة والممارسة والحلم . والفنان والشاعر لا يواجه بهذه الصعوبات فقط عنده أيتقدم الينا بعمله الفني منساقا وراء المثل الاعلى للفن الا وهو التقريب بين البشر انما يواجه بصعوبات اخرى نشأت من طبيعة العصر المتوترة والمضادة للاستقرار . وفي مواجهة الحضارة الاوروبية التي كانت تعتبر الى حين قريب مقياس التقدم الانساني نهضت حضارات اخرى عربية وافريقية واسيوية لتؤكد نظرات أخرى في تاريخ الحياة والقيم . وفي مواجهة الادب الرسمي ارتفع صوت الاداب الشعبية مبشرا بمراكز انطلاق جديدة وخصبة . وفي مواجهة القوى المناضلة من أجل الحرية اقيمت المدافع المصممة على اسس علمية . وفي مواجهة التقدم العلمي نحو السلام تدبر مؤامرات الخيانة بعد أن يصبغ اللصوص وجوههم باللون الاخضر.هناك يغترب الانسان امام عالم متفوق عليه . وهنا يختلط الحلم بالدم ، والكلمات بالتراب ، والعرق بالمستقبل . لقد تعرت الاشياء بشكل لا مثيل له ، وتقنعت في نفس الوقت الى درجة الالغاز . وعلى الفنان والشاعر أن يتقدم وحيدا ، شجاعا بلا عون من نماذج جاهزة ، يتقدم بتجربته هو مع هذا العالم . فنحن نعيش في عصر التجربة، لا النموذج، ولا اقصد هنا الى التقليل من قيمة التراث الانساني ولكن اؤمن به بقدر ما تؤكده التجربة المعاصرة . ولا اقصد ايضا الى التقليل من شأن التاريخ والعلم كعوامل موسعة للادراك الانساني ولكن اؤمن بها كعوامل

مساعدة فقط بالنسبة للفنان والشاعر . ويظل العبء الاكبر ملقى على جهده الذاتي من اجل الادراك المتزايد للحياة ، وتنمية قدراته باقدامه على التجربة . كذلك فان الناقد النزيه يجب الا يقع في خطأ مقارنة العمل الادبي او الفني بنموذج واحد باعتباره المعبر عن احتياجات عصرنا . وانما يجب ان تكون المقارنة بعد ان يدرك الناقد كل ما يستطيع ادراكه من ظواهر الفن وفلسفاته ، وتتم المقارنة بالحياة نفسها كما هي في عريها وتعقدها ، لتكون اكثر قدرة على كشف الخصائص الجدلية بين العمل الفني ، بما يحتويه من قيمة ومادة وشكل ، وبين واقع الحياة المعاصرة . ومن حياتنا هذه يستمد الشاعر الموسيقى والصورة والافكار والمشاعر . ويضيف عليها من احساسه الذاتي ومن خصائص الصياغة الفنية ما يجعلها تعود الينا وقد حملت بقدر من الحياة اكثر مما اخذت.

وكل عمل فني حق ، وكل قصيدة جيدة لا بد وان تمثل اضافة الى مدركاتنا ، رؤية جديدة لجانب من جوانب الحياة او الواقع الانساني. هذه هي مسئولية الشاعر . فليلجأ الى الحلم الرومانسي ما دام قادرا — من خلال حلمه — على ان يسلط الضوء على الحياة والانسان .وليلجأ الى التقرير ما دام تقريره يمثل كشفا . وليلجأ الى النغم الخطابي ما دام قادرا — من خلاله — على اثارة ما تحت السطح .. اما التناول الرومانسي للتجربة الشعرية كوسيلة للهروب من المعاناة ، ومن تجارب الحياة الجادة ، واما اللجوء الى التقرير والخطابية لضحالة ثقافة الشاعر وسطحية ادراكه للحياة فهو ما نعتبره ظاهرة مرضية تنتاب الكثيرين من كتاب الشعر الحديث . ذلك الشعر الذي وجد اصلا من خلال الصراع من اجل تخليص الشعر من مثل هذه الظواهر ، حتى يتاح للشاعر فرصة النفاذ الى الواقع بصورة اكثر حسما وجدية .

وفي قصائد العدد الماضي — كما سنشاهد حالا — تجارب عامة ينقصها التخصص الذي هو جوهر الفن ، وتجارب رومانسية هاربة ، وتجارب ساذجة او مفتعلة او تقريرية او خطابية لا تضيف شيئا حقيقيا الى الواقع والفن ، وتجارب واضحة القصور في تمثل الموضوع .

ففي قصيدة ((اغنية للرياح الخمس)) للشاعر العراقي سعدي يوسف قدم لنا الشاعر مزيجا رومانسيا ، عن طريق الربط المصنوع بين احاسيس اليأس والموت والعذاب والملل، وبين الظواهر الكونية والطبيعية كالرياح والثلج والنبع وجنينة التفاح . فشاعرنا يسقط حزنه على الكون والطبيعة ببساطة شديدة . ويتوقف في منتصف الطريق بين الواقع الانساني والوجود الخارجي حيث لا شيء سوى البكاء الابدي ، وصورة ممزقة تعلن اجزاؤها المبعثرة هنا وهناك عن شاعر اصيل ليته يصير اكثر سيطرة على تجربته ليلم شتاتها في عمل فني ناضج .

وفي الاتجاه الرومانسي الهارب نفسه تحلق قصائد اخرى وان اختلفت في الوزن ونوع التجربة . ففي قصيدة الشاعر محمد ابراهيم ابو سنة يختفي الصوت الرومانسي من نسيج الدراما السريعة ، حيث نرى سعادة الانسان كاحتفال قصير عابر محاصر بعالم موحش ، تعذبه حقائق الحياة والموت . ومن خلال الحبكة القصصية في القصيدة تتابع الصور الرقيقة المرهفة المنبثقة من طبيعة اللحظات الشعرية . ومن خلال الدهشة التي تنتاب بحق ذلك الخيال القديم الساكن في ذاكرة الشاعر يصير الصوت اكثر ذكاء وتأثيرا ، رغم انه لا يثير سوى مناطق متخلفة في الوجدان الحديث .

وفي قصيدة ((مرثية)) للشاعر مصطفى خضر ، صورة اخرى من صور العذاب الابدي تعكس الصراع في نفس الشاعر بين احساسه الصوفي بالحياة والاشياء ، وبين افتقاره القدرة على الايمان ، انه يبحث عن شيء اعظم من الواقع ، شيء غامض شبيه بجودو ، صموئيل بيكيت . وتدفعه الحيرة الايديولوجية نحو متاهات الرومانسية والضياع واليأس حيث يشحب شيئا فشيئا حسه الصوفي المتعلق بعذرية الحياة والاشياء والمنطوي على نواضع الحب .

اما قصيدة الشاعر نصار محمد عبد الله (قبل ان تقول لي) فليست الا تعبيرا باهتا عن هروب رومانسي من آلام غير محددة الى عالم ملفق شديد الهزال .

كذلك قصيدة ((النزيف)) للشاعر سليمان الجبوري لا تتعدى شكوى الشاعر غير المبررة فنيا حيث تنعدم امكانية المشاركة بين المتلقي والشاعر.

اما قصائد ((ثورة)) للشاعرة وفاء وجدي و ((انتظار)) للشاعر حسن عبد الله القرشي و ((نيرون والحرف الاخضر)) للشاعر كمال طعمه فتثير مشكلتين اخريين . تتعلق الاولى بدور الفكر في القصيدة، وتتعلق الثانية بالصياغة التقريرية للتجربة . فاذا لم يكن صحيحا ذلك الظن الشائع بان الشعر يخاطب العاطفة فحسب ، واوضح مثل على ذلك — في تراثنا — شعر الحكمة، واذا لم يكن صحيحا ذلك التقسيم التقليدي للادراك الى عقل وعاطفة حيث لا توجد حدود حاسمة بينهما وانما تداخل وعلاقة جدلية ، واذا نظرنا الى التجربة الشعرية باعتبارها تجربة ذات معنى ، فلن يكون غريبا ان نطلب في القصيدة القدرة على مخاطبة ذكاء القارىء وان يتمثل الادراك غير العادي في رؤية الشاعر للاشياء العادية . اما الادراك العادي للاشياء العادية فهو يبعد بنا عن مجال الشعر ليقترب من النظم ، كما في قصيدة ((انتظار)) للشاعر حسن عبد الله القرشي ، التي يتناول فيها موقفا صبيانيا لرجل عاشق بادراك صبياني . واما الادراك غير العادي لفكرة عتيقة فمصيبة حقيقية خاصة حين يرتدي الشاعر مسوح المتفلسف ، كما في قصيدة ((نيرون والحرف الاخضر)) التي تمثل ترديدا فارغا لفكرة ان العالم — عالمنا دائما — كله شر . اما الادراك العادي للاشياء غير العادية فنصفه شعر ونصفه نثر كما في قصيدة الشاعرة وفاء وجدي التي تتناول اللحظات الشعرية (مثل الاعتراف والصراع والتحدي) في حياة امرأة غانية ، لكن سرعان ما تخرجنا رؤيتها التقليدية الساذجة من تلك اللحظات .

وبعد ذلك يسهل تفسير لجوء الشعراء الثلاثة الى الصياغة التقريرية لتجاربهم ، وهي الصياغة الوحيدة لطريقتهم في الرؤية الشعرية .

وفي قصيدة الشاعر محمد النقدي ((نظرة من عينين خضراوين)) المهداة الى نزيل القمر المنتظر احسن الشاعر طرح بعض خيوط القصيدة كتغنيه بالتفوق الانساني والمحبة وتحذير النزيل المنتظر من ان يلطخ انتصارنا بالدم ، الا انه لم يكتف بهذا المستوى الغنائي فعقد التجربة باختلاق مفارقات سطحية بين حلمه بالمحبة وبين عالمنا : حيث الدم يرشف بالفنجان كالقهوة ! ولم يتحقق التعقد المخصب انما الازدواج الذي ادى بالجسد البشري الى ان يصير اناء يسقي العابر في الاسواق ! بينما ترفض الكلمات على انغام شطر المتدارك في مرح مستعار.

واخيرا فاني لا املك سوى توجيه التحية الحارة للشاعر عبد الصاحب الموسوي على قصيدته النبيلة ((انهار الشلل)) التي بعثت — خلال الرؤية المريرة للعذاب والموت — عالم صديقه الساحر شاعرنا بدر شاكر السياب بكل ما يحتويه من معاناة وتوهج اصيل .

وتبقى قصيدة ((الاميرة والعشاق المدمون)) للشاعر محمد سعيد الصكار يصور فيها بغداد في صورة اميرة لا تدري باحبابها الذين ينتظرون وقد صنعوا لها من احلامهم جزيرة علها تتعرف عليهم ، اذا عبرت اليهم يوما ، وتبتسم ، ولكن اتراها كما يقول شاعرنا لا تحلم حقا؟ اترى اصحابها لا يفعلون اكثر مما يفعل العاشق المدم .. ؟

اذا كان على الشعراء ان يحملوا في امانة آلام عالمنا ويكونوا شهودا على صراع انسان اليوم من اجل عالم افضل واجمل فهل يكفيهم عزاء ان امانيهم لن تموت ولسوف يغنيها اناس اخرون ويفهمون ؟

القاهرة — **شوقي خميس**



بقلم غالب هلسا

***

في هذا العدد ثلاث قصص ، اثنتان منها مؤلفة وواحدة مترجمة . والقصص الثلاث ، المؤلف منها والمترجم ، ضعيفة الى حد الرداءة مما يجعلنا نتساءل عن سبب تلك الجاذبية الغريبة بين مجالات النشر في العالم العربي وبين القصص الرديئة في هذه الفترة بالذات .

ان كل من له احتكاك بجو المثقفين في القاهرة مثلا يستطيع ان يكتشف أن هنالك ما يزيد على عشرين كاتب قصة من المجيدين والذين لا يجدون مجالا لنشر انتاجهم . بينما في الناحية الاخرى نجد انمجالات النشر تزدحم بالتافه والغث من الانتاج القصصي . ولم تستطع اية صحيفة أو مجلة في العالم العربي ، بما في ذلك مجلة الاداب ، ان تنشر هذا الانتاج او أن تحاول التعريف به . وعلى الرغم من هذا ، فان الجميع يشكون من عدم وجود قصص جيدة وانهم لذا مضطرون لنشر التافه والرديء منها .

وما يزيد الامر غرابة ، ان كتاب القصة الممتازين قد توقفوا عن نشر انتاجهم ، ربما لهذا السبب بالذات ، مثل فؤاد التكرلي ، وادوار الخراط وسليمان فياض وغيرهم . واعرف عددا اخر من الكتاب ذوي المستوى الممتاز ايضا لا ينشرون الا اقل اعمالهم قيمة لان ذلك وحده هو الذي يمكن أن يقبله المسؤولون عن النشر .

ويوما بعد يوم تزداد هذه الغربة بين الانتاج الفني الجيد وبين مجالات النشر . ولهذا اثاره النفسية العميقة على هؤلاء الفنانين الذين يتحولون شيئا فشيئا الى كتاب ذاتيين ، منطوين ، ويصبح اسلوبهم في الكتابة مستعصيا على الفهم . واذا كان مثل هذا الوضع مفهوما من مؤسسات يشرف عليها بيروقراطيون ضيقو الافق ، أو انتهازيون جهلة فان المسألة تبدو غريبة حقا بالنسبة لمجلة الاداب التي كانت فيالماضي أحد منابر الجديد والجريء في الفكر والفن .

ونعود لقصص هذا العدد .

القصة الاولى بعنوان (رحلات الثلج) بقلم الاستـــــاذ يوسف شرورو . والقصة مثال لم اجد له شبيها قط في تحويل حوادث لا تقول شيئا الى خطب حماسية تلقى الى جمهور من المراهقين . والقصة لا تزيد عن ان شابا فلسطينيا يعيش مرفها في لندن ، وله سيارةوسائق خاص ونساء ونقود وهو يود أن يعود الى بلاده العربية ــ ليكافح فيما يبدو . فما يكاد السائق يلقي تحية المساء حتى يندفع بالعويل واللطم والصراخ لان السائق يردد مثل هذه التحية منذ ثلاث سنين ولانه مل ذلك . وحول كونه غريبا ولا ينتمي الى اي بلد وان عليه أن يعود الى بلده حيث الكفاح والصدق الخ... ويركب السيارة ثم يلقي خطبـة اخرى ايضا حول اهمية الانتماء الى بلد. ثم يقابله صديقه سمير ويقول له ان الاصدقاء ينتظرونه في المقهى ، فيندفع بحماس شديد مهاجما سمير وسيارته الفخمة جدا وانحلال الشبان العرب في لندن والدعوة للعودة الى الوطن . ثم يدور حديث متقعر بينه وبين اصدقائه : نحن لم ننجز شوارع الثلج لاننا لم نقف بعد السقوط الاول ... ثم يقــول الراوي : ان الهدف يجب ان يحتوي الارض ، والعمل للارض .. او ان يقول خالد : هذا صحيح ، فقد قرأت ان الانسان حيوان ذو هدف . وبعد كل جملة من هذا الحوار المضحك تتكرر التعليقات والخطب .

واذا قال أحد الاصدقاء المجتمعين ، لنفرض ان حجرة سدت باب المقهى وعزلتنا عن العالم ، فالراوي ينتقل فجاة الى مخاطبة القارىء ان مثل هذه الصخرة قائمة بالفعل بيننا وبين الشعب العربي . ولا ننسى أن يؤنب الصحف العربية لانها تنشر اخبار الفيتنام والدومينيكان وتنسى الارض المغتصبة .

اين القصة من هذا كله ؟ ليس ثمة بالفعل اية قصة ، وانما هي نتف من تعبيرات وجودية مسلوقة وضعت في غير موضعها ، وزخرفة بلاغية تصلح لموضوعات الانشاء في المدارس الثانوية .

ومن الطريف ان نلاحظ في هذه القصة ان الحمـــاس الشديد والتعابير المبالغ بها تخون نفسها من خلال بعض العبارات التي تفلت بين آن واخر ، فعندما يصف الراوي فخذ الفتاة الصغيرة العاري بأنه شهي فمن الواضح ان الاشتهاء ليست صفة لفخذ الفتاة الصغيرةولكنه تعبير عن رغبة الراوي واشتهائه لها . والشيء نفسه يمكن ان يقالعن وصفه لسلفيا : « قالت سلفيا بصوت تسرح فيه انوثة جنسية حمراء ... او ... وجاءت سلفيا تتلوى بجسدها المعتق » .

وهكذا نواجه موقفا هزليا للغاية : التعبير عن احتقار شيء مـا بطريقة تكشف تلهفنا عليه .

القصة الثانية هي « لمن تنعق الغربان ؟ » بقلم الاستاذ عبدالفتاح الديدي . وهي تشبه القصة السالفة من حيث عدم كونها قصة، ولكنها ــ وهذا ليس مديحا لها ــ اجود بما لا يقاس من القصة السابقة . والقصة لا تزيد عن كون موظف ارسله رئيسه في العمل الى القاهرة لانجاز بعض الاعمال ولكنه يغادر القاهرة مسرعا ويعود الى دمياط التي يكرهها لانه رأى رجلا عجوزا يحمل ابنته المقعدة .

وعلى الرغم من قدرة الكاتب وبراعته الا انه فقد بشكل واضح التحكم في خلق توازن بين الحدث الصغير وبين تلك الانفعالاتالعنيفة والصراخ والاحتجاج التي اثارها . فرؤية فتاة مقعدة امر مؤلم دونشك ولكنه واحد من مئات المناظر التي نراها كل يوم ، ولا يمكن ان يوجـد ذلك الانسان الذي يدمي نفسه ــ والقراء ايضا ــ ويعـــرض نفسـه لاشكالات لا تنتهي لمجرد مشاهدة مثل هذا المنظر .

كما أن الارتباط بين هذه الحادثة الصغيرة وبين كل الاشياء التي اوردتها القصة مفتعل ولا يتحمله تكوين القصة ذاتها ، فملله من مدينة دمياط ، وحزنه الغريب لرؤية الصيادين الذاهبين لصيد السمك ، واحساسه بالاسماك الصغيرة المنتشرة علـى الشاطىء كانها جثث ، والاحساس بصلابة العالم وعدم تجاوبه كلها اشياء تنبع من حساسيـة مفرطة لا من الحادثة الصغيرة . ومثل هذا الرباط العام لا يكون وحدة فنية متكاملة ، تماما ، مثل استحالة كتابة قصة عن محاسن الشجاعة او مساوىء الفقر دون ربط ذلك باحداث واقعية محددة .

كما ان لغة القصة محيرة بالفعل لقد ظننت اول الامر ان الكاتب يحاول أن يسخر من بعض التعابير الادبية والفلسفية الشائعة، ولكنني عندما مضيت في القراءة اكتشفت ان الرجل جاد الى اقصى حد . ولكنني اعترف بعجزي عن فهم كثير من العبارات ، مثل قوله في وصف مدينة دمياط : « ... مدينة اقتطعتها الحياة من بطن الريف لتقذف بها الى سماء الشاعرية الرومانية . ولكنها استبقتها بغيـر نبيذ ... بغير دفء ... » .

كما عجزت عن تصور المراد من مثل هذه العبارة : « وتحف هذه الشوارع من الجانبين بيوت تنبعث منها رائحة خاصة . وتقوم حوائط هذه البيوت كأنما تضم اسفنجا . وتظل صاعدة هابطة كأنها تحمـي مخلوقات هلامية الخ... » .

والقصة الثالثة من تأليف كونراد ايكن وترجمة نمر محمد سرحان . والقصة رغم كل عيوبها استطاعت ان تحكي شيئا . وان تقيم توازنا بين احداثها والفكرة الكامنة وراءها .

الا انه يظل امرا غير مفهوم تقديم قصة تدور حول فكرة ان الجريمة لا تفيد . وان السرقة عيب لا يصح ان يرتكبها احد اذ قد يحدث له ما حدث لبطل القصة الذي طلقته زوجته وخانه الاصدقاء . وبعد ان نفهم هذه الموعظة جيدا يخبرنا الكاتب ان البطل قرر ان يبدأ حياة جديدة . واذا كان احد سيستفيد من قراءة القصة فانني واثق انه لن يكون من بين قراء « الاداب » .

القاهرة — غالب هلسا